

TIGHT BINDING BOOK

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190837

UNIVERSAL
LIBRARY

نور الأدب

بقلم

الكنوز محمد صبيح هبش باش

جميع الحقوق محفوظة

• مطبعة السعيدة رقم ٣٠ شارع المنار •

الى الشباب

رجاء الغد : وأمل المستقبل

اهدي هذا الكتاب

هين

للمؤلف

زینب	طبعت سنة ١٩١٤
جان جاك روسو جزءان .	في سنة ١٩٢١ وسنة ١٩٢٤
في أوقات الفراغ	سنة ١٩٢٥
عشرة أيام في السردان	سنة ١٩٢٧
تراجم	سنة ١٩٢٩
ولدى	سنة ١٩٣١
دين مصر العام بالفرنسية	سنة ١٩١٢

تقديم

هذا الكتاب جديد قديم . هو قديم لأن بعض فصوله نشر من قبل كما هو بعنوانه ، وبعضها نشر لم يغير منه الا عنوانه . وهو جديد من ناحيتين . الأولى وحدة الفكرة التي تنظم فصوله جميعاً . والثانية أن بعض الفصول جديد لم يسبق نشره ، وبعضها مما سبق نشره زيد عليه أو حذف منه ما يجعله يتفق ووحدة الفكرة ، وبعضها ألف من أكثر من جزء من عدة فصول نشرت ، وهذه الاجزاء جميعاً تنسق من حيث الفكرة وتؤدي الى الغاية التي وضع الكتاب من أجلها . فالكتاب اذن جديد قديم . وأحسب طابع الجودة فيه أغلب لأن الفكرة التي دعت إلى نشره لم تكن بارزة في أى من الفصول التي سبقت الى نشرها بروزها فيه .

وقد اخترت له (ثورة الأدب) عنواناً بعد أن جال بخاطري قبيل طبعه أن أجعل عنوانه (نحو الأدب القومي) ، لأن فصوله الأولى جميعاً لا تتحدث عن الأدب القومي وإنما تتحدث عن هذه الثورات المتصلة التي شهدتها نصف القرن الاخير في شؤون الكتابة والأدب وتصف الجهود المتصلة الذي قام به أصحاب المذاهب المختلفة في إقامة الادب العربي الجديد . والواقع أن هذا الأدب العربي يضطرب بعوامل الثورة فيه منذ الثورة العراقية في مصر ، ومنذ بدأ هذا

الشعور القومى يحرك النفوس ويدعوها الى التوجه نحو النهوض
بمجموع الامة الى مثل أعلى . من يومئذ بدأت الكتابة تخرج
من حظيرة الضيقة حظيرة الدواوين ، ومن النطاق المحصور نطاق
التعليم ، لتصل بالناس على اختلاف طبقاتهم ولتصور لهم من نواحي
الحياة ما يريد الكاتب تصويره . وقد كان هذا العمل وما يزال شاقا .
فأية لغة يمكن أن تحقق هذه الغاية ويمكن أن تبقى مع ذلك على الزمان ؟
ليست هى اللغة الدارجة التى يتكلم الناس بها لأن لكل إقليم من
الأقاليم لغة كلام تختلف عن لغة الأقليم الذى يجاوره ، وتكاد تقطع
الصلة بينها وبين الأقليم الذى يبعد بعض الشيء عنه . واختلاف
لغات الأقاليم التى تتكلم العربية يجعل محالا وضع قواعد تنظم هذه
اللغات المختلفة . ولغات الأقاليم لم يدون لها أدب له من الاحترام
ما يجعل بعنه موضع فخر ومجد . فلا بد اذن من أن تكون اللغة
العربية الصحيحة لغة الكتابة ولغة الاتصال بالجمهور . لكن هذا
الجمهور لا يفهمك اذا خاطبته باللغة التى كان يتخاطب بها العرب الأولون .
ولكن اللغة العربية هى كذلك لغة القرآن الكريم . فكيف ترتفع
بالجمهور إلى حسن ادراك لغة القرآن ، وكيف تقرب اللغة العربية إلى
إدراك الجمهور ؟... من الاجابات المختلفة على هذين السؤالين نشأت
ثورة الأدب خلال السنوات الخمسين التى انقضت حتى يومنا الحاضر .
وفى خلال هذه السنوات الخمسين أخرجت الثورة صوراً من الأدب مختلفة
فى النثر والشعر يدرسها بعض المستشرقين اليوم ، وهى جديرة بالعبارة
والدرس من كل مشتغل بالأدب معنى بتساريح الكتابة العربية فى
العصر الاخير

وكما أن الثورة العراقية لم تنته الى اليوم لأنها لم تحقق غايتها، كذلك لم تنته ثورة الادب بعد الى غاية . وكما أدت الثورة العراقية الى الاحتلال البريطاني لهذه البلاد احتلالاً أثبت به الثورة السياسية الى ناحية جديدة ، كذلك اتجه هذا الاحتلال بثورة الادب الى ناحية جديدة انتهت عندها الصورة الاولى من الثورة، صرورة لغة الكلام ولغة الكتابة ، ولم تبق بعدها محلاً لبحث أو جدل ، ولم يبق قط قائل باتخاذ لهجات الكلام أساساً للادب ، وحل محل ذلك ماسمى انقديم والجديد في الادب واللغة . وقد احتدمت معركة القديم والحديث هذه منذ سنين طويلة وتنقل المحاربون فيها في ميادين مختلفة كانت هذه الميادين قبل الحرب تتناول أساليب الكتابة وتتناول الالفاظ العلمية وغير العلمية الجديدة كما كانت تسم في رفق صور الأدب وما يصح أن تسكون عليه . والى يومئذ كانت الغلبة لأنصار تقليد الادب القديم وكان السجع والانراب في اختيار الالفاظ بعض ما يمتاز به كتاب العصر . وكان الادب الغربي يومئذ جديراً بأن يسمى الادب الكبير في النثر والشعر . فقد كان الادب القصصى قد بلغ قمة مجده وكان كبار الشعراء قد أقاموا في لون العصر ما يقف الى جانب الالباذة والانيادة في الادب اليوناني ، والى جانب شعر فرجيل من أدب الرومان . وكان كثيرون من شبانا الذين ذهبوا يتمون دراساتهم في أوربا يومئذ سواء منهم من أوفدتهم الجامعة ومن أوفدتهم الحكومة من بعدها ومن ذهبوا يتمون دراساتهم العالية قد فتنوا أكبر فتنة بهذا الادب الغربي الكبير . فلما أن لهم

أن يعودوا وكانت الحرب الكبرى قد أعانت أو قد انتهت كان هذا الادب الغربى الكبير فى أوربا قد آن له أن يستريح بسبب انصراف النفوس فى الغرب عنه . ويرجع هذا الانصراف الى أن النفوس شعرت بـعد الحرب بفراغ هائل فيها كما شعرت فى نفس الوقت باستهتار بالحياة أدى بها الى التهلكة عليها . وما تريد بالانسانية خارجة من أفضع مجزرة شهدتها التاريخ بعد أن ظلت خلالها أربع سنوات تباعا ترى الالوف ومئات الالوف والملايين يحصدهم الموت حسداً وهم فى ريعان الفتوة وزهرة الشباب ! أية قيمة للحكمة فى نظرها ولهذا القصد فى الحياة نهل منها على بهل اذا كنا نجهل كل الجهل ما سنصير اليه فى غدنا ، وهل سنظل فى فتوتنا وقرتنا نستمتع بالعيش ونعيمه أو أنا سنصبح لاشئ كما أصبح ملايين غيرنا ؟ اذن فعلى الحكمة وعلى العقل العفاء ، ولنترام بكلنا فى أحضان المسرات ننال منها فى أقصر وقت أكبر حظ مادمننا غير مؤقنين بأنا سنأخذ حظنا منها كاملاً اذا نحن تناولناه على مهل وبمقدار ما تطيقه قوانا الانسانية . . . وكان من أثر هذه الحال النفسية على الادب أن اضطر كثير من الكتّاب لارضائها وامتناعها بما تريد الاستمتاع به من شهوات صغيرة ولكنها مختلفة متفرقة لانها تنقص الى إرضاء شهوات النفس جميعها . وهذا النوع الصغير من الادب هو الذى تهافتت الجاهير عليه لا قدرأ منها إياه ولا إعجاباً منها به ، ولكن لانه يسد مطامعها ونهمها للمتاع كما تهافتت على غيره من بضاعة ربما كان فيها اضرار بها ولكنها تهافتت عليها لانها تسد حاجتها الى نسيان آلامها وهمومها لتستمتع بسعادة مؤقتة زائلة ، ولكنها على كل حال سعادة ربما لم

يتح لها أن تنال غيرها قبل هذا الغد الذى يخبىء لها مالا تدرى —
المرض أو العاهة أو الموت أو البؤس الدائم .

عاد الشبان الذين أتموا دراساتهم فى أوربا قبيل الحرب أو أثناءها
أو فى أعقابها ممتلئة صدورهم إعجابا بالأدب الكبير الذى قرأوا
والذى شهدوا على المسارح ، موجهة عقولهم توجيهاً جديداً على
الطرائق العلمية الحديثة . وعادوا فدخلوا الميدان بقوة ونشاط لم
تر مصر مثلها من زمن غير قليل إلا من أفراد قلائل موهوبين كان
لهم أثرهم فى توجيه التفكير المصرى وفى مقدمتهم المرحومين الشيخ
محمد عبده وقاسم أمين كما كان بينهم بعض أساتذتنا ممن لا يزال أثرهم
فى هذه الناحية متصلاً . وسبب قوة هؤلاء الذين عادوا الى الميدان
ونشاطهم أن البعث الى أوربا لاتمام الدراسات العليا كانت قد
انقطعت زمناً غير قصير ولم تعد سيرتها الأولى إلا فى سنة ١٩٠٧
بفضل الجامعة المصرية فضلاً تأثرتها فيه وزارة المعارف فى السنة
التالية . أما ما قبل ذلك فقل من كان يسافر الى أوربا للقيام بدراسات
عليا متصلة ، والشبان الذين كانوا يقصدون مختلف الجامعات فى فرنسا
وانكلترا كان أكثرهم ممن لم يلق نجاحاً فى مصر فلم يستطع متابعة
دراساته فى مدارسها . فلما عادت البعث سيرتها واوفدت الجامعة
من أوفدت واقتدت بها وزارة المعارف انتقلت العدوى الى بعض
الأفراد القادرين فذهبوا يتمون تعليمهم وعادوا بعد اتمامهم إياه
فنقلوا ميدان القديم والجديد فى الأدب ووجهوه وجهة أخرى غير
لغة الكلام ولغة الكتابة مما كان البحث فيه قد فرغ ، وغير أساليب
الكتابة بعد أن أسبغ عليها امتياز شخصيات بعض الكتاب

حائلاً جديداً نقلها من مجرد المحاكاة الى بروز الذاتية . هذا الميدان الجديد الذى انتقلت المعركة اليه هو صور الأدب وما يجب أن تكون . لقد انقضى عصر المقامات والترسل فى نظر هؤلاء المجددين فلا بد من صور جديدة هى صور الأدب القومى الكبير . هى القصة والاقصوصة وهى الشعر الوجدانى والشعر التمثيلى . وقد أذن ثورة الادب هذه أنها اقترنت بالثورة السياسية التى شبت فى أثر الحرب الكبرى إذ بدأت فى ٩ مارس سنة ١٩١٩ . ألم يكن المصريون يطلبون فى ثورتهم هذه الاعتراف باستقلالهم وسيادتهم ويطلبون حياة سياسية وصوراً من الحرية السياسية على مثال ما فى الغرب سواء ؟! فلتكن مظاهر الفن والادب مصبوبة عندهم فى قوالب غريبة لتكون آية للناس جميعاً على تقدمهم وعلى أنهم يسبقون الغرب الى مختلف ميادين الحضارة وقد يسبقونه .

ولم تكن ثورة الادب هذه ليغيب عن الأذهان جلال خطرهما ولا هى كانت أقل لئلاً لنظر الغرب من الحركات السياسية التى دمجها الصانع القومى والتى امتدت الى بلاد الشرق جميعاً . ومهما تكن الحوادث قد غمرت زعماء ثورة الادب فى ميادين السياسة فان جهودهم ظلت تراقب وتحلل كأدق ما كانت جهود الزعماء السياسيين تحلل وتراقب . ذلك بأن الادب واتجاهه فى أية أمة من الأمم هو العنوان الصحيح لحضارتها وهو اقوة التى لا تستطيع اقوة أخرى كبحها واقضاء عليها بالسهولة التى تقضى بها اقوات المسلحة على الثورات السياسية . وانما يقضى على ثورة الادب باندساس عوامل تفسد توجيهها . ويخيل الى أن مجهوداً كبيراً قد أنفق فى هذا

السبيل كما أنفق من قبل ذلك مجهود كبير لقضاء على حركة الإصلاح الدينى التى بدأ المرحوم الشيخ محمد عبده والتي كانت جديدة بأن تؤتى أعظم الثمرات . ومهما يكن من أمر هذه الجهود فإن ثورة التجديد فى الأدب قد ظفرت بالتقدم وقد جرت الى ناحيتها حراس حصونه حتى كادوا يسلمون المجددين مفاتيحها . لكن ما أنفق من الجهود التى هيات النور ففتح عيون أصحاب الجديد واسعة وجعلهم يتساءلون : أيا ن نذهب وماذا اليه من جديدنا نقصد ؟

وقد كان طبيعياً أن يقفوا هذه الوقفة وأن يطرأ هذا السؤال . فالحضارة الانسانية ثورة متصلة مظهرها الأدب والفن . ونحن فى مصر وفى الشرق كانت لنا حضارات مختلفة انطوت ثم أخضعتنا الظروف لحكم الحضارة الغربية . وقد قامت هذه الحضارة الغربية أول قيامها على بدت فلسفة اليونان وتشريع الرومان واتجاه الأدب الوجهة التى ترسمها هذه الفلسفة وهذا التشريع وما أحاط بهما فى عصورهما من صور الفن والأدب . ثم جعلت أوروبا تسنقل بحضارتها رويداً رويداً لتقيمها على الاساس العلمى الذى وضعه ديكرت فى اقرن السابع عشر ، ثم جعل هذا الاساس يتطور من بعد ذلك الى دين الطبيعة والى فلسفة التجريد فى القرن الثامن عشر ثم الى العلم الوضعى والفلسفة الواقعية والى دين الانسانية فى القرن التاسع عشر ، وذلك كله من غير أن تنقطع الصلة بين هذه الحضارة وبين اليونان والرومان من ناحية ، ومن غير أن تنقطع الصلة بينها وبين المسيحية من ناحية أخرى . صحيح أن هذه الصلة كانت صلة محاربة وهدم فى أحيان كثيرة . لكن الحضارة الغربية لم تقطع ، ولا تستطيع أن تقطع ، صلتها

بهذين العاملين اللذين أنشأها. والادب الغربى المعبر عن هذه الحضارة لا يمكن أن ينسى هذه الصلة . وتستطيع أن تقرأ فى الادب الانكليزى أو الفرنسى أو الالمانى أو أياً ما شئت من آداب الأمم الأوربية وأنت أبداً واجد مظهر هذا الاتصال قويا واضحاً . فإذا عسانا نحن نصنع والى أى أدب والى أية فلسفة فى الماضى القريب والماضى البعيد يجب أن ننسب إذا أردنا به أن يكون مظهراً لحضارة ما ، وقف المجددون هذه الوقفة وواجهتهم هذه المسألة فلم يتردد أكثرهم فى الاجابة بأن ماضهم هو الاب الطبيعى لحضارتهم ولا دهم . أما القلائل الذين قالوا بالاخذ بالحضارة الغربية فى كل مظهرها وصورها على نحو ما فعل الاتراك فلم يجدوا لأقوالهم إلا صدى ضعيفاً زاده ضعفاً ما قدمنا من فتور النفس الغربية بعد الحرب عن الادب الكبير . من هنا بدأت الصلة بين أنصار اقديم وأنصار الجديد فبدأ هؤلاء يقبلون على تراث السلف ينقبون فيه بالوسائل العلمية الحديثة . وبدأ أولئك يقرون هذا ويعتبرون فى ثمرات الجهود التى يبذلها أنصار الحديث فى بعث الادب الجاهلى وأدب عصور الاسلام المختلفة بعناً علمياً دقيق التحقيق خطوة موفقة فى سبيل إعادة الحياة الى حضارتنا الدفينة .

ولكن ! . . ما هى هذه الحضارة ؟ ؟ عربية هى أم إسلامية ؟! سؤال وجهه وكان المستشرقون أشد ما يكونون جذلاً بتوجيهه حتى لقد رأينا أخيراً طلاباً وطالبات غربيين يفدون الى مصر والى مختلف جهات الشرق العربى يحاولون فيما يقولون تحقيق هذه المسألة ، يتصلون بكل من يتوسمون فيهم انهم رجال الادب الحديث ، ويلتمسون اليهم

ان يدلوهم على عقيدتهم العلمية في الامر. وأشعر بأننى في حل من القول بان هذه الطلعة الذرية متجهة الى مثل هذا البحث بما شابها غايات سياسية تبرر الاعتقاد بأن المسألة لم تثر للبحث العلمى وحده . وسواء صح اعتقادى هذا أم لم يصح ، وسواء أ كان المقصود إثارة الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين من الذين يتكلمون العربية . او كان المقصود به أن لا تقرن الى الاسلام حضارة ما ، أو ان هذا ولا ذاك لم يكن المقصود وإنما البحث التاريخى النزيه هو المقصود ، سواء أ كان هذا أو ذاك فانا نعتقد أن أية حضارة يجب لتقوم أن تنصل حتما بعنصر من الايمان . وقد خيل الى العلماء زمناً ما أن العلم سيغذى النفوس بهذا الايمان ليقيم دين الطبيعة على نحو ما حاول روسو أن يقيمه ، أو دين الانسانية على ما وضعه أوجست كومت. لكن ماتم من محاولات في هذه السبيل لم ينجح فى أن يقدم للجمهور الغربى ما يرضى طلعته الى رجاء أو أمل فى الطمأنينة والسعادة. ومن ثم انقلب هذا المجهود الى الناحية المادية والاقتصادية وجعل منها كل رجائه فى الحياة فكان من ثمرة ذلك ماتمانى الانسانية اليوم من شقوة وبؤس زادا فى اغراء الجمهور بالثبث بهذا الامل وهذا الرجاء . فالنفس بحاجة الى رخاء فى غذائها الفكرى والعاطفى حاجة الجسم الى شىء من النعيم فى حياته المادية . ولذلك اندفع فلاسفة الغرب وكتابه وأدباؤه يلتمسون هذا الغذاء النفسى فى أديان الشرق وصور الايمان فيه . والادب كظهر للحضارة لاغنى له عن تجلية جانب الايمان فى النفس كما يجلو جانب العواطف المختلفة ، ولا غنى له عن أن يحلل هذا الجانب ويصف

أثره في الحياة . وجانب الايمان في بلاد الشرق العربي قوى أيا كان الدين الذى يدين هؤلاء الشرقيون به . وقد كان الاسلام وما زال دين أهل هذا الشرق العربي إلا الأقلين منهم ، فلا يمكن أن يؤدي الادب رسالته اذا اهل هذا الجانب القوى من جانب حياة الشرق العربي ، وإذا لم يحاول أن يصل ماضى هذا الشرق بمستقبله الصلة التى تستقيم والتفكير الحديث . وقد تناولت هذا المعنى في خاتمة هذا الكتاب عن الأدب والحضارة .

لم أغل إذن حين استقر رأيى على أن أتخذ « ثورة الأدب » عنواناً لهذا الكتاب . فالأدب في ثورة متصلة بالعمل منذ النصف اقرن الأخير ، ثورة توازى الثورة السياسية المتصلة هى الأخرى في مسيرها وتعماني من صور الركود واليقظة والتقدم والتراجع ما تدانى زميلتها . لكننى لا بد لي من التنويه بأن هذا الكتاب لا يصور جوانب تلك الثورة تصويراً كاملاً . وأحسب دقة تصويرها ما دام اتصاها غير ممكن . وهو بعد ليس من عمل رجل مثلى لم ينقطع له وإنما ألم بما ألم به منه في أوقات فراغه . وقد تكون الفصول التى اشتمل عليها هذا الكتاب بعض هذه الثورة فى مختلف تطوراتها . ومن العسير على مشترك في عمل من الاعمال أن يقوم بتقدير آثار هذا العمل تقديراً دقيقاً على نحو ما يفعل الشهيد المراقب وما دمت قد أشرت الى ما بين ثورة الأدب وثورة سنة ١٨٨١ وثورة سنة ١٩١٩ من موازاة فلا مندوحة لي عن القول بأن عوامل السياسة التى حاولت صرف انتيار السياسى في نواح معينة قد حاولت مثل هذه المحاولة في شأن الادب والكتابة . ولقد أشرت

في هذا التقديم الى ما بذل لهذه الغاية من جهود عافت سير الحركة الادبية وحاولت من غير نجاح كبير افساد اتجاهها . وليس موضع تفصيل هذه الجهود هاهنا . ويكفي أن أذكر ما كان من سعي متصل لجعل اللغة الدارجة لغة الكتابة ، وما كان من محاولة قطع كل نسب بين الحاضر والماضي ، ومن إظهار هذا الماضي في صورة زمنية غير جديرة بالاعتداد بها أو باستلهاها . وقد وصفت في الفصل الذي يلي هذا التقديم صورة ما يصيب الادب في عصور الطغيان . ولعل هذه الجهود كان يصحبها من التوفيق أكثر مما يصحبها لو أن الحضارة الغربية بقيت الايمان بها قوياً كما كان ولو أن الادب الكبير عاون على بقاء هذه القوة . لكن ما أصاب الادب الغربي في أعقاب الحرب مما وصفنا مضافة اليه نهضة مصر والشرق نهضة قوية جعل الجهود التي انفقنا لاتؤتي ما أريد منها من ثمرات وإن جعلها تحول دون ثورة الادب والاستقرار الى ناحية تطمئن اليها . وأكبر اعتقاي أن هذه الثورة ستظل متصلة زمناً طويلاً .

فحين ما زال من بد في بدايتها . وحسن توجيهها بحاجة الى جهود شاقة جبارة والى جود الطبيعة بالموهوبين الذين يستطيعون أن يطبعوا الادب بصورة تدعوا الى استقراره وهؤلاء الموهوبون وأولئك الذين يقومون بالجهود الشاقة لما يوجد منهم في الشرق العربي كله إلا عدد قليل . وبناء صرح الادب على الصورة التي تدور في نفوسنا ونرجو أن تراها اعيننا بحاجة الى كثيرين من هؤلاء المجاهدين والموهوبين . والقوى التي تعمل لتحول دون نجاح هؤلاء وأولئك ضخمة جبارة هي الأخرى . فرجاء استقرار

ثورة الأدب في زمن قريب فيه من التفاؤل ما نرجو وإن كنا نرتاب أشد الريبة فيه .

والآن أختتم هذا التقديم وأخلى بين القارئ وفصول الكتاب . ولعله يجد من نفسه الصبر على تنزوتها من غير أن تمله أو تدعوه الى التناؤب . ولعله اذا استطاع أن يتم قراءتها يرى أنى لم أقم بمجهود عقيم حين فكرت فى جمعها وتنسيقها ثم نفذت الفكرة وأظهرت الملاء على « ثورة الأدب »

الطغاة وعربية القلم

في عصور الظلمة التي تمر بالأمم آنا بعد أن يعمد الباطشون
البغاة الى تقييد حرية القول والكتابة ، وفي سبيل هذا التقييد
يصلون أرباب الاقلام حربا لارحمة ولا هوادة فيها ، فمن إرهاب ،
إلى سجن ، إلى نفي وتشريد . وهم في حربهم هذه يندفعون ضد
الكتاب كاشرة أنيابهم محاربة عيونهم منفتححة خياشيمهم ، أشبه
الاشياء بالكواسر المفترسة حين يغريها منظر الدم فيهيح فيها كل
غرائزها الوحشية ، ولا يهدأ لهم من بعد ذلك بال ولا يطمئن لهم
خاطر إلا اذا اطمانوا إلى أنهم حطموا هاته الاقلام الى غير عودة
لان تكتب ، وأذلوا نفوس حملتها إذلالا لا قومة لهم من بعده .

هذه الغرائز المفترسة التي تهيج في نفوس البغاة لحرب القلم
وحملته ، لا تهيج فيهم لمحاربة أية قوة أخرى من القوى بالغأ ما بلغ
أصحابها من العز والمكانة . والقلم ليس إلا تلك القصبه الضئيلة يسطر
بها صاحبها مايجول بخاطره وما يمليه عليه خياله أو يتسق لمنطقه .
وكل مايسطره القلم انما يسطره على ورقة رقيقة يتناولها من الناس
من شاء فيتلو ما فيها وله بعد ذلك أن يحتفظ بها إن شاء أو يلقيها
الى حيث شاء . والامر كذلك سواء كانت هذه الورقة جريدة أو
مجلة أو كتابا من أى صنف من الكتب . فما عسى أن تنشر هذه

الورقة حولها من القوة التي يخافها الظالم حتى يحشد لمقاومتها كل هذا الجند الذي يحشد ويسخر في سبيل محاربتها كل نظم الجمعية بأسمائها من قانون وعدالة وشرطة وسجون ومشانق وما هو أكبر من ذلك من ألوان الارهاب والارهاق ؟ وهل ترى انتصر الظالمون يوماً على القلم وأربابه ؟ أم كان للقلم النصر أبداً آخر الامر وباء مطاردوه بالخيبة والخذلان وخلفوا من ورائهم أسوأ الذكري وأتسبب الاثر ؟

أما أن يحارب البغاة القلم وحرية أربابه فلهم في ذلك كل العذر . حرية القلم هي المظهر الاسمي لحرية الانسان في أسنى صورها ومظاهرها . وحرية القلم انما تكون حيث يمسك بالقلم رب من أربابه لاعامل من عماله . رب تؤتبه الطبيعة من قوة الخلق والانشاء مالا سبيل اليه إلا في جو من الحرية المطلقة وتدفعه ليخلق هذه الحرية حوله خلقاً ولو وضع هو في غيابات السجون ، بل تدفع ذكره لخلق هذه الحرية اذا هو غيب بين صفائح القبور . ونحن ما نزال نرى ثمرات الاقلام منذ آلاف السنين الماضية هي التي تبرز العالم حتى اليوم هزاً وتنشئ فيه الى اليوم والى الابد ألوانا من الخلق جديدة . ذلك بان القلم هو الاداة لتصوير النفس الانسانية في التماسها الحق والحرية والجمال والخير . والنفس الانسانية التي تلتبس هذه النواحي المضيئة من حياة الكون هي أبداً نفس قوية لاتقف في وجهها حوائل القانون ولا العادة ولا الطبيعة تسبها ، نفس تخلق فوق الاعتبارات الكونية جميعاً لترى مكان الحق الذي تريد ايضاحه ، أو الحرية التي تريد نشرها ، أو الجمال الذي تعالج

تصويره ، أو الخير الذى تعمل لبثه وإذاعته . فاذا اهتمت الى ما ابتغت تثبت منه على القلم ما يسطره على الورق ، وإذا الذين يقرءونه يرون فيه جانباً من جوانب أنفسهم كان محجوباً عنهم ضياؤه ، ويرون أن هذا الضياء هو الذى يبعث لهم فى الحياة نورا يجعل الحياة أجمل وأسمى وأقوم ، وإذا هم ينصرون صاحب القلم إذ يتبعونه ، فإن لم يتبعوه حياً اتبعوه ميتاً .

هذه القوة التى تنبعث من القلم على صحف الورق تنقلها الى الانسان هى أقوى وأبقى ماعلى الحياة من سلطان . هى قوة الايمان القائم بالنفس القوية متى امتلأت ايمانا فقالت للجبل انتقل من مكانك ينتقل . هى هذه القوة الانسانية تصل بين الانسان وقوى الكون العليا وتسمو به فوق مستوى الحيوانية حيث تكن القوى المادية المضطربة التى يستند اليها الباطشون ويعتمد عليها البغاة . وما عسى تكون هذه القوة المادية وإن أزرتها الرماح والسيوف والبنادق وكل ما فى الحديد والنار من بأس وهول الى جانب تلك القوة الكبيرة المستمدة من روح الكون كله والباقية على الكون متصلة غير منفصلة منذ أزل الكون الى أبده . هذه القوة الروحية الكبيرة التى يصدر القلم عنها وتوحى هى اليه هى مصدر الخلق والحياة ومصدر كل شئ فى الوجود . بل هى التى تشكل تلك القوة المادية التى تناوى الروح وسلطانها لكى لا يحترق الوجود من فرط ضياء الروح وحرارتها . وأى ضياء وأية حرارة أقوى من الحق والحرية والجمال والخير جميعا اذا تجردت مما يحول دون انبعاثها فى العالم ولم يقف عائق فى سبيلها فلم تبطئ فى سيرها !

وكما أن حرية القلم هي وحي هذه القوى العليا قال الطغيان منشؤه أخس غرائز الانسان وأكثرها أنانية واحطاطا . فتش عن الطغاة في التاريخ واستمع الى كل مايتشدقون به من الاقاويل والدعاوى وما يزعمونه من جهنم الخير لبنى الانسان ، ومن سعيهم لذلك جهدهم ، تجدهم دائماً ينتهون الى هذه النتيجة : انما نطغى بنى الانسان لانهم من غير طغياننا يضلون . هذه النتيجة الكاذبة الحقيرة هي الكينة أبداً وراء دعاوى الطاغية وأباطيله وزوره . وهى عبارة مزوقة تستر وراءها أفظع الجرائم التى يرتكبها الطغيان . فالطاغية يقضى على حرية الناس ولو لم يقض عليها لضلوا . والطاغية يستنزف دماء الناس ولو لم يستنزف دماءهم لضلوا . والطاغية يرى المزيد فى انتشار العلم ضراً بالناس فليحجب العلم عن سوادهم أو يضلوا . والطاغية يعلم الناس كيف يفكرون وكيف يتكلمون فان هم خالفوا تعاليمه ضلوا . والطاغية يصادر أموال الناس لبذخه وسرفه ، فان لم يصادرها ضلوا . والطاغية يستمد الوحى فى هذا كله من أحقر شهوات الانانية التى يفرضها على الناس ويريد منهم أن يؤمنوا بها ويصدقوها ، فان لم يؤمنوا ولم يصدقوا حققت عليهم كلمة العذاب ولهم سوء الدار .

هذا الضلال الذى يزعم الطاغية أنه يريد انقاذ الانسانية منه وهو انما يردىها فيه لشهواته وأنانيته ، قد تنوء به الانسانية زمناً يحثم خلاله على صدرها الجهل والباطل والظلام فيمد للباغى فى أسباب بغيه ، وهو ناشب فى قلب الانسانية أظافره ما كشف الظلام حوله وما جاهد هو ليحول دون أن يخرق هذا الظلام شعاع من نور الحق .

وللطغاة في تكثيف الظلام الذى ينشرون حولهم أساليب عجب . فهم يخلقون الطوائف يطلقون عليها أسماء اضدادها ليسخروا من الناس وليزيدوهم ظلما . يطلقون على طائفة اسم العلماء والعلم منهم براء ، وكل الغاية التى تكلف هاته الطائفة بها إنما هى نشر الترهات وترويج الاباطيل ومحاربة العلم الصحيح بدعوى أنه السحر أو الكفر أو ماشاء لهم خيالهم المجرم . ويطلقون على طائفة اسم الكتاب ، وما هم بكتاب وإنما هم منافقون متملقون لا يعرفون غير المدح يكيلونه جزافا لسادتهم وغير الطعن الجارح يواجهون به من يعرف سادتهم منهم نزعة الى الحق والى الحرية . هؤلاء ليسوا كتابا وإنما هم كالسكالب تبصص بذنبا لمن يلقى اليها بطعام أو بعظمة من اعظام وتنبج من يطلقها عليه صاحبها لنبحه . وهؤلاء لن يكونوا كتابا ولن يطلق عليهم هذا الاسم أو أى اسم يتصل به ، لان الكاتب تصدر عباراته عن قلبه وعن ايمانه ، أما المنافقون فتصدر كتاباتهم عن بطونهم وعن شهواتهم الخسيسة السافلة .

وكما يخلق الطغاة من يسمونهم علماء ومن يسمونهم كتابا يخلقون ماشاءوا من طوائف أخرى يطلقون عليها أسماء اضدادها ، وكل غرضهم من ذلك أن يزيدوا الظلام الذى يعيشون ويكرهون الناس على العيش فيه كثافة وصلابة . فاذا حاول أحد أن يسلط على هذا الظلام طبقات بعضها فوق بعض شعاعا من النور يبدد منه فله الويل وله النكال وله عذاب السعير .

والحجة القاطعة على صدق هذا التصوير للبيئة التى يخلقها الطاغية ليعيش فيها أنك ترى كل ألوان التكريم والاعزاز فى عهده تذهب

الى هؤلاء الذين يخلقهم لمحاربة العلم والنور ويسميهم باطلا العلماء والكتاب ومن اليهم من خلائقه . وعهد الناس بمن ينالهم إكرام الجماعة في حياتهم أن تمتد كرامتهم الى مابعد موتهم . أما هؤلاء فأخر كرامة تنالهم يوم يحتفل الطاغية وأنصاره بدفنهم . في ذلك اليوم ينهال التراب على صحيفتهم ، ثم يكون أكبر رجاء لذويهم من بعدهم ألا يذكرهم بالخير أو بالشر أحد . وأعتقد أن ليس لهذه الحجة ما ينقض حرفا منها .

وإذا كنا بسبيل الكتاب ورجال العلم فان المنافقين والمتملقين منهم ممن يظهرون في عصور الطغيان هم على الانسانية بلاء دائم وشر مستطير ، يفسدون الآداب والاخلاق ويعلمون الناس الكذب والنفاق وينزلون بأدب الكتابة الى أحط درجاته ، وهم مع ذلك من الطاغية موضع إعزازه وان شاب الاعزاز احتقار ، ثم هم لن ينزل بهم حيف او ينالهم بسبب إفسادهم الخلق والادب واللغة أى أذى . بل انك لتراهم وهم حثالة السفالة المجسمة موضع الاكبار من بطانة الطاغية لانهم يعتقدون في الزلفى اليهم والقربى منهم وسيلة لاستفادة الجاه الكاذب والمال المسروق .

على أن الظلم وإن تكاثرت والمظالم وإن اشتدت والطاغية وإن استبد ، كل ذلك كان دائما من أثره أن أثار شرارة الحرية والحق فهتكت ظلمته وبددت غياهبه . وكما تتراكم السحب حتى تحجب الشمس وتبعث على الارض من الظلمة ما تنقبض له النفس ثم اذا المطر يستنفذ السحب ويجعل للنور من جديد منافذه ، كذلك ماتلبث هذه الظلم المتكاثرة في جو الطغيان أن تبعث الى نفس ملهمة كلمة الحق

ترقع في صيحة قوية خالصة ، فاذا الظلم تضطرب قوائمه واذا الطاغية يكفه وجهه واذا المظلومون تأخذهم رعدة الخوف إشفافا على صاحب الصرت وعلى أنفسهم ، ثم اذا الصوت يعلو ويعلو ويرقع ويرقع ، واذا القلوب التي وجلت من قبل رعباً وخشية تفتح لهذا الصوت تستقبله فرحة مستبشرة ، ثم اذا هي تتبعه مؤمنة مقدسة ، ثم اذا النور نور الحرية والحق يعم الارضاء ، واذا الظلم والظالمون والظغيان والطغاة قد انقلبوا صاغرين عانية وجروهم للحى القيوم .

في العصور المختلفة جميعاً علت هذه الصيحة أول أمرها من جانب رب من أرباب القلم . ليكون نصير الحرية والحق خطيباً أو كاتباً أو محدثاً ، وليكن عالماً أو أديباً أو داعية دينياً ، فهو يرسل بصيحته الضياء الى النفوس المشتاقة الى الضياء . وما تكاد هذه الصيحة تنبعث حتى يتنبه الطغاة الى مصدرها ويقدرّون خطرها . وهم قد يجدون الوسيلة لمحاربة صاحبها كي يخذل صوته ولا يمتد الى ظلماتهم التي خلقوا ضياؤه . لكنهم لم يستطيعوا في حقب التاريخ جميعاً أن يخفوا هذا الصوت وأن يقضوا على هذا الضياء ما كان مصدره قوة ملهمة من قوى الحق السامية . ولقد عاش تولستوى في روسيا القيصرية يحارب بكتبه وبقصصه أفانين الظلم والارهاب التي كان ينشرها حكام ذلك العصر ويعلى في الخافقين علم الحرية وينشر لواء الحق . وكان الحكم في روسيا قائماً على الاستبداد المطلق ، مع ذلك لم تستطع يد أن تمتد الى تولستوى ولا اجترأت على أن تغض منه ، لان ضياء الحق والحرية والجمال والخير أقوى

من سلطان كل سلطان ، ولأن الظلم الذي يحل بأرباب القلم ممن ينصرون هذه المعاني يزيد بها في النفوس قوة وللظالمين مقملاً واحتقاراً .

وليس مثل تولستوى إلا واحداً من مئات من الامثال . وأرباب الاقلام الذين اضطهدوا في عصور ماضية كان اضطهادهم من أقوى الاسباب في ارتفاع كلمتهم وذبوع صوتهم ومحبتهم وحسن استماع الناس لهم وشديد ايمانهم بآرائهم . وما تزال أسماء الذين اضطهدوا والذين عذبوا في سبيل نشر الحق والحرية خالدة على الزمان وإن درست أسماء الذين اضطهدوهم وعذبوهم ، فإذا جاءت الى الازدهان أسماء الآخرين يوماً جاءت مقرونة بالاذدراء والمهانة . ذلك بأن الذين جاهدوا خير الانسانية قد نسوا أنفسهم في الانسانية فأحلتهم الانسانية مكان الكرامة والاعزاز من قلبها . فأما الطغاة والمستبدون فلا يذكرون إلا أنفسهم ولا يفكرون إلا في أشخاصهم ويريدون بالانسانية جميعاً أن تكون محببة إليهم لما تملئهم أنانيتهم ، فإن هي لم تفعل أكرهت على ذلك إكراها واضطرت الى أن تخضع له ذليلة صاغرة . وقد تصغر الانسانية أحياناً أمام انسان ينزل بها كما ينزل الوباء أو كما يدمرها الزلزال . لكن هذا الوباء والزلازل عارض لا بقاء له ، فأما الانسانية فباقية خالدة .

وهي في خلودها تتمثل خير تمثيل في رب القلم . لذلك بمقت الطغاة هذا الذي يمثل الانسانية ويدعو لحريتها وخيرها ويفتح أمامها باب الحق والجمال . ولذلك تكرم الانسانية هؤلاء الذين ينسون أنفسهم في سبيل سعادتها وهدايتها ، وتنصرهم في حياتهم وبعد

موتهم على الانانيين الذين يحسبون أنفسهم فوق الانسانية وفوق الحياة ، فتزديدهم الانسانية وتلفظهم الحياة .

ولعل الادب فى مختلف صورده خير ماتتجلى فيه مواهب أرباب القلم . حقاً إن الفلسفة والعلم والتشريع وسائر ميادين الحياة بحاجة الى رب قلم قدير يدفع تفكيره وتدفع ملاحظاته اليها قوة تكفل دوام تقدمها ، لدوام حياتها . لكن الادب بمعناه الواسع هو رحيق هذه جميعاً . هو رحيق الفلسفة والعلم والتشريع وسائر ميادين المعرفة الانسانية . والاديب الجدير حقاً باسم الاديب هو الذى يستصفي هذا الرحيق بسمو عبقريته وقوة نبوغه . هو الذى ينبت من حقول العلم والفلسفة وما اليهما زهور الادب والذى يستخلص من مناجم التشريع ويستلهم من سماوات الفلك هذا النور الانسانى الذى سارت وما تزال الانسانية ولن تزال تسير على هداه متوجهة نحو كمال الحق وكمال الخير وكمال الجمال . وهذا التوجه نحو الكمال هو الذى يرج قلوب العتاة والطفاة وهو الذى يجعلهم يحاربون حرية القلم ما استطاعوا . فهم يؤمنون بأنه لا نور ولا زهر ولا نبوغ ولا عبقرية اذا لم تكن هذه الحرية . لكن حريتهم لها كانت دائماً حراً إياها على القيام برسالتها العليا وإن لقي أصحابها فى سبيل إقرار هذه الرسالة مالمقوا من ظلم سائغ وعسف مستطاب . ولذلك كان النصر أبداً لرسالة الادب ، وكان الفوز الاخير دائماً لحرية القلم .

ثقافة الاديب

هل الادب العربي قديم؟ وحديثه يكفى وحده لتكوين الاديب؟
 هذا سؤال طرح وكان موضع بحث ومناظرة. ويجب قبل الجواب عليه
 أن نطرح سؤالاً آخر وأن نجيب عليه. فما الادب ومن الاديب؟
 واذا نحن وفقنا الى الاجابة على هذا السؤال واتفق رأينا عليه لم يبق
 خلاف ولا مناظرة محل

وعندى أن الادب فن جميل ، غايته تبليغ الناس رسالة ما في
 الحياة والوجود من حق وجميل بواسطة الكلام . والاديب هو
 الذى يؤدي هذه الرسالة . فكل ما ينتجه فن الادب الصحيح في أية
 لغة من اللغات لا غاية له غير هذه الغاية ، وكل أديب يكتب في أى
 باب من الابواب إنما يريد بلوغها كلها أو بلوغ جانب منها . والادب
 العربى لا يخرج عن أدب سائر اللغات في هذا التعريف .

ماهى وسائل عرفان ما فى الحياة من حق وجميل ؟ ما نحسب
 هذا محلاً لا إثارة أى خلاف . فوسائل هذا العرفان العلم والفلسفة .
 العلم هو الوسيلة الاولى والاساسية والمستغنية بذاتها عن غيرها .
 والفلسفة هى الوسيلة الثانية المعتمدة على العلم لبناء مذاهب إدراك
 الحياة والوجود وما فيهما من حق وجميل . كذلك كانت الفلسفة
 وكان العلم فى كل العصور . وكذلك كان العلم وكانت الفلسفة عند
 العرب ، كما هى عند سائر الامم .

الادب من الفلسفة ومن العلم كالزهرة الجميلة وكالثمرة الناضجة
وكالخضرة النضرة من الشجرة الضخمة شجرة الفلسفة ، ومن الجذور
التي نبتت عليها هذه الشجرة والتي هي بمثابة العلم من الفلسفة .
فلكى تكون حديقة الادب جميلة ، ولكى يكشف الاديب للناس
عما فى الحياة من حق وجميل وليؤدى الرسالة العظيمة الملقاة على
أدباء العصور جميعاً ، يجب أن يتغذى ما استطاع من ورد الفلسفة
ومن ورد العلم . وهو كلما كان أكثر غذاء من هذين الوردتين كان
أقدر على أداء الرسالة وكان أديباً حقاً .

ولهذا كان العرب يقولون : ان الادب هو الاخذ من كل شىء
بطرف . وكانوا إذ يذكرون العلوم الواجب على الاديب الوقوف
عليها لا يقتصرون على ذكر علوم الذئمة والنحو والصرف والبلاغة
والفصاحة ، بل كانوا يضيفون اليها علوماً كثيرة من سير العرب
وأخبارهم ، أى من التاريخ ، ومن مواقع بلاد العرب أى من
الجغرافيا ، وهلم جرا .

فن هذه غايته وذاك مداه يتسع لصور لا تتسع لها الفلسفة ولا
يتسع لها العلم بمعناه الضيق . ففي الحياة وفي الوجود من صور الحق
وألوان الجمال الشئ الكثير . وقل أن تيسر الاجيال للانسانية
الرسول القوى الصادق الذى يستطيع خلال السنوات القصيرة التي
يحكى الانسان ، وإن امتد به العمر ، أن يبلغ لهذه الانسانية رسالة
الحق والجمال كاملة . لذلك كان الاديباء الخليقون حقاً بهذا الاسم هم
الملمهون بالهول الذين يطبع اسم كل منهم عصراً فى تاريخ الانسانية
ويبقى فلذة خالدة برغم موت صاحبها من هذا التراث العظيم الذى تتوارثه

الانسانية جيلا بعد جيل. هؤلاء الادباء انما يبلغون الانسانية رحيق الفلسفة والعلم جميعا على نحو ما تمثلت نفوسهم الفلسفة والعلم. وكلما انحدرت بعد ذلك لتطلع على ما خلف الادباء العظام، فالادباء الكبار، فالادباء، فالمتأدبون، رأيت ضياء الحق والجمال ينخبو رويداً رويداً حتى يصل الى الاديب أو المتأدب الزائف الذى لا حياة ولا نور فيما يكتب، إذ ليس فيما يكتب حق ولا جميل، وانما هى ألغاز مرصوفة لا يقصد بها الى معنى خاص شأنها شأن تلك البذلة التى توضع فى فترينة التاجر على مثال خشبي سوى وجهه بالالوان - لا يقصد بهذه البذلة الى الاستعانة على الحياة ولكن يقصد منها الى عرضها بضاعة فى انتظار أن يتناولها من يستطيع أن يستعين بها على الحياة، وأن يبعث اليها شيئاً من هذه الحياة.

كتب فيشته الفيلسوف الالماني المعروف عن طبيعة الكاتب ورسالته فقال : انه انما بعث ليقف على ما يستتر تحت ظواهر هذا الوجود من حقيقة ليرى هذه الحقيقة بنفسه ثم ليرينا إياها « وفي كل جيل جديد تتجلى هذه الحقيقة العليا فى لهجة من لهجات الكلام جديدة ، ورسالة الكاتب هى الكشف للناس عن الحقيقة بلهجة العصر الذى يبعث فيه » . ويشد فيشته حين يقصد الى التمييز بين الكاتب الاصيل، أو الكاتب البطل ، كما يسميه كارليل، وبين آلاف الكتاب الكاذبين غير الابطال . « فمن لم يكن يحيا لكشف الحقيقة كاملة فليستمتع ما طاب له المتاع بنعيم الدنيا، لكنه لن يكون لذلك كاتباً وانما هو فاك مزور لا قدر ولا مقام له »
والحقيقة التى يذكرها فيشته، والحق والجمال اللذين نراها غاية

الادب كفن جميل ، ينكشف للناس من صورها في كل جيل مالم يكن معروفاً في الجيل الذي سبقه ، أو ما يختلف عما كان معروفاً في الجيل الذي سبقه . وعلى ذلك كان الخلاف في صور أدب الاجيال المختلفة في اللغة الواحدة ، وصور أدب الجيل الواحد في اللغات المختلفة ، ولذلك لا مفر لمن يريد أن يكون أديباً حقاً، أديباً أصيلاً غير زائف ، من أن يقف على آداب لغته هو وقوفاً صحيحاً ، وأن يخطط ما استطاع بعنوم عصره وفلسفته وآدابه في اللغات المختلفة . وكما كان أكثر إحاطة كان أدنى الى بلوغ ما في الحياة والوجود من حق وجميل ، والى تبليغه للناس في صورة أقرب للكمال ممن أوتي مثل مواهبه ولم يؤت مثل علمه .

هذه كلها أوليات ما أحسب لخلاف فيها محلاً . وهى تنطبق على الادب العربى في عصوره المختلفة وتدل على أن أدب أية لغة من اللغات قديمه وحديثه لا يكفى وحده لثقافة الاديب ، وعلى أن ذلك أصدق في عصرنا الحاضر الذى قربت فيه المواصلات بين أمم الارض منه في العصور السابقة ، وانه أصدق بالتطبيق على الادب العربى قديمه وحديثه منه على آداب الامم التى لم يصبها ما أصاب الامم العربية من تحكم فيها واستبداد بها أوقفاً سير العلم والفلسفة العربية سيراً كان يجعلنا من علم الامم الاخرى وفلسفتها في موقف تعارز وتنافس ، لا في موقف تعلم ومحاكاة .

والآن فلنطبق هذه الاوليات على الادب العربى نفسه في

مختلف عصوره : -

فهل كان الادب العربى في عصوره الاولى مستقلاً عن الآداب

المجاورة له والمتنافسة معه ، وأجلها خطراً أدب الفرس والرومان واليونان ؟

يضيق المقام اذا أردنا أن نستقصى ما أفاد العرب، وبخاصة منذ ظهور الاسلام، من علوم وآداب كانت للبلاد التي اقتحموها فاعتنق أهلها الاسلام . لكن أحداً لا يستطيع أن ينكر أنهم في عصور ازدهار الحضارة الاسلامية أيام الامويين والعباسيين كانوا مجدين أعظم الجد في نقل علوم الفرس واليونان والرومان وآدابهم من تلك اللغات الى اللغة العربية ، وان أكبر الكتاب كابن المقفع والجاحظ كانوا متأثرين بهذه الآداب تأثراً ظاهراً ، وكانوا يعرفون هذه اللغات، أو بعضها، معرفة صحيحة . بل إن ابن المقفع نفسه كان فارسياً ككثير من فحول الادب العربي أمثال الهمذاني والزمخشري . والجاحظ مشكوك في عربيته وإن تك معرفته للفارسية ليست محل ريب لما جاء عنها في كتابه البيان والتبيين . وكثير من كتب الفلسفة اليونانية نقل في عصر العباسيين الى اللغة العربية وتأثر علماء العرب وأدبائهم وكتابتهم بهذه الفلسفة تأثراً واضحاً . ولو أنك رجعت الى المذاهب المختلفة في التصوف والاعتزال وغيرها لرأيت كثيراً منها يرجع الى مذاهب كانت معروفة من قبل في الفرس، والى مذاهب كانت معروفة من قبل في اليونان . وكان من أثر هذا النقل للكتب أن حدثت في الادب العربي ، شعراً ونثراً ، صور لم تكن معروفة من قبل وأن اتسع أفق هذا الادب العربي سعة لاعهد للمتقدمين بها . بل لقد تناول التطور ، الذي نشأ عن اختلاط العرب بهذه الامم وبأمم شمال أفريقيا وبالاندلس وصقلية ، أساليب النثر والشعر

فاستحدثت الموشحات الاندلسية واستحدثت في النثر شيء كثير وزادت بذلك ثروة اللغة العربية في ألفاظها وفي علومها وفي فلسفتها. وفي أدبها زيادة هي في تاريخ هذه اللغة فخر تفاخر نحن به حتى اليوم .

حدث بعد هذه النهضة الكبرى أن تغلب الترك على غيرهم من الامم الاسلامية وأن تقلص ظل الحضارة الاسلامية عن الاندلس، وان استقل الفرس، وأن خمدت هذه الجذوة المقدسة من ضياء الحق والجمال مما كان ينير آفاق العالم الاسلامي في شؤون اللغة العربية. وفي هذه القرون الخمسة الاخيرة وقف اتصال اللغة العربية والعلوم والفلسفة والآداب العربية بغيرها من اللغات، لأن حياة الامم العربية وخضوعها للترك قضى بوقوف هذا الاتصال . وفي هذه القرون الخمسة الاخيرة كانت نهضة الغرب في العلم والفلسفة والادب، وكان أن استحدثت الغريبيون من ذلك الشيء الكثير وأدخلوا على آدابهم من ألوانه ما لم يتطلع أهل هذه الامم العربية الخاضعة للنير التركي الى الاتصال به . فتدهور التفكير العربي وصار الادب العربي القديم هو وحده الاثر الخالد لهذه الحضارة الاسلامية العظيمة التي سار العالم في ضوئها وعلى هداها عدة قرون. ولولا ما في اللغة العربية لذاتها من قوة قدسها القرآن الكريم وزادها جلالا وعجازاً، ولولا ما كست الحضارة الاسلامية من ثروة لم تنفذ ولا سبيل الى نقادها، إذن لرأيت اللغة العربية وقد أصابها ما أصاب اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية والاشورية والهيروغليفية ولا أصبحت اليوم لغة تاريخية مستقلة عن وجود هذا العالم وحياته، لغة ندرسها للعلم بعصر من عصور التاريخ الانساني وكفى .

لكن قوة اللغة العربية وثرورة أدبها التي تكونت منذ الاسلام وعظمة الحضارة الاسلامية قاومت أحداث الدهر ودفعت عن اللغة هذا المصاب حتى دار التاريخ دورته وأن للغة العربية أن تهض نهضتها من جديد. وكان طبعياً أن تبدأ النهضة بنشر اللغة واحياء آدابها القديمة وتعليم الناس أصول التعبير بها ليتمكن بعد ذلك أن تنبعث حياتها قوية ، وأن يكون فن الأدب العربي بحيث يحيط بالحياة والوجود وما فيهما من حق وجمال، وحتى تبعث الاقدار الأديب العربي الذي يؤدي لأهل كل عصر بلهجة العصر رسالة الادب . ويرجع الفضل في هذه الخطوة الاولى لشيخ الازهر بمعونة من أرسلهم المغفور له محمد على باشا الى أوروبا للاتصال بموارد العلم فيها، ولرجال مدرسة دارالعلوم التي أنشأها على باشا مبارك منذ أكثر من نصف قرن للقيام ببعث اللغة العربية بعثاً جديداً . على أن اللغة ما كادت تبعث وما كاد الكاتبون بها يشعرون بالحاجة الى انتشار فنون آدابها حتى رأوا الى جانب الفنون القديمة فنوناً في الادب جديدة. أحدثها بعث الغرب في القرون الثلاثة الاخيرة، لم تكن معروفة عند العرب ولا غير العرب من قبل، ورأوا ان هذه الفنون الجديدة من الأدب تستند الى فلسفة جديدة في تصويرها هي الأخرى ، والى علوم اتسعت دائرتها وعظم نطاقها، وأن لا بد إذن من الاتصال بالعلم والفلسفة في آخر صورهما ليكون الأدب العربي مؤديا الغاية الصحيحة لأدب أية لغة من اللغات، غاية تبليغ الانسانية ما في الحياة والوجود من حق وجمال بلهجة العصر الذي تعيش الانسانية فيه .

وتجلت هذه الرغبة عند المتخرجين من الازهر وعند رجال دار

العلوم بقوة لا تقل عما تجلت به عند غير هؤلاء من المشتغلين بالأدب العربي والمتصلين في نفس الوقت بأدب اللغات الأخرى. وظهر ذلك في حرص الأولين ، وهم ذوو الفضل في الخطوة الأولى من خطى بعث اللغة والآداب العربية القديمة ، على الوقوف على اللغات الأوروبية وتعلمها ، وفي حرصهم على نقل ألفاظ هذه اللغات الغربية وآدابها إلى اللغة العربية في صورة عربية صحيحة . وأمامي من الامثال على ذلك كثير . فأساتذة كلية الآداب في الجامعة المصرية من الذين يقومون بتدريس الآداب العربية كلهم جميعاً من ناشئة الأزهر أو دارالعلوم أو القضاء الشرعى ، وكلهم جميعاً قد شعروا بالحاجة ، بعد اتقانهم اللغة العربية ، إلى دراسة لغات أخرى ودراسة آداب أخرى سواء منها ما ترجم إلى العربية ، وما استطاعوا استيعابه ببلغة غيرها . وهؤلاء الدكتور طه حسين وزملاؤه الاساتذة : أحمد أمين ومصطفى عبد الرازق وعبد الوهاب عزام هم جميعاً من أبناء هذه المدرسة - الأزهر - وهم اليوم جميعاً من الذين شعروا بالحاجة الماسة للاتصال بعلوم اللغات الأخرى وفلسفتها وآدابها ليكونوا لانفسهم صورة صحيحة مما يحتويه الوجود من حق وجمال .

مثل آخر أضربه هم هؤلاء المشايخ الذين بدأوا يكتبون في الادب الحديث مكتفين بمطالعتهم في الآداب العربية ، ثم اذا بهم لم يجدوا منصرفاً عن دفع أنفسهم إياهم لورد آداب اللغات الأخرى . فالمرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى بدأ يكتب النظرات والعبرات متأثراً إلى حد ما بما ترجم من القصص الغربي وإن جاهد ليظل في كنف

الأدب العربي القديم . لكنه مافقٌ أن اندفع الى الاستعانة بالأدب الغربي فاستعان بمن يعرف هذا الأدب ويدله على مافيه من صور الجمال ، ثم اذا به ينشر على الناس كتبه ماجدولين وفي سبيل التاج وغيرهما . والاستاذ الزيات وغير الاستاذ الزيات من الكتاب الذين نهلوا أول حياتهم ورد الأدب العربي القديم خالصاً سائلاً لم يستطيعوا الاستغناء عن الوقوف على ما أحدثه العصر الأخير من صور الأدب ولم يجدوا الوسيلة الى ذلك الا عن طريق الأدب الغربي وما استصفى من العلم والفلسفة المتحكين في عصرنا الحاضر .

وهذا طبعي بعد الذي كان من تقدم العلم وتطور المذاهب الفلسفية، وبعدها ندى كان من إبداع صور الأدب الجديدة في الغرب . ويطول المقام اذا أردنا تتبع هذه التطورات العلمية والفلسفية والأدبية في القرن الأخير، بله في القرون الثلاثة التي سبقتة . ومن هذه الصور ما لم يكن له وجود قط في الآداب العربية، ومنها ما كان له وجود تافه لا غناء لنا اليوم فيه . ونكتفي بالإشارة من صور الأدب هذه الى القصص والروايات المسرحية . فهذان النوعان لم يكونا معروفين بصورتهم الحاضرة عند العرب ، مع انهما اليوم يتناولان من بسط حقائق العلوم والمذاهب الفلسفية ما يجعلها في متناول القراء جميعاً ، ويجعلها كذلك في صورة فنية بالغة غاية الجمال . فهل يتسنى لنا اذا نحن اكتفين بالأدب العربي القديم، أن نبذع في هذه الانواع مثلاً بضع الغرب فنقرب بذلك العلم والفلسفة وما يحويان من حق وجمال الى نفوس قراء العربية فنؤدى الرسالة الملقاة على عاتق كل كاتب جدير بهذا الاسم ؟

وليست القصص الطويلة والروايات المسرحية هي وحدها ما أبدع
مما لم يكن العرب الاقدمون يقدرونه ، بل لقد أبدعت آداب اقتصادية
كآداب الاشتراكية والشيوعية وآداب المذهب الحر والمذهب
الفردى لا سبيل الى بسط شئ منها لقرائنا إلا اذا وقفنا على ما كتب
باللغات الغربية عن المذاهب الاقتصادية من جهة وعلى آدابها من
الجهة الأخرى . وأبدعت كذلك آداب علوم النفس والاجتماع وآداب
الفنون الجميلة وغيرها مما لا نجد له مكانة في الآداب العربية القديمة
ومما لا بد لنا ، اذا أردنا أن نقف الى جانب الأمم الأخرى فيه ، من
الاطلاع على آداب الغرب وفلسفته وعلومه إطلاعا واسعا .
وما نحسب أحداً لا يشعر بالحاجة الى هذا الاطلاع كما شعر أولئك
الاساتذة الذين أشرنا اليهم وكما شعر غيرهم . فاذا اطلع انسان استطاع
أن يؤدي رسالة الادب على وجه صحيح ، وكان لذلك أدبياً أصيلاً .
أما الذين يقفون عند الاطلاع على الادب العربي فلن يستطيعوا مجاراة
هذا العصر مجاراة تمكّنهم من القيام بالرسالة الكبرى الملقاة على
عاتق الاديب ، وسيظل أدبهم أدب ألفاظ لا تحمل في طياتها سناء
المعاني السامية ولا ضياء الحق وبرهة الجمال ، وسيظلون أطفالاً في
الادب ، ربما يعجب البعض زخرف قولهم ، لكن هذا الزخرف لن
يمدو جماله أن يكون كجمال الدمية لأحياة فيها وإن أتقن صانعها
رسم تقاطيعها .

وهذه الحاجة الى الاطلاع حاجة يشعر بها كل محب للحقيقة ليس
معناها الانصراف عن الادب العربي قديمه وحديثه . فنحن بحاجة الى
التضلع في هذا الأدب لأنه هو الأساس الذي نبني عليه ونريد أن

نبلغ به الكمال . ولا سبيل الى هذا الكمال إلا أن نفعل ما يفعله غيرنا من أهل الامم السابقة اليوم في الحضارة . فانك ترى قاموس اللغة الفرنسية أو الانكليزية أو الايطالية أو غير هذه من اللغات يعاد النظر فيه كل عقد من السنين لتحرى معانى الكلمات ، وهل اتصل بها جديد من المخترعات أو المكتشفات أو الآداب الحديثة ، وللنظر في إضافة كلمات جديدة . وكثيرون يعرفون كم دخل في اللغة وفي الادب الفرنسيين من الالفاظ والعبارات الانكليزية في هذا الزمن الاخير . فكلمة جنتلمان وسبورت وغيرها قد أضيفت أخيراً الى القاموس الفرنسى كما أضيف في العصور القديمة الى اللغة العربية كثير من الكلمات الفارسية كالورد والسلسيل وغيرها . وما دام هذا في طبيعة اللغات وآدابها فلا معدى لنا عن أن نأخذ به ونأخذ حذوه اذا أردنا باللغة ازدياداً في القوة وبالادب تحقيقاً صحيحاً لرسالة الادب .

قد يقال ان الادب العربى الحديث يكفى لسد هذا النقص الذى أشرت اليه بما استحدث من صور الادب الغربى التى أبدعت في العصور الاخيرة . وكم كنت أود أن يكون هذا صحيحاً . فهو لو صح لكان سبباً لفخر كثيرين من اصدقائى الذين أعزهم . ولكنى واصدقاى هؤلاء نشعر بأن فى ذلك غروراً لا يليق بالاديب . فما استحدث فى الادب العربى ليس إلا محاولات لسد بعض الفراغ فى تلك الهوة التى تفصل عصرنا عن عصور أدب العرب الزاهر . وهى محاولات شعر اصدقائى وشعرت بنقصها منذ زمان طويل . فانى لا أذكر أن مطالعائى العربية التى تناولت من كتب الادب العربى القديم الشئ الكثير قد

أقنعني منذ عشرين سنة ماضية ، وكنت ما أزال طالبا بالحقوق ، بأن أدب اللفظ وحده لا يمكن أن يبلغ بالإنسان إلى أكثر من طفولة الأدب في هذا العصر الذي نعيش فيه ، فأكبت يومئذ على دراسات في الكتب الانكليزية فتحت أمامي آفاقا جديدة غير مامهدت له دراساتي . فلما سافرت إلى فرنسا بعد نيل اجازة الليسانس ودرست الفرنسية أكبت على آدابها في نواحيها المختلفة ، فاذا آفاق جديدة تتفتح واذا بي أطل على صور من الحق والجمال لم اكن أتوهمها من قبل . وكيف يمكن أن يكتب الإنسان عن الفنون الجميلة كالخفر والموسيقى والرسم وقد غفت آثار الموسيقى العربية وقد كان العرب ينكرون صناعة التماثيل وينكرون التصوير والرسم ! فاذا هو قرأ عن الفنون الجميلة شيئا من ألوف الكتب التي ألقت فيها استطاع أن يفهم من جمال الحياة ما لم يكن له إلى إدراكه سبيل من قبل . وكذلك الامر في غير الفنون الجميلة من العلوم والفلسفة الحديثة جميعا .

والى أن ننقل هذه العلوم وهذه الفلسفة إلى اللغة العربية ، وإلى أن تكون لنا مذاهب في العلم والفلسفة والأدب تقف إلى جانب مذاهب الغرب ، إلى ذلك اليوم لا يمكن أن تكفى الآداب العربية ، قديها وحديثها لثقافة الأديب . أما في ذلك اليوم فسيشعر أديباء العربية أنفسهم ، بدافع المنافسة وحب السبق في الوصول إلى الحق والجمال ، انهم لا يقلون عنا اليوم حاجة إلى الاطلاع على كل ما يظهر في عالم العلم والفلسفة والأدب من جديد .

وستزداد هذه الحاجة كلما يسرت المواصلات اتصال أمم العالم . فلئن أمكن أن يتوهم الإنسان مجرد توهم امكان استقلاله عن من الأحياء ،

سواء أكان هذا الحى أمة أم فرداً، عن غيره من الأحياء فى شؤونه المادية أو العقلية أو النفسية، فإن مجرد هذا التوهم اليوم مستحيل لكثرة الاتصال بين أمم العالم بعضها والبعض الآخر، وهو سيزداد كل يوم إمعاناً فى الاستحالة . وسيرى الأدباء يومئذ أن الشاعر أو الكاتب الذى يريد أن يخطو بالأدب العربى الى مراتب الكمال الفنى مضطراً لبدإى الاطلاع على أكثر مما اطلع عليه أدباء جيلنا الحاضر جميعاً اذا هو كان جديراً حقاً باسم الكاتب أو الشاعر حريصاً حقاً على أداء رسالة الأدب السامية بالكشف للناس من طريق اللغة عما فى الحياة من حق وجمال وبالتمهيد بذلك لبلوغ درجات الكمال .

اللغة والأدب

حضرت يوماً مجلساً ضم جماعة من كبراء مصر بينهم خول من الشعراء وكبار من الكتاب وأساتذة من المشايخ الضليعين في اللغة. وفيما ينتقل الحديث من موضوع لموضوع سأل أحد الحاضرين شيخاً لغوياً: أي الشعرين يفضل: الشعر القديم الذي اتخذ عنواناً له «قفا نبك»، أم الشعر الحديث وعنوانه «حف كأُسها الحب»؟ فكان جواب الشيخ على الفور: إني لأفضل الشعر الحديث فهو أعذب مدخلاً إلى النفس، فأما الشعر القديم فحاجتنا إليه للغة أكثر من حاجتنا إليه للأدب.

وأثار هذا الحديث جدلاً هادئاً لم يطل أمده ولا يستوقف منه النظر شيء خاص في البحث الذي أريد أن أعرض الآن له. وإنما استوقفت نظري هذه التفرقة الجميلة الدقيقة بين اللغة والأدب. فنحن بحاجة للوقوف على أدب الجاهلية وعلى أدب الصدر الأول للإسلام، وعلى كل أدب سبق عصرنا، لتبقى حياة اللغة متصلة على العصور ولتجد في هذا الأدب القديم من تاريخ اللغة وأدبها وصور تطورها ما لا غنى لنا عنه إذا أردنا أن نظل اللغة حين تنقلها على الأجيال قوية رصينة بعيدة عن أن يندس إليها عامل من عوامل الاضطراب والضعف. فأما الأدب من حيث هو رحيق الحياة العقلية

والفنية وما تنطوى عليه من مختلف الصور والالوان، فتابع في تطوره الى العصر الذى يعيش فيه غير مضطراً يتصل بالقديم النأى عنه بأكثر من صلة الوراثة ومن صلة اللغة . واللغة فى الأء ليست إلا الكساء الظاهر لهذا الرحق الذى يعبر الأء عنه . فأما قوام الأء فى الروح الذى يلهم مافيه من معان وصور وعواطف واحساس . لهذا تراك اذا عرفت لغات عدة فقرأت فيها صوراً مختلفة من الأء لم يكن اللفظ هو الذى يقفك عنده ، بل كان مايدل هذا اللفظ عليه وما يعبر عنه . واذا كان اللفظ لذاته ذا قيمة فى الأء من حيث موسيقاه وما تبرز هذه الموسيقى النفس وما تعد العواطف لاجتلاء المعانى التى ينطوى عليها ، فلن يسمو هذا اللفظ بالنا ما بلغ رنينه ورسائته بمعنى غير سام وإن أمكن أن ينزل اللفظ المبتذل والناشر الرنين بالمعنى السامى أو الصورة الجميلة ، أو يترك على الأقل من سوء الأء فى النفس ما يجعلها تأسى وتأسف أن لا يكسو المعنى الجميل لفظ جميل .

أنت إذن بحاجة الى اتقان دراسة اللغة وتاريخها فى المعاجم وفى كتب الأء اذا أردت أن تكون لغوياً وكفى ، كما أنك بحاجة الى هذه الدراسة اذا كنت ممن وهبوا هبة الأء . فكما زادت ثروتك من الالفاظ ومن أساليب استعمالها وما يمكن أن تعبر عنه من مختلف المعانى لذاتها أو مضافة الى ألفاظ غيرها ، ازدادت أنت قدرة على اختيار اللفظ الذى يصلح للتعبير عن قصدك تعبيراً دقيقاً وموسيقياً معاً . وهذا هو الذى يدعو فى الأء الغربية المستمدة لغاتها من اللاتينية واليونانية الى تدريس هاتين اللغتين للنشء .

فليس جمال هذه اللغات القديمة الميته هو الذى يقصد لذاته أولاً وبالذات . كلا ! وإنما يقصد من دراستها الى دقة إدراك المعانى التى تعبر عنها الالفاظ المشتقة منها . ومهما تكن آداب اليونان والرومان قد أمدت البعث الأدبى فى أوروبا أبان القرن السادس عشر بصورها وموضوعاتها ، فأنما كان ذلك لتحكم الآداب الدينية فى العصور التى سبقت عصر البعث ذاك واحتياج الناس فيه الى وحن جديد . ولم يكن يومئذ خير من هذه الآداب القديمة مهبطاً للوحن ومحلاً لالهام شكسبير وراسين ودانت وغيرهم من الذين قام هذا البعث بسبب نبوغهم . لكن هذه التابعة أو هذا الرق للآداب القديم لم يدم طويلاً . وفى القرن السابع عشر نفسه قام كتاب وشعراء أمثال موليير ولا برويير نزعوا غير نزعة العصر وأنشأوا أدباً مستقلاً عن أدب اليونان والرومان ، وأن حذقوا اللغتين اللاتينية واليونانية خير حذق ، ليحيطوا ببلغتهم الفرنسية إحاطة كاملة دقيقة . وما كاد القرن الثامن عشر يتنفس فخره حتى تنفس عن فولتير وروسو وديدرو وغيرهم من الكتاب الذين نزعوا أثواب أثينا وروما وارتدوا ثوب عصرهم ، وطوعوا للآداب الغربى أن يستقل بنفسه عن الآداب القديم ، ومع هذا الاستقلال التام فى أدب الغرب فما تزال اليونانية واللاتينية تدرسان لغة وأدباً لتبقى حياة اللغات المشتقة منهما متصلة على العصور حتى لا يندس اليها عامل من عوامل الفساد والضمف . ولئن كانت لغتنا اليوم وستبقى أبداً هى اللغة العربية ، وكانت دراستنا إياها أجدى علينا وأحفظ لكياننا ، فإن كثير أئمن ألفاظ هذه اللغة العربية قد أصبح بائداً أو فى حكم البائد ، لأن أطوار الحياة التى مرت بالأمم التى أصبحت العربية

لغتها جعلت هذه الالفاظ القديمة غير صالحة لأداء المعانى التى تداولتها
عصور فجر الاسلام والأُمويين والعباسيين والفاطميين والاندلسيين
وغيرهم ممن تطورت حضارة العالم بعملهم تطوراً عظيماً . مع هذا
فدراسة تلك الالفاظ البائدة نفسها تفيد من جهة لغوية بمحة . وقد
تفيد الأديب فى دقة تحديد المعانى التى تعبر عنها أَلْفَاظُ أُخْرَى
مشتقة منها أو كانت بينها وبينها فى بعض العصور صلة لغوية من
أى نوع من الأنواع .

على أن دراسة اللغة هذه لا تتصل بالأدب لذاته إلا من حيث
كسء الأدب على نحو ما قدمنا وبمقدار حاجة الأدب لهذا الكسء .
صحيح أن الكسء كان له فى بعض الأزمان المقام الاول . وما تزال
طبقات الناس الى وقتنا الحاضر تتميز بأرديتها . وصحيح كذلك أن
اللغة ، ككسء للأدب ، كانت فى بعض الأزمان صاحبة المقام الاول
فيه عند الأكثرين ، وانها ما تزال ذات أثر لا سبيل الى انكاره .
لكن صلتها بالأدب من هذه الناحية تتطور تطور صلة الازياء
بأقدار الناس فى الحياة . وصلة الازياء بالأقدار تتلاشى رويداً رويداً
بما تنزع طبقات الجماعة كلها نحوه من البساطة فى اللباس ببساطة
يمتاز فيها الذوق على قيمة الثياب ، حتى لنرى أكثرها أخذاً بالنظر
أشدّها قيمة عن الحياة ودقائقها . كذلك تطورت لغة الادب فصار
أجدرها بالامتزاج بالادب ما كان شفافاً عن المعانى والصور التى
يعبر عنها معواناً على زيادة ما فى هذه الصور والمعانى من حياة
وموسيقى . هذه اللغة الشفافة المضئئة السيالة التى لا تحجب عنك
جمالاً مما أراد الأديب الموهوب اظهاره ولا تقف فى سبيل متابعتها

الأديب أثناء تدفقه واندفاعه في تفكيره أو تصويره أو تغنيه
وشدوه ، هي التي تعتبر للأدب كساء وتتصل بالأدب في كسائها
إياه حتى لتصبح جزءاً من رحيق الحياة الذي يعبر الادب عنه .
وهي كلما لطفت وازدادت بساطة وشفّت بذلك عن كل ما أراد
لاديب أن يحملها إياه وكانت في ذلك النغمات الصادرة عن نفس
الأديب الصادقة العبارة عنه ، كانت ألصق بالادب في العصر الذي
يصدر هذا الادب عنه .

الوصول باللغة الى هذه المكانة ليس بالأمر اليسير . بل هو
يحتاج الى جهاد الادباء جهاداً عنيفاً شاقاً يتناول كل نواح الحياة
ويتناول كل ناحية منها في مختلف صورها . وأدباء عصرنا الحاضر
لا يجدون من أدوات هذا الجهاد في الأدب القديم إلا ما قدمنا من
ضبط اللغة ، وإلا نظرات عامة للحياة قد تبلغ غاية الجمال ولكنها
لا تغني كثيراً في عصرنا الحاضر . والواقع أن الأدب القديم كالآزياء
القديمة كان يعتمد على ثروة اللفظ وصور البديع فيه كما تعتمد الآزياء القديمة
على نقاسة القماش وكثرة حواشيه . وأنت اذا ذهبت اليوم الى مسرح من
المسارح تمثل فيه قصة من قصص العصور الماضية ويظهر فيها الممثلون
بأزياء تلك العصور ، إذن لرأيت على المسرح أكواماً من أقمشة غالية
تحيط بها أشرطة وودتلات وغيرها من أسباب الزينة ، ولرأيت فوق ذلك
شعوراً صناعية مزينة هي الأخرى ، ورأيت دونه أحذية تكاد لكثرة
مايرصعها من الاحجار الثمينة تنكر أنها أحذية . وهذا كله يذهب
ويجىء على المسرح ويطل من خلاله وجه سيدة أو رجل هو وحده الذي
يدلك على ان هذه الكومة النفيسة تمتوى في أعماق داخلها حياة انسانية

هذا الوجه مظهرها... ما صورة هذه الحياة؟ ما حقيقتها؟ أجميلة هي أم قبيحة؟ أجدابة هي أم ثقيلة؟ أنت لا تستطيع أن تحكم، لأن اللباس وحده هو المتحرك أمامك، ولأن الوجه الذي عرفت منه أن ماترى انسان، وأنه رجل أو امرأة، قد كسى هو الآخر بأصباغ وألوان أخفت معالمه ونكرت معارفه، ولأن التحيات والعبارات والأفكار لا تصدر عن أصحابها وإنما هي صيغ حفظوها من صغرهم وخضعوا فيها لميئتهم فحياتهم ليست لذلك حياتهم، وإنما هم صور متحركة مخفية خلال نفائس الأقمشة والألوان الزينة مما ترى وما قد يفيدك كثيراً أو قليلاً عن حياة ذلك العصر ولباسه. لكنه لا يفيدك شيئاً عن الشخصية الانسانية التي يصدر عنها الفن والأدب، والتقدير وحدها على استخلاص ما فى الحياة من رحيق هو أكبر ما فى الحياة من جمال. قارن بين هذا الذى رأيت على المسرح ممثلاً عصرًا مضى وبين أزياء الحياة الحاضرة ومختلف مظاهرها، تجد البون شاسعاً. فالحضارة الانسانية اليوم تنزع الى البساطة والى الصحة والى حكم الانسان حياة الوجود بكل ما يمكنه قواه ومواهبه، والى ظهور الذاتية الانسانية خلال ذلك كله ظهوراً قوياً واضحاً. فلم يبق شخص الانسان كومة من النسيج النفيس تزينها الاشرطة والدفنلات وتحملها الاحذية المرصعة وتكسو أعلاها شعور مستعارة وتطل من خلالها صورة وجه انسانى مخفى تحت الاصباغ والألوان، بل أصبح اللباس من البساطة بحيث ينم عن خطوط الجسم وحركاته ويكشف عن الحياة الانسانية حتى لقد كاد يصبح بعضها، وصارت الحياة الانسانية كذلك هي موضع الجمال بذاتها وليس موضع الجمال هو اللباس الذى يكسوها. وبمقدار

مايعبر الزى عن الحياة يكون أشد للنظر استرعاء وأقوى عن جمال الحياة تعبيراً . وكبساطة الناس فى اللباس بساطتهم فى الطعام . لم تبق الألوان الكثيرة الشديدة الدسامة محل اللذة والرغبة، بل صارت الألوان التى تلائم الصحة وتتفق معها وتعاون عليها هى التى يميل الناس الى اتقان صنعها لتجمع لهم بين حسن الغذاء ولذته . كذلك أصبح الترف ذاته ينزع الى البساطة والصحة . وإذن فالحياة الانسانية قد صارت من الزى والطعام والترف كما أصبحت من مظاهرها العقلية والفنية تريد أن تكون هى الظاهرة القوية لا يخفيها اللباس بل ينم عنها ولا يتخفها الطعام بل يقويها ولا تفص بالترف بل تنعم به . كذلك نريد ألا يثقل اللفظ على روح الأديب وألا تجمد التقاليد بريشة الفنان وأن تصبح الذاتية الانسانية حرة متوثبة دائماً الابداع دائماً السعى فى ابداعها الى التحكم فى كل ما فى الكون وجعله بعض متاع الحياة لكل فرد من الناس متاعاً أساسه البساطة والصحة . ولقد عاون العلم ، وما يزال يعاون ، على توجيه الحياة فى هذا السبيل بما ربط بين أجزاء العالم وما أخضع من قواه لحكم الانسان وما افسح لذلك من ميادين متاعه . فالتلغراف والطيران والراديو والفونوغراف وما اليها من جديد المخترعات قد جمعت العالم فى قبضة يد الفرد وقربت بين أجزائه تقريبا لم يكن يحلم به أسلافنا . أترأى تستمع الى أصوات الخطباء والمغنين وألحان الموسيقى ممن سبقونا ، وتسمع وأنت فى مقعدك الى مايجرى فى مختلف أنحاء العالم ، وتصل فى ساعات الى ما كان يقتضى من قبلنا أسابيع أو شهورا ، ثم تظنك تحس الحياة على نحو ما يحسها السلف ويكون رحيقها منك ما كان

رحيقها منهم ! لعل من الناس من يرى أن رحيق الحياة عند السلف أشهى وأعذب من رحيق هذه الحياة التي نعيشها ، ومن يرى لذلك أن مظاهر هذا الرحيق من فن السلف وأدبهم كانت أطيب وأهنأ . ولست أخالف هؤلاء وأنا أشعر في كثير من الأحيان بشعورهم وأجد في كثير من الأدب القديم جمالا ولذة ، وأجد فيه سذاجة تجذب اليه وتحبب النفس فيه . بل إن من آثار الفن والادب القديم ما انتهى الى الخلود وما سيظل موضع تقديس العصور والقرون المقبلة جميعاً . وإن في « قفا نبك » من صور الجمال في بعض المواضع ما لا سبيل الى نسيانه . لكن الآداب مرآة العصر كما يقولون . وإذا كان الادب القديم مرآة للعصور التي يمثلها في تصورها الحياة وجمالها ، وكان ذلك مما يجب دراسته لكمال ثقافة الأديب ، فهو وحده لا يكفي ، كما إن الأدب الحديث وحده لا يكفي لكمال الأديب . بل يجب لهذا الكمال أن يحيط الأديب من قواعد العلم والفن بما يؤهله لاستخلاص ما في الحياة من رحيق وليجلوه على صورة صادقة تمثل عصره . وهذه هي تفرقة الشيخ التي أشرنا اليها في صدر هذه الكلمة بين الشعر القديم وحاجتنا اليه للغة وللتاريخ وبين الشعر الحديث وتعبيره عن صورة حياتنا تعبيراً يجعله أشهى وأعذب مدخلا الى النفس .

على أن هذه الدراسات لا تغنى عما قدمنا من وجوب صقل اللغة لتمتزج بالأدب ولتكون له لباساً شفافاً موسيقياً رشيقاً ، وما يحتاج ذلك اليه من جهاد الأدباء جهاداً عنيفاً شاقاً يتناول كل نواحي الحياة ويتناول كل ناحية منها في مختلف صورها . ومن الحق أن نذكر

بالتقدير والاجلال جهاد من سبقونا في هذا المضمار من الشعراء والكتاب ومن رجال دار العلوم والأزهر ومن يسمون أنفسهم اليوم أنصار القديم . هؤلاء جميعاً سعوا ويسعون سعياً حثيثاً محموداً في سبيل بعث ما كان قد ظل عصوراً طويلة طى الكتب القديمة وجاهدوا فهدوه وردوا اليه حياة كاد جهل العصور التي ساد فيها الحكم التركي الممالك العربية يعنى عليها ويدفعها الى غير عودة . لكن اللغة كأن حى يجب له دوام التعمد . وتعهد اللغة في ناحية الأدب انما يكون بدوام صقلها لتزداد رقة ولطفاً ولتكون موسيقاها مما يصلها بالادب صلة وثيقة ويجعلها اكثر من كساء له . هذا الجهاد هو جهاد الكتاب والادباء اكثر من جهاد اللغويين وأصحاب المعاجم . ويكفى أن نذكر مثلاً لذلك ما يقصونه عن الكاتب الفرنسى الكبير فلوير وجهاده في هذه السبيل . فهم يروون أنه كان يحار أحياناً في اختيار اللفظ الذى يعبر أحسن التعبير عن فكرة من أفكاره فيظل يقلب وينقب ويفكر أسبوعاً كاملاً ليجد اللفظ الدقيق الصالح ، وأنه حين كان يكتب قصته الخالدة (مدام بوفارى) ويقصر انتحار بطلتها بالزرنىخ كان يحس طعم الزرنىخ فى فيه فيجد لذلك العبارات الدقيقة التى تصف هذا المعنى وتصوره تصويراً مضبوطاً . فهل لنا من الادباء من يبلغ اخلاصهم لفنهم هذا المبلغ ؟ هؤلاء هم الذين يصقلون اللغة ويجعلونها تلطف وتشف وتصبح موسيقى تتصل بالادب لا مجرد ألفاظ تنقله كما كان شأنها فى عصور مضت .

هؤلاء الافذاذ المخلصون لفنهم هم الذين يجددون اللغة حياتها

قوية رصينة ، وهم الذين يعملون للأدب و يقيمون له أرفع صروحه .
على انهم في عملهم للغة انما يعملون كأدباء . وهم بعملهم هذا يقدمون
للعويين غذاء جديداً يفيدهم في معاجمهم أكبر الفائدة ، ويجعل من
الادب الحديث ما يفيد اللغة بقدر ما يفيدها أدب « قفا نيك » ،
وان بقي أدبهم مع ذلك أدباً عصرياً سائناً لذيذ المدخل الى النفس

النمر والسعر

« كلما أراد الانسان أن يعبر عن احساس حقيقى رأى بعد طول الجهد وكثرة الكلام أنه قال شيئاً عادياً أقل مما كان ينتظر ووجد أن أحسن ما فى نفسه بقى فيها مختفياً ... لتصوير احساس كامل وتمثيل أثره فى صورة مطابقة للواقع يلزم استعمال ألفاظ غير المتداولة ، ألفاظ غير العتيقة البالية ، يلزم اختراع ألفاظ جديدة .
(قاسم أمين)

ملاًنا طباق الارض وجداً ولوعة
بهند ودعد والرباب وبوزع
وملت بنات الشعر منا موافقاً
بسقط اللوى والرقتين ولعلم
تغيرت الدنيا وقد كان أهلها
يرون متون العيس ألين مضجع
وكان بريد العلم عيراً وأينقا
متى يعيها الايجاف فى اليد تظلم
فأصبح لا يرضى البخار مطية
ولا السلك فى تياره المتدفع
(٤)

ونحن كما غنى الأوائل لم نزل
 نغنى بأرماع وبيض وأدرع
 عرفنا مدى الشيء القديم فهل مدى
 شيء جديد حاضر النفع ممتع
 (حافظ إبراهيم)

هذه الايات من حافظ إبراهيم وتلك الكلمة من قاسم أمين
 صيحتان صريحتان بالشكوى من حال الكتابة العربية نثراً وشعراً.
 وكل الفرق بينهما أن كلمة قاسم أمين قيلت من ربع قرن أو أكثر،
 وإن شكوى حافظ لما تمض عليها بضع سنين . وليس مقام حافظ في
 الشعر بمنكور . وقاسم من المقدمين في تجديد الكتابة العربية بل
 أولهم وأكثرهم جرأة وإقداماً . على أن هذه الشكوى لا يقف أمرها
 عند حافظ أو قاسم ، بل هي تحيى بنفس كل كاتب قوى الشعور
 دقيق الحس واسع الاطلاع وبنفس كل شاعر سمى شاعريته عن أن
 يقف عند ترديد الاشعار القديمة في قواف جديدة وعند سبك
 الصور والافكار والمشاعر القديمة في قوالب ربما فاقت القوالب
 الأولى بهجة ، ولكنها ليست لذلك ذات فضل لانها في الواقع
 ليست إلا محاكاة وتكراراً . ومحاكاة الانسان للانسان لا تحتاج
 الى نبوغ وإن احتاجت الى ذاكرة ، ولا تصل الى مقام العبقرية وإن
 خلبت الانظار فجأة بلائاء بريق سرعان ما يخبو اذا تعرض للنقد
 الصحيح .

وانما يقدر ملاحظة قاسم أمين أولئك الذين لم تحبسهم معارفهم
 وثقافتهم في حدود هذا الماضى الذى أشار اليه حافظ إبراهيم والذين

اطلمعوا على مختلف صور تفكير العالم ووقفوا على أدب الأمم المختلفة. هؤلاء يرون أن المدارك والاحساسات الانسانية ليست جامدة ولا يمكن أن تكون كذلك لأنها خلق البيئة المحيطة بالانسان . وقد كانت هذه البيئة في الماضي ضيقة محصورة في حدود القرية أو القطر من أقطار الارض الذي يعيش فيه الكاتب أو الشاعر . أما وقد أصبحت الانسانية كلها بيئة واحدة للعالم أو الكاتب وأصبح يسيراً أن يطلع مثقف على آثار الفكر والشعور الانساني في الأمم المختلفة فقد اتسعت المدارك ودقت درجات الشعور وأصبحت ترى بين الميل لشخص ومحبه وبين العطف على شخص والاشفاق عليه وبين النفور والكرهية وبين الخجل والخوف وبين التردد والجهن درجات متميزة من الاحساس تدركها النفس إدراكاً دقيقاً وتعبّر بعض اللغات عن كل منها تعبيراً يحددها لك تمام التحديد . ثم ترى نفسك مطالبا بأداء ذلك في اللغة التي تكتب بها - وهي اللغة العربية - فتشعر بالعجز وترى : « بعد طول الجهد وكثرة الكلام أنك قلت شيئاً عادياً وأن أحسن ما في نفسك بقي فيها مختفياً ». بهذا الاحساس يشعر الذين يقرأون نثرات العلم والأدب الحديث في مختلف اللغات سواء وقفوا عليها في كتبها الاصلية أو مترجمة الى اللغات التي صقلت حتى صارت تتسع لكل ألوان الفكر وصور الشعور . وأنت أكثر ما يتولاك العجب حين ترى جماعة من أكابر الكتاب الضليعين في اللغة العربية الواقفين على آداب الامم الأخرى وهم يعالجون العثور على اللفظ العربي المقابل للفظ أجنبي يعبر عن فكرة أو احساس فلا يجدونه ، بل لا يجدون جملة مركبة تقيّد بالدقة المعنى الذي يقصدون الى تصويره .

على أن الكتاب الضليعين في العربية والواسع اطلاعهم في اللغات الأخرى ما فتئوا الى اليوم ومنذ قاسم أمين وقبل عصره يجاهدون لما أسماه قاسم : « اختراع ألفاظ جديدة » ، وإن كانوا قد سلكوا سبيلهم الى هذه الغاية باحياء ألفاظ قديمة وإلباسها أثوابا جديدة تعبر عن الافكار والاحساسات الجديدة آخذين في ذلك مأخذ كل الامم ، قانعين من التجديد - بمعنى الخلق دون البعث - بالالفاظ الاجنبية التي لا رجاء في وجود مقابل لها في العربية إلا أن يكره لفظ قديم على تحمل الصورة الجديدة إكراهاً مسخفاً . ولقد عالج بعض أنصار القديم من الكتاب هذا الاكراه ففشلوا فيه لانه منافع لطبائع الاشياء فمضى عليه بالفشل لا محالة

على أن هؤلاء المجددين المجاهدين في سبيل احياء اللغة العربية حياة صحيحة ان لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى الكمال فهم قد قطعوا في سبيله شوطاً بعيداً . وحسبك مقنعاً بهذا أنك لا ترى كاتباً منهم يعارض في أسلوبه أو في تفكيره أو تعبيره عن الشعور والاحساس واحداً من الكتاب الاقدمين . والناس إذ يتحدثون اليوم عن هؤلاء الكتاب لا يتحدثون عن معارضة العقاد للجاحظ ولا طه حسين لابن المقفع ولا مصطفى عبدالرازق لعبد الحميد السكاك ولا غير هؤلاء من كتاب العصر الحاضر لواحد من كتاب العصر القديم ، وإنما يتكلمون عن أسلوب العقاد ورأيه ، وأسلوب طه حسين ونظرياته ، وأسلوب مصطفى عبدالرازق ودقته وظرفه . بل ان من لا يزالون يسمون أنفسهم انصار القديم من الكتاب أمثال مصطفى صادق الرافعي وصادق غنبر وغيرهما ، قد أثرت في أسلوبهم وفي تفكيرهم

حركة التجديد هذه أثراً عميقاً حتى أصبح الجديد طبيعة نفوسهم وأصبح ما يقتفون فيه أثر القديم ظاهراً فيه العمل والصناعة والتكلف، فما يكاد الواحد منهم يترك نفسه على سجيتها حين يكتب حتى تراه يعيش في هذا العصر الذي نحن فيه يكتب بأسلوبه ويفكر بتفكيره ويرى ما يراه من ألوان الإدراك والحس المختلفة . ونحسب أنه لولا بقية من الحرص على ماضٍ امتازوا فيه على غيرهم من الكتاب حين تقليد الأقدمين امتياز شعرائنا في الحاضر امتياز أيرونه مجدهم وفخرهم إذن لرأيت الرافعي وغيره من أصحاب مذهبهم انخرطوا في سلك المجددين بكلمهم . ولعل لهم عن ذلك من العذر أن الإنسان لا يستطيع، وإن حاول، أن ينسى ماضيه أو أن ينكره

وليس عجباً أن يتأثر انصار القديم بحركة التجديد، بل العجب أن لا يكون ذلك . فالحياة دائمة التطور، والجديد هو آخر مظاهرها . وهذا وحده هو السبب في أنه جديد، فإذا انقضى عصره وحدث غير الحياة جديداً بعده أصبح قديماً . ومادمت تعيش في عصر فأنت متأثر حتماً بحياة هذا العصر، متأثر بالجديد الذي يحدث فيه . على أن كل عصر يتصل بما قبله اتصال البنوة بالابوة والوارث بالمورث . ولن يتحلل الابن من آثار آبائه وإن هو حاول . ولن يستطيع أن يكون صورة مضبوطة منهم وإن هو حاول كذلك . بل إن محاولته الأخيرة لتظهره في ثوب انصار القديم من التكلف والصناعة كما أن محاولته الأولى، وإن نجح فيها، تظهره في ثوب من التكلف إن اختلف عن ثوب القدماء فهو ليس أقل منه استدعاء للسخر . ولعلك لا ترى فرقاً كبيراً بين ما يتركه من الأثر في نفسك رجل يلبس

اليوم رداء الاقدمين ويسير سيرتهم وآخر يبالغ في تقليد آخر طراز انكسبزي في الحديث والتحية والعبارة .

ولذلك أيضا فشل المجددون الذين أرادوا قطع الصلة بين حاضر اللغة وماضيها ورجعوا أكثرهم الى الدائرة التي يعمل فيها المجددون بعقل وحكمة حتى قطعوا منها في سبيل احياء اللغة العربية شوطا بعيداً . رجع أولئك الى هذه الدائرة كما تقدم اليها أنصار القديم خطوات واسعة . والحق ان هؤلاء المتبصرين من الكتاب قد بعثوا اللغة العربية بعثا جعلها أداة صالحة لحياة الشعوب التي تتكلم بها . ولا حاجة لضرب الامثال وكتب العلم والادب التي أبدعوا متداولة في أيدي الناس جميعا ، يتلون فيها أسلس الكلام وأصح وأدقه عبارة في نقل كل ما استحدثته الانسانية من جديد صور الحياة وكل ما كشف عنه العلم من نظريات . وليس يعرف مبلغ العناء الذي يحتمله أولئك الكتاب ومبلغ الجهد الذي يبذلونه الا من رآهم يعترضون أدمغتهم وقلوبهم يريدون أن يصوروا لقارئهم المعنى الذي يدور بخاطرهم أدق التصوير . وأشد عناءهم حين يتصل المعنى بصور مختلفة من ثقافات الشرق والغرب جميعا تتسع له اللغات التي صقلت في القرون الاخيرة بل توحيه ، ثم لا يجد الكاتب نطاقه المضبوط في اللغة العربية . اذ ذاك يجاهد ليعث الالفاظ القديمة فيصحبها في بوتقه التجديد لتبدوا في صياغتها الجديدة أكثر مما كانت بريقا وأشد دلالة على الممانى التي يراد أن تدل عليها من غير أن تشوبها لذلك كدورة أو اضطراب .

مع هذا الجهاد الذي اقتضته طبيعة حياة اللغة العربية في الصور

الأخيرة فما يزال النثر ولما يبلغ الشأو الذي نرتجيه له ولما يصل الى التعبير عن افكارنا وعواطفنا واحساسنا تعبيراً دقيقاً ، وما يزال كثير من الكتاب يعدلون عن تدوين فكرة من اجل افكارهم أو رواية عاطفة من ادق عواطفهم واعمقها او تصوير حس من اجل احساسهم واسماها لانهم يرون انفسهم بعد طول الجهد وكثرة الكلام انما قالوا شيئاً عادياً وان واحسن ما في نفوسهم بقي فيها محتفياً . على ان هذا الجهاد قد طوع لهم مع ذلك ان يطرقوا من الابواب التي اقتضتها حياة العالم في العصور الحديثة ما لم يطرقة الكتاب الاقدمون . وليس في شيء من الغلو القول بأن أكثر ما طرّقوا من الابواب لم يتعرض العرب له إلا عرضاً . لان التجديد لم يقف عند الاسلوب وكفى ، بل تناول طريقة البحث والوان الحس ودرجات الشعور فصارت شيئاً مغايراً تماماً للمغايرة لما كان عند العرب واقتضت لذلك بناء للنثر جديداً . وقد اصبح هذا البناء شامخاً ولكنه ما يزال بحاجة الى التعمد والصقل والصيغة والى السعة نفسها حتى يسع كل حاجات العقل والنفس والعاطفة في ابعدها وراميتها واعماقها .

هل بلغ الشعر مبلغ النثر في التجديد ؟ وهل نستطيع القول بأن جهاداً شاقاً وجه الى اية ناحية من نواحيه كما وجه الى نواحي النثر ؟ وهل أتاح له هذا الجهاد ان يواتى حاجات الحياة الحاضرة بالمقدار الذي يواتيها النثر به ؟ فاذا انقضت اجيال وعرض ادب عصرنا الحاضر نثراً وشعراً على ناقد دقيق تبين فيهما صورة العصر بمقدار متكافئ ؟ يجب قبل بدء هذا البحث ان نقرر واقعة متداولة على انها حقيقة

ثابتة . تلك ان الشعر العربى فى عصور ازدهار الحضارة الاسلامية بلغ شأواً لم يبلغه النثر ولم يطمع فيه . وان مكانة الشعر فى عصور بنى امية وبنى العباس والاندلسيين كانت اسما بكثير من مكانة النثر وادنى الى الكمال . وان الفلسفة والحكمة والتفكير والعاطفة والحس كانت جميعا تصاغ فى الشعر بخير مما تصاغ فى النثر . بل ان الشعر العربى كان هو الادب العربى وان النثر الى جانبه كان مكلا لا غير مستقل عنه حتى لكان الكتاب يحلون نثرهم بما يرفعونه به من ابيات الشعر . فاذا كانت هذه الواقعة المتدولة حقيقة بالفعل افلا يكون حقاً للشعراء ان يقفوا مجهودهم عند بعث الشعر العربى كما كان فى ازهر عصوره ليكونوا قد اعادوا للادب العربى جدته وليكونوا قد سبقوا الكتاب الى احياء اللغة العربية وادبها ، او ليكون مجهودهم مساويا لمجهود الكتاب فى التجديد وليكون حكم الناقد الذى يستعرض ادب عصرنا الحاضر على الشعر مكافئاً لحكمه على النثر فى تعبيرهما عن تفكيرنا وحسنا وعواطفنا .

لا ريب فى ان النظر الى الشعر من هذا الجانب يجعلنا نقر للشعراء بفضل اى فضل . فليس من كبرائهم الا من عارض انغم قصائد كبار الشعراء فى الماضى فوفى فى معارضته اعظم توفيق وتوفى فى بعض الاحيان تفوقاً لاسبيل الى انكاره . وهؤلاء سامى البارودى واسماعيل صبرى وشرقى وحافظ ابراهيم واضرابهم من خول شعراء العصر الاخير لم يكادوا يتركون قصيدة من القصائد العربية الكبرى الا عارضوها وزنا وقافية ومعنى فوفقوا وتوقوا فى احيان كثيرة . وسينية شوقى الاندلسية التى يعارض بها البحرى

مشهورة . ومعارضة اسماعيل صبرى وشوقى لقصيدة : « ياليل الصب متى غده » ما يزال الناس يتحدثون بها . اما البارودى فقد عارض كثيراً من فحول المتقدمين وفى مقدمتهم النابغة . وهذه القصائد وغيرها هى من طراز القصائد التى تعارضها لغة واسلوبا بل معانى وصوراً حتى لكأنها قيلت فى تلك العصور التى قال اشباهاها فيها البحرى والنابغة والحصرى وغيرهم من اكابر شعراء العرب . واذن فقد بعث شعراؤنا العصريون ذلك الشعر العربى القديم بحزائله ومتانته

بل لقد افقن شعراؤنا فى وصف المنشآت والحوادث بما ليس له مثال فى الشعر القديم ، لان هذه المنشآت وتلك الحوادث لم تقع عليها عين الشعراء الاقدمين او لم يتعلق بها خيالهم ان لم يتعلق بها شأن من شؤونهم . ولست انكر انى اتذوق وصف حافظ ابراهيم لقصر الجزيرة الذى اصبح حديقة الحيوان كما اتذوق قصيدته فى نكبة مسينا بالزلزال وبخاصة حيث يقول :

رب طفل قد ساخ فى باطن الار

ض ينادى : امى ، ابى ، ادركانى
وفتاة هيفاء تشوى على الج
ر تعانى من حره ماتعانى
واب ذاهل الى النار يمشى
مستميता تمتد منه اليدان
باحشا عن بناته وبذنيه
مسرع الخطو مستطير الجنان

نأكل النار منه لاهو ناج

من لظاها ولا اللظى عنه وان

وكما أذوق هذا الوصف لحافظ أتذوق كثيراً من شعر شوقي
في الوصف وبخاصة وصفه لتوت عنخ آمون حين تكلم عن صيده
وكلاب صيده، ووصفه لقصر انس الوجود إذ يقول :

قف بتلك القصور في اليم غرقى تمسكا بعضها من الذعر بعضا
كعذارى اخفين في الماء بضاً ساجحات به وابدين بضاً
مشرفات على الزوال وكانت مشرفات على الكواكب نهضاً
شاب من حولها الزمان وشابت وشباب انفون مازال غضاً
ولست انكر كذلك إعجابي الذي لا حد له بالشعر الوصفى في

وجدانيات اسماعيل صبرى وفي حماسيات البارودى . ولكنى أعود
من هذا الإعجاب فأسائل نفسى : هل هذه القوافى التى ما تزال نحن
مرتبطين بها منذ عهد العرب ، ودل هذه الصور التى أدت بحافظ
إبراهيم الى ان يقول « وتحن كما غنى الاوائل لم نزل نفنى » ، وهل
هذه القيود المعنوية التى تقيدنا فتجعل شوقي فى احدى قصائده
انذة يذكر الهودج على انه مركب ام المحسنين فى حين كان مركبها
او تومبيلها الفخم ، أعود فأسائل نفسى : هل الإعجاب بهذه القوافى
والصور والقيود راجع الى انها تؤدى حاجات النفس من إدراك
وحس وعاطفة اداء صالحاً ، او هو راجع الى انها تثير فى النفس ذكر
ما حفظت اول شبابه من شعر كإعجابك بنغم التقيثارة الريفية الساذجة
بعد سماعك لآلحان عبد الوهاب بل لموسيقى موزار وبتروفن .

كنت أتحدث فى سنة ١٩٢٧ الى جماعة من اصحابى وبينهم

الشاعران الكبيران حافظ ابراهيم و خليل مطران ونحن على الباخر
النيلية بريطانيا فى النزهة التى دعت اليها لجنة الاحتفال بتكر:
شوقى بك بين مصر والقناطر الخيرية ، وتناول حديثنا الشعر وما
يحس الكثيرون به من انه لم يسبق النثر الى الخطوات التى يستطيع

معها التعبير عن كل المعانى التى تبحش بالنفس على صورة تنفق ونغم
الموسيقى الجديدة ولا تقف عند الاوزان القديمة التى يقولون انها
كانت تلائم سير الابل خيلاً وإيجافاً . ولم يعترض الشاعران على هذه
الملاحظة بل وافقاً عليها ، وذكر احدهم ان السبب فى جمود الشعر
عند اوزان العرب ومعانيهم وقوف بعض الشعراء فى وجه كل تجديد
واعلانهم الحرب النكراء على كل مجدد . ولم ينس احد الحاضرين

ان يذكر كيف تطورت الاغاني العامة واتفقت مع الانغام الحديثة
كما ادبجت - على ابتذالها - كثيراً من صور الحياة الحاضرة
ومستحدثاتها خلال الفاظها ومعانيها . وما اظن احداً يرتاب فى
صحة هذه الملاحظات على الشعر العصرى وعلى وقوفه فى قوافيه
واوزانه وفى صورته ومعانيه عن مجازاة انغام العصر وموسيقاه ،
بل عن مجازاة الهزات الشعرية التى تجول بالنفس المثقفة بثقافة العصر

الحاضر . لقد تقف بين الوف القصائد التى قلت والتى تقال على
ايات بالغة غاية الجمال تعبر بأبلغ عبارة عن ادق احساس واقواء .
لكن هذه الابات منشورة فى ليج مترامية انتشار الدر فى قاع
البحر لا تعثر عليها من غير جهد ومشقة .

وليس القصد من الشعر فى رايانا هو هذه الايات الفذة ،

وليس هو محاكاة الاقدمين . انما القصد من الشعر ابراز فكرة او صورة او احساس او عاطفة يفيض بها القلب فى صيغة متسقة من اللفظ تخاطب النفس وتصل الى اعماقها من غير حاجة الى كلفة او مشقة ، ثم ترتفع بها وترتفع او تهبط وتهبط وانت مندفع واياها مسوق وراءها متلذذ باندفاعك واتباعك تلذذك بصوت المغنى او بنغمة الموسيقى . وكما يسبقك المغنى الى القرار او السمو الذى تنساق اليه نفسك طائفة مختارة يجب ان يسبقك الشاعر فى فيض الحس او الشهوة او العاطفة وان يشعرك من ذلك اضعاف ما تشعر به لو انك كنت وحدك . وكلما بلغ الشاعر من ذلك مدى بعيداً وكلما استوت له فى ذلك النفوس جميعاً اقترب من ذروة مجد الشعر وغزر له فيض بناته ورباته .

ولقد حاول بعض الشبان وما زال بعضهم يحاول ان يوفق الى جديد فى الشعر يلائم بينه وبين روح العصر الحاضر ويصل به الى هذا المدى الذى وصفنا . وفى هذه المحاولات جرأة وفيها جمال . لكنها لما توفق الى الطريق السوى فتعبر عن مدركاتنا واحساسنا وعواطفنا بمثل ما وصل اليه النثر من قوة ودقة . وهى لما توفق الى الخروج بالشعر من لهلته التى تجعل اكثر قصائده وليس بين البيت فيها وما بعده صلة حتى لتستطيع ان تغير مواضع الأبيات كما شئت من غير خوف . ثم هى لما توفق الى اوزان تخرج بها عن سيرة الابل خبيكاً واطلاعا الى شئ يتفق وانغام موسيقى عصرنا الحاضر .

يوم يوفق الشعر الى هذا الطريق فى تلك النواحي المختلفة .

ويوم يؤدي الناية التي اشرنا اليها ، يكون قد وفق الى اداء حاجات النفس اداء صالحا . ويومئذ يسير مع النثر ويجاهد جهاده لصياغة اللغة العربية وصقلها بما يجعلها تواتى الكاتب والشاعر بكل حاجات العصر في غير مشقة ولا عناء . لكن ذلك انما يكون يوم تزول عن الشعر علتة . فما هي هذه العلة وما هو سبب الجمود الذي اشرنا إليه في هذا الفصل ؟

عامة الشعر

يوافقنى صديقى الدكتور طه حسين على ان النثر العربى قد تطور فى هذا العصر الأخير الى حيث قارب ان يكون صالحاً لاداء حاجات النفس وان كان ما يزال بحاجة الى معالجة والى صقل والى زيادة فى ثروة الفاظه ليصل الى ما وصلت اليه الكتابة فى الامم الغربية صاحبة المدنية الغالبة اليوم ، وعلى ان الشعر ظل حيث كان الشعر فى الايام القديمة حين كان مجد العرب وكانت الحضارة الاسلامية فى اهبى عصورها العباسية والاندلسية . وهو يعزو تطور النثر وجود الشعر الى مطالعة الكتاب واتصالهم بحضارة العصر فى كل مظاهرها العقلية والنفسية ، والى اكتفاء الشعراء بما قرأوا من شعر العرب والى كسلهم العقلى بعد ذلك وعدم تغذيتهم ارواحهم ونفوسهم وعقولهم بما تفيض به الارواح وتشعر به النفوس وتنتجها العقول من الآثار فى العصر الحاضر ، كما يعزو وجود الشعر الى ان الشعراء قد جعلوه بعض ما تتزين به حفلات التكريم والتأيين وافتتاح البيوتات المالية وما الى ذلك مما لا يتصل بالشعر .

ولنقف عند هذه الأسباب قبل ان نبحث عن غيرها مما ادى بالشعر الى الجمود تاركين نسبة الكتاب دون الشعراء الى القراءة والى الاتصال بحضارة العصر حتى لا نتهم بمحاربة طائفة على الأخرى . فأما

كسل الشعراء وعدم اطلاعهم وما لذلك من اثر في شعرهم فقد يكون فيه بالنسبة لآكثرهم جانب من الحق وان يكن لهؤلاء عنه كذلك جانب من العذر . فهم يقرأون بدأ صباهم حين تتحرك ربة الشعر اول ما تتحرك في نفوسهم . وبعضهم يقرأ الشعر العربي القديم لأنه لا سبيل إليه الى الاطلاع على الشعر ولا على الادب الغربى . وبعضهم يتصل بهذا الادب الغربى ، فاذا استوى لهم الشعر العربى واتسقت لهم قوافيه وبحوره شعروا بحاجة ملحة الى التبحر فى اللغة العربية وفى الشعر العربى بنوع خاص لكي يجدوا فيه حاجتهم من غذاء متصل لموسيقى النظم فى نفوسهم ممالا سبيل الى ابتغاء العوض عنه فى غيره من أدب غربى أو من موسيقى او من ادب عربى حديث . وهم سرعان ما يصلون من ذلك الى انضاج اللغة فى نفوسهم وما اكثر ما يتييسر لهم بذلك الوقوف على الالفاظ التى تحتاج اليها قوافى الشعر وأوزانه . فاذا اندفعوا فى هذه الناحية من نواحي البحث لم يقف أمرهم فيها عند حاجتهم الى نضج اللغة والى ثروة اقوافى بل تأثروا بالشعر القديم أشد الاثر واخذوا عنه فى كل شىء واندفعوا بحكم ميل النفس الى دعة الحياة لمحاكاته ومعارضته . ولقد كانوا الى زمن قريب يشعرون بما فى ذلك من شهادة بسبقهم وتوقعهم حتى أخرجتهم ضجة القديم والحديث فى اللغة والادب من سباتهم وجعلت المبرزين منهم يفكرون فى جدة الشعر باقتحام ميادين مما اقتحم الشعر الغربى ومحاولة محاكاة هذا الشعر الغربى فى اقتحامه إياها . لكن هذه المحاولات ما تزال هى الأخرى فى بدايتها . واجراً هذه المحاولات ما وضعه شوقى من روايات لم يحص النقد حتى اليوم قيمتها الصحيحة .

وأما ان الشعراء يجعلون شعرهم بعض ماتزين به حفلات التكريم والتأيين وافتتاح البيوتات المالية وأمثال هذه الأغراض البعيدة كل البعد عن المعاني والصور الشعرية فصديقي طه على حق فيه . فالشعر ظاهرة نفسية لقائله يشدو به حين تفيض نفسه باحساس من الاحساسات أو بمعنى من المعاني لاتستطيع أن تكتمه . ولن يصدق احد أن ينبعث هذا الفيض عن دعوة تدعوها جماعة لشاء كي يقول في غرض معين كحفلات التكريم والتأيين وانشاء النقابات والمصارف .

على ان لشعرائنا في غير هذه الاغراض ، ولهم فيما تلهم المعاني الشعرية الصحيحة ، ما يثير في النفس الاعجاب . وانك لو اجد شعراً صحيحاً في المقطوعات الوجدانية التي قالها اسماعيل صبرى ، ولو اجد شعراً صحيحاً في كثير من قصائد البارودي عن الاثقة وعن الحرب وعن الحنين الى وطنه وهو في منفاه ، ولو اجد كذلك لشوقي معاني شعرية ذات روعة في قصائده عن الماضي وفي تحنانه الى مصر أيام كان في الاندلس . ولنغير هؤلاء شعر هو الشعر بكل معناه . لكن ذلك الشعر قليل من هذا الكثير الذي خلفوا والذي يستظهره الناس ويجدون فيه روعة وجمالاً . وانما نظم الشعراء أكثر شعرهم في هذه الاغراض التي ليست من الشعر في شيء . وللشعراء عن ذلك عذرهم . وليس هذا العذر مقصوراً على عدم القراءة وعلى الكسل العقلي ، بل هو أعمق من ذلك بكثير . ولعلمهم لو قرأوا واجهدوا في القراءة أنفسهم وأعصابهم لما وصلوا من الشعر الى أكثر مما وصل رجال الدين من الدين . فرجال الدين يدمنون قراءة كتب العقائد والاصول والفقه وما إليها مما

يتصل بالدين بأى نسب . لكن هذه القراءة لم تغير منهم شيئاً ولم تهذب من نفوسهم وطباعهم كثيراً ولا قليلاً . ويخيل إلى أنهم لو قرأوا تاريخ العقائد وتطور الاديان بل لو انهم رجعوا الى الاساطير وتقصوا ما كان يدين به قدماء المصريين وما أخذه موسى عنهم ، وما انتقل من التوراة الى الكتب الأخرى المقدسة من صور العقائد والمعاملات ، إذن لما غير ذلك من أذهانهم شيئاً . ذلك بأن المسألة ليست مسألة قراءة فحسب ، بل هى مسألة تدبر وشعور شخصى ، فكرى أو نفسى ، يتأثر بعلامسة مظاهر الحياة من مرئيات ومسموعات ومحسوسات للأعصاب الانسانية المهدبة تهذيباً خاصاً يجعلها قابلة للتأثر والاحساس . ويجب ان نعترف ، ونقوسنا يملؤها الحزن والأسى ، ان تربيتنا وتهذيبنا لم يعدا كثرتنا لهذا التأثير الفردى والاحساس الذاتى . فهما لا يرسمان امامنا مختلف صور الحياة ويتركان لحسنا ولفكرنا ان يميزا من هذه الصور ما يأخذ بهما ويلفقهما لفتات خاصة . بل هما يجيئان بصور الحياة مصبوبة فى قوالب قررتهما الجماعة من عصر سائلة فيطبعانها فى حسنا وفكرنا طبعاً يقيدهما بهذه القوالب ويكرههما على الخضوع لها والايمان بها . وكما ان حرية الفكر هى اساس النشاط العقلى المنتج واساس ما يترتب على هذا النشاط العقلى من سمو فى الكتابة بلغ الكتاب بعضه حرية الحس هى اساس نشاط الذهن والخيال وما يفيض عن هذا النشاط من شعر هو الشعر حقا ، لا ما يصدر عنه من عبارات منظومة يسميها الناس من باب التجوز شعرا . والتحلل من جود هذه القيود ليس امراً يسيراً . بل لقد يتعامل

منها الرجل في نفسه ويراها عبثاً ثقيلاً وسخرية وهزواً . لكن نفسه التي ألفتها في الماضي والتي ترى في أطرافها ماثير الخصومة بين الجماعة وبينها تؤثر ماسماه طه كسلاً عقلياً بينما قد يكون شيئاً آخر . قد يكون هو الملل وضعف الرجاء في الانتصار على جود الجماعة والاضطرار لذلك الى النزول منها منزلة تملق مشاعرها الجامدة حتى حين هياجها وإيمانها المتعصب النائر على كل تسامح . ولعل هذا هو علة تقلب شعرائنا بين مديح شيء وهجائه ، لا لانهم انتقلوا من التسليم بجماله وما فيه من خير الى إنكاره والاعتقاد بضره ، بل لانهم أشد حرصاً على طمأنينتهم منهم على شعور قلق ليس ناشئاً عن فيض روي لا سبيل الى كبحه ، وإنما منشؤه النظر الى الحياة ومصالحها نظرة منفعة لا شعر فيها ولا إيمان بها . فالتحدث على اثر هذه النظرة حديثاً منظوماً إنما يرضى به الشاعر سامعيه قبل ان يمر بخاطره إرضاء نفسه .

الم يواجه الكتاب ما واجه الشعراء من الملل وضعف الرجاء في الانتصار ؟! ام انهم من طينة غير طينة الشعراء وان تهذيبهم اعدهم لألوان من التأثير الذاتي والاحساس الفردي غير ما اعد تهذيب الشعراء ايهم له ؟ اعتقد ان الامر متعلق بالظروف التي احاطت بالكتاب والشعراء اكثر من تعلقه بتهذيب هؤلاء واولئك مما يشترك الكل فيه على سواء . فقد كانت الكتابة جامدة جود الشعر الى ما دون نصف قرن مضى . وكان الكتاب يقلدون اساليب الاقدمين ويحتذون انواع كتاباتهم في المقامات والرسائل وما اليها ويفرمون بالسجع والبديع غرامهم ويعتبر احدهم اكبر

نفره ان يكون معارض الجاحظ او عبد الحميد . وفيما هم في سكينتهم الى ادبهم تسلمت الى مصر والى الشرق ثورات سياسية واجتماعية متأثرة بالثورة الفرنسية وبما اصاب اوربا من هزات عنيفة في اعقابها ، فقام دعاة لمثل هذه الثورة بعضهم في السر وبعضهم في العلن واتخذوا الخطابة والكتابة وسيلتهم الى اعلان ثورتهم . ولم يكن اسلوب ابن المقفع ولا لغة بن قتيبة ولا صناعة المبرد هي التي تكفل تحريك الجماهير لقبول هذه المبادئ ولا كانت هي التي تكفل حسن صياغة هذه المبادئ والدعوة اليها . لذلك لم يكن بد من اسلوب جديد ومن لغة جديدة . اسلوب ولغة لا ينبوان عن العربية الصحيحة ولا يستعصيان على ادراك الجمهور ولا يقفان دون تمثيل مبادئ الحرية والاخاء والديمقراطية ودفعها الى نفس الجمهور ليستطيع هو الاخر ان يسيغها وان يتحملها وان يتأثر بها ويتحرك لتحقيقها . وكذلك لم يكن بد من ان تساير ثورة الاجتماع والسياسة ثورة في الخطابة والكتابة . اما الشعراء فظل اكثرهم بمعزل عن هذه الحركة ولم يفكر احدهم في أن يبدع في الشعر جديدا يقربه الى الجمهور ويقرب الجمهور اليه واعتبروا مثل هذا السعي جناية على الشعر كفن جميل . من ثم اقام الشعر في سماواته الاولى لا ينزل للناس ولا يرفع الناس اليه وخطا النثر بأكتاف قوية عريضة بين الجماهير يهزها ويحركها ويقلتها الى ناحية النور الجديد ويلهمها فضل الآراء الحديثة . وكلنا يذكر جهاد الكتاب في سبيل التحلل من قيود الماضي وما قاساه قاسم امين ولطفي السيد وغيرها ، ويذكر أنه لولا شهوات السياسة ومس الحاجة للاصلاح الاجتماعي وعجز

من عدا هؤلاء المجددين من الكتاب دون الاضطلاع باعباء هذا
الاصلاح وبتوجيه تلك الشهوات ، ثم لولا تغلب المدنية الحاضرة
مدنية العلم والمعرفة وعجز من عدا المجددين دون رفع لواء هذه المدنية ،
إذن لبقى النثر كما بقى الشعر في جموده ، ولبقينا مقيدين بالصور القديمة
نكتبها لا لنعبر بها عن شعور يمر بخاطرنا وعن فكرة تنضجها
أذهاننا ولكن لنجاري بها الجاحظ او عبد الحميد او بديع الزمان ،
ثم ليكون اقربنا الى محركاتهم ابرعنا في الكتابة ، لانه يكون صدى
أولئك الذين تبوءوا بحق مكان الزعامة الكتابية في زمانهم ،
والفونوغراف الذى يحكى بدقة ، وان يك من غير شعور ، مالقى
به إليه .

على ان ثورة النثر لم تصل من تحريره الى كل ميادينه ولم تقر
للأدب حريته في كل صورته ، بل وقفت عندما ابدت الظروف
مساس الحاجة اليه . وما احسب واحداً من الكتاب يحدث نفسه
بأن الكتابة بلغت من مثلها الأسمى الذى تصبو اليه غاية المدى
او اصبحت وليس يحول بينها وبين دقة الاداء عن كل ما يحول
بخاطر الكاتب الا قصور الفاظ اللغة واساليبها . بل انا ما يزال
بيننا وبين السكالم مدى واسع غير اتقان الصناعة ودقة الصياغة .
واذا كنا قد اقتحمنا بعض الميادين التى كانت من قبل اقداسا لا
ترقع اليها العين ولا تسمح لنظرة منها بجلسة فانا ما نزال امام
بعض الميادين الاخرى مقيدين كالشعراء سواء بسواء . وربما كنا
كذلك امام اكثر الميادين الشعرية التى تتعلق بالحس وبال عاطفة .
فأين منا من هوى قلبه الى الوان غير مألوقة من الجمال تمددت فيه

وانتشرت وملأته ففاض به هواه فعبّر عنه تعبيراً صادقا ! واين منا من ساور الشك نفسه ان راي النور القديم الذي اهتدى به اسلافنا قاصراً عن هدايتنا كما صارت الانوار القديمة التي كانت تدير دياجير الليل فاترة ضعيفة امام لآلاء الكهرباء فانبعث يلتبس نوراً جديداً واندفع الى ذلك بحرارة ايمان كلها عاطفة وكلها شعر وكلها فيض والهام ! واين منا من سما لكمال بعاطفته فبكى للمذنب ذنوبه وراى فيه اخا احق برحمة الله ممن لم يجترح في الحياة اثماً ! واين منا من اهتزت كل اعصاب الا لم في نفسه امام ما سى القدر ينجع بها الابرياء كل يوم فتار على القدر ثورة الجبابرة ؟! اوليس واجبا علينا ، وذلك شأننا من ثورتنا لحرية الأدب، ان نكون رحماء بهؤلاء الشعراء الذين لا يرون بنات الشعر لانها مغلفة ملقاة في غيابات الماضي، والذين لا شيطان لهم يستمعون الى وحيه لأن شياطين الشعر لا تلهيهم الا احرار الحس والشعور والخيال . وهلا يجوز لغيرنا اذا رأى ما بينت من حالنا ان يهيب بنا : رفقا بالقوارير ، وان يذكّرنا بكلمة السيد المسيح « من كان منكم غير ذى وزر فليرمها بحجر »

وسنظل معشر الكتاب قاصرين دون التعبير عما يحول بعواطفنا حتى تنحل القيود التي تربطنا وتفتح امامنا الميادين التي ما تزال مقفلة كما تفتح الى اليوم ميادين اباحت لنا الوصول فيها الى تطور الكتابة تطوراً يسر لنا التعبير عما يحول بخواطرنا بعد تلك الثورة القوية التي قام بها الذين سبقونا والتي ما تزال الى اليوم مستمرة تريد ان تفتح من الابواب ما لا يزال مغلقا .

ولا سبيل إلى جدة الشعر الا ان تؤدي اليها ثورة كالتى ادت الى جدة النثر . وليست الثورات السياسية ولا الانقلابات الاجتماعية ادوات هذه الثورة فى الشعر مالم يكن لها اساس عميق سنده الشعور الانسانى الصحيح لا المصالح الحاضرة والشهوات الوقتية . وما لشعر وهذه المصالح والشهوات !! انه لا يلبث اذا تناولها ان يسمو بها الى مراقبه التى تخلق فوق وضع المطامع ويكسوها هالة من جمال وجلال ويستصفي الخالد من آثارها ويتغنى به ويخلده . انظر الى الشعر الغرامى . ليست جوليت وليست ليلى وليست هلويز لذواتهن شعر الشاعر ، انما الشعر مافى جمال اولئك ومافى عاطفتهن من خالد يتنقل على الاجيال فيشدو به الشاعر ويسبغ عليه كل ما واثاه به العلم والفن والخيال من مشاعر وصور . وكما ان الحب عاطفة تحرك الشاعر فالايمان عاطفة تحركه والشفقة كذلك عاطفة تحركه . ونفوسنا بحاجة إلى غذاء من الايمان كحاجتها الى غذاء من الحب . ولن يكون إيمانها شعراً إذا هو كان إيماناً مطمئناً ، كما لن يكون الحب شعراً إذا هو كان حباً مطمئناً . بل لابد ، فى الحب وفى الايمان وفى الاشفاق وفى الحرية وفى مختلف مظاهر الطبيعة وفى كل ما تتأثر به النفس ، من مجال لمطمح إلى غاية تكون مثلاً أعلى واملاً سامياً لتفيض به النفس شعراً وليكون لهذا الشعر على الزمن بقاء . فأما مادون ذلك من أثر هذه العواطف فى النفس فالشعور به مشترك بين الناس جميعاً والافضاء به لاشيء من الشعر فيه ، وإن أمكن ان يكون فيه نظم وكلام نقيم وفصاحة وبلاغة وبيان بديع

وهذا هو ما يجعل لصديق طه كل الحق حين يأخذ الشعراء بأنهم يجعلون شعرهم بعض ما تزين به حفلات التكريم والتأيين وافتتاح البيوتات المالية ، وما يجعل كل انسان على حق حين يعيب شعر المناسبات ، وحين يعيب اكثر الشعر العربي الحديث لا اكثره شعر مناسبة . والامر كذلك في شعرنا الحديث بنوع خاص ان كانت المناسبات التي تلهمه ليست مناسبات تحرك نفس الشاعر وتزعزع أعماقها فتدفعها للافاضة بمكنون ما في نفسه حتى تراك ما تكاد تخطئ بعض الابيات المتصلة بالمناسبة حتى اذا إلهام الشاعر من مجموع الحياة قد تجلى وقد غمر المناسبة وسما فوقها واتصل بحياة الوجود كله على نحو ما حركت الثورة الفرنسية نفس جيتي او ما حرك زلزال لشبونه نفس فولتير ، وانما هي مناسبات تافهة اغلب امرها كالمناسبات التي توحى ما يلقي من الشعر في الحفلات . فاذا هي بلغت من القوة والسمو ما يحرك نفس الشاعر ويثيرها ويذكى فيها اقوى المعاني واروع الذكريات رأيت ذلك وقف من إلهام شعرائنا عند قصائد قصيرة لا تتجاوز الاربعين أو الخمسين أو الستين بيتا ، ورأيت سمو الالهام لا يتصل في هذه الابيات كلها فياضا متدفقا آخذا بعضه برقاب البعض ناقلا إياك معه الى السماوات التي ارتفع الشاعر اليها ، بل وقف سمو الالهام هذا عند ابيات منشورة هنا وهناك خلال القصيدة من الشعر كلها رصينة النظم واللغة ، لكن الالهام فيها لا يعدو ان يكون بروقا خاطئة تأخذ بالنظر كلما انارت ولكنها ما تلبث ان تحبو لتحل محلها الصنعة في الشعر والتجويد في النظم . واذا كان مرجع ذلك في المناسبات العادية الى ان شعر المناسبات ضعيف بطبعه لان

الالهام فيه ينطبع في النفس من حوادث خارجة عنها بينا الالهام في الشعر الصحيح داخلي يصدر عن النفس ذاتها ويهتزله كل وجود الشاعر لانه الفيض المضيء لدخيلة حياته ولكل ايمانه ولكل عواطفه وكل وجوده، فان قصور المناسبات الكبرى عن الهام شعرائنا اكثر مما الهام نزال مسينا حافظ ابراهيم وموقعة ادرنه وانتصار الاتراك بعد الحرب الكبرى قصائد شوق في هذه الحوادث إنما يرجع الى ضعف ثورة النفس والى هذه السكينة المطمئنة التي اشترت اليها والى الاكتفاء بمحاكاة السلف ومعارضتهم والنسج على منوالهم.

والى ان تحدث هذه الثورة سيظل الشعر في جموده، وستظل المعاني الشعرية الصحيحة نادرة جد الندرة، وستظل الازان الشعرية واقعة وقوف الموسيقى والغناء. وسبيل هذه الثورة ان تظلم النفوس لحرية الاحساس والعاطفة كما ظمئت من قبل لحرية الفكر وحرية التعبير عنه. ولست ارجو ان يكون هذا الظلم شأن السواد وان رجوت ان يتقرر حقه فيه. لكننا ارجوه للأفذاذ الذين يحملون على عواتقهم اعباء النهضات الكبرى التي لا طريق لها غير الثورة. هؤلاء الافذاذ يجب ان يكونوا في حل من كل قيد للذهن او للحس او للشعور لكي يهديهم الهامهم المهدب بكل ما اورثنا الماضي وما يحيطنا به الحاضر من آثار الفكر والفن إلى المستقبل المستور بحجب الغيب، والذي لا يتفتح إلا لهؤلاء الافذاذ الذين ينظرون ببصيرة الشعر فيه. فاذا وجد الافذاذ ودفعهم الظلم للحرية إلى تحطيم القيود التي ماتزال تربط الشعراء في اكثر نواحي حياتهم وسموا بشخصياتهم الممتازة فوق عواطف السواد

وشهواته وحلقوا يريدون إرضاء نفوسهم وعواطفهم واذهانهم ،
آن للشعر أن تتجدد معانيه وأوزانه وقوافيه ، وصار أداة صالحة
للتعبير عما يحيش بالنفوس وتضطرب به الخواطر .

ووسيلة الشعراء الى كسب حرية الشعور والعاطفة والتعبير عنهما
ميسورة لمن أراد بلوغ هذه الغاية السامية . تلك أن يطلب الشعراء
الكمال لذاته لا رغباً ولا رهبا وأن يسموا فوق مطامع المادة ومزاق
الذلة والخضوع لوضع الشهوات وأن يجاهدوا لتحلل من رق
الاسار الذى ارتبطوا به مع الشعر العربى القديم . ولعلمهم اذا رجعوا
الى تطورات الشعر الغربى فى العصور الاخيرة كان لهم فيه مثل .
فقد أعلن رنसार مذهب بعث الادب اليونانى والرومانى فى القرن
السادس عشر ، ووجد هو ومن تابعه فى هذا الادب فيضاً ظل يلهمهم
قرنين كاملين . لكنهم كانوا فى ذلك ينقلون ذلك الادب القديم من
لغاته الى لغتهم فتبدوله جدة عند الجمهور الذى لا يعرف اللاتينية
ولا اليونانية . فلما كان القرن الثامن عشر انتقض الشعراء فى أوربا
على هذه القيود القديمة وأعلنوا حرية الشعور والشعر وساروا به
الخطى الواسعة التى بلغت الشأو الذى أدركه اليوم . وهما نحن أولاء
مضت علينا اجيال ونحن مقيدون بالشعر العربى القديم معانى وأوزاناً .
أفأ أن أن يكون لنا شخصية مستقلة وأن يلمن شعراؤنا حرية
الشعور والشعر وأن يقولوا بوحى نفوسهم وإلهام حياتهم لا بوحى
الاقدمين وإلهامهم ! أو ما أن لشعرائنا أن يرتفعوا فوق ذلك
المستوى الذى تضطربهم اليه ذاكرة الجمهور اضطراراً فيجذبون الجمهور
اليهم كارهاً بادىء الرأى ثم سعيداً بما أكره عليه بعد ذلك ! أما

آن لهم أن لا يتأثروا بتعليق الناس وبمجااتهم المادية فيكون شعرهم شعر النفس الفياضة لا شعر الظروف التي لا شعر فيها .

ولست كبير الرجاء في مقدرة الشعراء الذين كونهم العصر الماضي على أن يغالبوا ما نشأوا عليه وان يزدروا ثناء الجمهور وتصفيقه ولو كان هذا الازدراء سبيل الكمال . فليس يسيراً على النفس أن تغير من عاداتها ما أصبح منها بمكان الطبع . ولست ادري ان كان الناشئون اليوم يستطيعون ابداع هذا الذي ادعوا اليه من الاستقلال ومن البحث في ملكوت الشعر عن المثل العليا على نحو ما يصورها عصرنا الحاضر في الحب والحق والشفقة والحرية والايان والشك، ومن ارسال خيالهم يتغذى مما أنبت العلم والفلسفة في هذه الشؤون كما تتغذى النحلة من رحيق الزهر لتخرج للناس شهيداً شهيماً . وكيف تنق بالناشئين ولما يظهر منهم أحد مستقلا عن كبار شعرائنا مرسلًا الى الناس من فيض شعره ما تبهرهم جدته وما تهزهم قوته وما يرون فيه من الروح ومن الموسيقى غير ما ألقوا ، ثم هم يرونه مع ذلك ذا جلال وروعة !

وإنما رجاؤنا ان تصدر الثورة المجدة التي ينبعث أصحابها في طلب الكمال الشعري لذاته عن الجيل الجديد الذي يتلقى العلم اليوم والذي نجاهد كلنا في سبيل تلقيه اياه على غير تلك القواعد القديمة التي كانت تبعث الجمود الى الازدهان والقلوب والعواطف . وعلينا اذا اردنا معاوته على القيام بهذا الواجب ان نعاونه على تقرير حرية العاطفة بمقدار ما اعناه على تقرير حرية الفكر ، وان نوسع امامه من آفاق الفن بمقدار ما نوسع من آفاق العلم ، وان نعرض

عليه من صور الحياة الماضية والحاضرة ما يسمح له بحرية الاختيار. فلذا نحن قننا بهذا الواجب كان لنا ان نأمل من بين هذا الجبل الجديد اولئك الافذاذ الذين يقيمون صرح الشعر على أسس صالحة والذين يجعلوننا نحس اذ نشد شعرهم بأثلاف جواب نعمته مع سائر انعام الحياة الحاضرة وصورها ، بدل أن نرى لنفسنا كمن يشدو بقينارته وسط الاطلال يريد ان يبعث امام خياله حياة ليس لها بشيء مما في حياته اتصال .

متى وجد هؤلاء الافذاذ آمن رافعوا لواء الشعر بأن واجباً عليهم أن يقتحموا ميادينه بروح جديد . روح غير هذا الروح الاثر الذي يحصر شعراءنا أكثر الامر في دائرة ضيقة من عواطفهم الوقتية أو تفكيراتهم السطحية أو أخيلتهم القليلة الارتفاع ، وأن يقتحموا الميادين الجديدة بروح منبسط قدیر على أن يخلق في جو العالم كله ويتصل به ، ملقياً عن كاهله حدود المكان والزمن ، مرتفعاً الى السماوات العلى ، متصلاً بالملائكة والشياطين ، ناثراً على كل عتيق بال ، متوثباً في ثورته لينتظم آلهة الاغريق والمصريين القدماء وما خلفت الميثولوجيا في الامم والعصور المختلفة في تحليقه وسموه ، مجاهداً لينتقى ذلك كله ويصهره ويخلق منه في عالم الشعر خلقاً جديداً . وأحسب أن اقتحام ميادين الشعر الجديدة بهذا الروح ، كما أن غزو الصالح من الميادين القديمة بهذا الروح كذلك ، كفيل بأن يدفع بالشعر الى صدر النهضة ، وأن يجعل منه الأداة الروحية القوية التي تحطم الكثير من الاغلال وترفع بالانسانية في سماء الحرية والحب والحق والجمال .

وهذا الروح يجب له قبل كل شيء أن يرتفع بالشاعر عن شعر
المناسبات الى ما يصدر عن وحي الروح وإلهام العاطفة وفيض الفكر،
ويجب أن تكون غايته تصوير الكمال في صور تأخذ بمجامع نفس قارئها
وسامعها وتطير بها على أنغام الشعر الموسيقية لترتفع فوق مستواها ولتبرز
نفسها ولتحس معنى الكمال إحساساً عميقاً يشعرها ضرورة الدأب
للجهاد في سبيله. وتجعلها اذا قرأت شعراً يصور لها الكمال في الحب
أو الكمال في الحرية أو الكمال في الأمل أو الكمال في الألم أو
في أى ماشتت من معان وعواطف وأخيلة أثيرية الحدود دائمة
الاتساق والاتساع شعرت بأن في الحياة معانى غير هذه المعانى
التي يحى الناس ويجعلونها غاية جدهم ومنتهى أملهم ، وشعرت بأن
وجودها الحى بيننا يقتضى دوام محاولة السمو لدرك هذه الغاية .
وكما تنزهت هذه المعانى عن مناسبات الحاضر وبلغت فى روعة
تصويرها ما يرجى للكون كله من كمال كان الشعراء أكثر شعراً
وأكثر أداء للغرض المقصود منه وأكثر تحقيقاً لرسالته السامية
فى هذا الوجود .

فن القصص

تسكاد القصة اليوم في الغرب تستأثر بالأدب المنشور كله . وهي لا ريب تتقدم كل ماسواها من صور هذا الأدب . فالرسائل التي كانت ذات مكانة سامية في زمن من الازمان قد اختفت او كادت ، وانقطع الوصفية القائمة بذاتها ، والمكاتبات الأدبية الطريفة الاسلوب ، وما الى ذلك من انواع النثر ، قد اندمج في القصة واصبح بعض ما تشمله . وانت اذا سمعت اليوم بكتاب رسائل لكاتب معروف كحدقة ابيقور لانا تل فرانس والحكمة وانقدر لما ترلنك وغيرها من مثلهما لم تجد لهما في عالم الأدب من المكانة مثلما كان لرسائل مونتني في اقرن السادس عشر ولبعض رسائل روسو وفولتير في اقرن الثامن عشر . واصحاب هذه الرسائل انفسهم انما يكتبون كتب رسائلهم على سبيل التنويع بين العدد الكبير من القصص التي تجود بها قرائهم . ولم يذكر كاتب في النقد الحديث ان كتابا من كتب الرسائل قد اثر في سيرة الجماعات اثر قصة من القصص ، في حين يذكر كثير من هؤلاء الكتاب ما كان لقصة اميل في التربية (لروسو) ولرواية فرتر الخالدة (لجيتي) ولبعض روايات فلوير وزولا وفرانس وبول بورجيه وغيرهم من بالغ الأثر . بل ان كثيرين ليعترفون بان القصة الروسية في العصر الاخير منذ تولها

دستويفسكى وترجنيف وتلستوى كانت ذات أثر بالغ في توجيه الحياة الاوربية كلها .

ويذكر مؤرخو الآداب ان فن القصص على الصورة المعروفة اليوم في الغرب فن حديث . لكنهم يذكرون كذلك أن القصص لذاته قديم يرجع إلى أيام اليونان ويرجع الى ما قبل أيام اليونان في مصر والصين . ويسير أن يقدر الانسان قدم القصص وانه نشأ مع الانسانية منذ نشأت ثم تطور بعد ذلك في صور مختلفة إلى أن وصل إلى الصورة الفنية المعروفة اليوم في الغرب . وأقرب دليل على ذلك ما نشاهده من ارتياح الاطفال للقصص وانصاتهم لها وعظيم استمتاعهم بها . كذلك نرى أشد أنواع الأدب أثراً في نفس الجماهير أيما كان مبلغ الحضارة التي بلغت ، هو هذا النوع . وهؤلاء «الشعراء» الذين يذهبون الى الأرياف وإلى مقاهى المدن يقصون حكايات عنتره وأبي زيد ودياب بن غانم يستثيرون من حماسة الجماهير بأدبهم القصصى هذا ما لا سبيل إلى مثله عن طريق غير القصة من صور الأدب . والأطفال والدماء هم صورة الانسانية في بدء حياتها . وإذن فقد كانت هذه الانسانية مولعة بالقصص منذ نشأتها ، وقد كانت القصة من أولى الصور للفن الأدبى ظهوراً فيها .

إلى جانب هذا الدليل دليل آخر يضارعه قوة أو يزيد عليه . ذلك ان الحياة من اولها الى آخرها قصة تتكرر في صور مختلفة باختلاف الافراد واختلاف الازمنة والامكنة التي يعيشون فيها . ثم ان حياة كل فرد من الافراد تتكون في مجموعة من القصص الصغيرة او الكبيرة . وماذا تراك تذكر لصاحب لك حين تراه

بعد انقطاعك عنه اياما او شهوراً او سنين ؟ اولا يسأل كل منكم
الآخر عما فعل الله به اثناء انقطاعكما فيقص عليه صاحبه ما حدث
له في هذه الاثناء وما وقعت عليه عينه او اتصل به خبره ؟ والقصة
كهن لا تزيد على جمع هذه الاخبار التي يتحدث الناس بعضهم الى
بعض بها واختيار طائفة من بينها وخلق صورة حية منها تمثل عالماً
خاصاً له مميزاته واشخاصه وما وقع لهؤلاء الاشخاص من خير
وشر وما اثروا في البيئة المحيطة بهم وما تأثروا بهذه البيئة .

ونحن واجدون من رواية التاريخ ما يعزز هذين الدليلين
ويزيدهما قوة . ولسنا في هذه السبيل بحاجة الى استقصاء تاريخ
الامم المختلفة في الازمان العريقة في القدم . بل يكفي ان نرجع الى
التاريخ الديني والى الكتب المقدسة نفسها . فهذا التاريخ يقص
على الناس من اخبار من تقدمهم ما فيه لهم موعظة وعبرة . والتاريخ
لذاته ليس إلا قصصاً يسبغ عليه كل مؤرخ من خياله ما يسبغ على
حياته قوة وفيضاً . كما أن القصة ليست إلا تاريخاً إن يكن أبدعه
خيال كاتب أو أديب فهو إنما أبدعه من واقع الحياة .
وكثيرون من القصصيين يلجأون الى التاريخ يستلهمونه مادة
قصصهم كلها . فوالتر سكوت في انكترا واسكندر دوماس في فرنسا
إنما اتخذوا من تاريخ انكترا ومن تاريخ فرنسا مادة قصصهم جميعاً .
وهم قد أسبغوا على هذه القصص من خيالهم قوة تجعلنا نتشكك الى
حد كبير في صحة كل الوقائع التي يروونها وإن كان خيالهم يزيد هذه
الوقائع رواء وروعة عما كانت الوقائع التي حدثت بالفعل . ومن لا
يلجأون الى التاريخ من القصصيين إنما يلجأون الى ملاحظة الواقع

امامهم وتدوين مشاهداتهم في قصصهم. وهذا هو الآخر نوع من التاريخ. هو تاريخ الحاضر في حين ان السابق تاريخ الماضي. ولذلك كثيراً ما يلجأ المؤرخون الى ما كتب في عصر من العصور من قصص وما وضع اهله من رسائل يستلهمون هذه الصور الحية من فنون الأدب ليرسموا صورة صحيحة من الجمعية التي عاش هذا الأدب بين اظهرها. هذه الصلة الوثيقة بين القصص والتاريخ هي التي جعلتنا نستشهد بالتاريخ الديني للدلالة على قدم القصة. كذلك جعلنا نستشهد بهذا التاريخ انه لم يرو ما روى من قصص السابقين بقصد تحقيق وقائعها وتدوين تفاصيلها، وانما رواها عبراً ومزجراً. والرواية للعبرة والزجر تقتضى اختيار وقائع معينة من حياة من سبقوا يكون فيها موضع العبارة، كما تقتضى صياغة هذه الوقائع في الاسلوب انقوى الذى يدخل العبارة الى النفس ولو كانت بطبيعتها جامدة عن ان تفهمها. والقصص المؤرخون الذين يكتبون بهذا الاسلوب ولهذا الغاية يقيمون فناً من فنون الادب، ومن أسمى فنون الادب. ولقد اتهم الأدب العربى القديم خطأً بخلوه من القصص. وكانت دعامة أصحاب هذه التهمة أن ليس في الأدب القديم من القصص والقصائد القصصية المطولة مثلما في تاريخ اليونان. لكن القصص كما أسلفت قديم. وهو في الحقيقة قوام الأدب العربى المنشور كله. وبحسبك ان ترجع الى أى كتاب من امهات كتب الادب لتراه جامعا بين دفتيه من الاقاصيص القصيرة ومن القصص الطويلة. مالا شبهة عندى في ان الخيال كان له الاثر الاول في وضعه، وانه لذلك بعض فنون الادب. ولهذا لا يصح اخذه حجة تاريخية على

الوقائع التي رواها وان صح اتخاذ حجة على نفسية الأمة الإسلامية في الاوقات التي انشئ هذا الادب فيها واعتباره وثيقة وسنداً تاريخياً من هذه الناحية . وبحسبك ان تعود الى كتاب الاغانى والى كتاب العقد الفريد والى كتب الامالى لترى مادة الأدب فيها مقصورة على رواية قصص الغرلم او الحماسة او ما اليها من انواع الرواية . ويتعذر على ان اعتقد ان الرواية التي يروونها عن حروب وائل وما فيها من الاشعار المنسوبة لجميلة ولغير جميلة تمثل وقائع تاريخية . ولست بهذا انكر وقوع هذه الحروب كما لا انكر جمال الرواية التي رويت عنها وما للعرب في ذلك على التاريخ والأدب من فضل . لكنى اعتقد ان الرواية الادبية الجميلة التي وضعت لهذه الحروب والاشعار التي وضعت على لسان ابطالها إنما وضعها اديب قصاص اراد بما خلعه عليها من روعة الفن ان يجعلها اعذب في النفس واسلس مدخلا اليها . وهو في ذلك انما صنع ما صنع هو ميروس حين وضع الياذته واجرى فيها على لسان ابطال تاريخ اليونان ما اجراه من ادب رائع هو لليونان نخر لانه من وضع هو ميروس اليونانى ، وهو لتاريخ اليونان نخر كذلك لأنه يمثل بطولتها وشهامتها في خير صورة يمكن ان تمثل فيها . وكتاب الاغانى فيه من هذا النقص الادبى البالغ ذروة الفن الشيء الكثير ، وان هو لم يكن قد نسج على منوال القصة الحديثة ، لأن القصة الحديثة لم تظهر في الغرب نفسه — على ما يقول الباحثون استناداً الى مؤرخى الأدب الغربى — الا منذ قرنين اثنين .

ولقد تطور الأدب القصصى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فى أوربا فى صور والوان عدة. وهو لاشك سيتطور من بعد فى صور والوان عدة أخرى . ذلك بأن القصة تمتاز على غيرها من صور الأدب بأن ليس لمبدانها حد إلا الخيال ، وليس لتطورها آخر إلا ما ينتهى إليه تطور الجماعات إن أمكن أن يكون لهذا التطور نهاية . فهى بعد أن تحررت من قيود الأدب اليونانى والأدب الرومانى ، فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، تطورت من الأدب الوجدانى الذى أنشأه روسو بقصته الكبيرة (هلويز الجديدة) إلى انواع متعاقبة من الأدب اطلقت عليها اسماء مختلفة حسب الغاية التى يتوخاها القصاصون من قصصهم ، فسميت الأدب الواقعى ، او الطبيعى ، او النفسانى ، او التصويرى ، او الاخلاقى ، او الفلسفى ، او ما إلى ذلك من مسميات ليس من غرضنا هنا تحديدها ولا الحديث عنها . لكن مالا ريبه فيه انها كانت تمثل صورة من ميول العصر واخلاقه ونزعات اهله ، وبخاصة من يتجه هذا الأدب اليه منهم . فكما ان ادب القرن الثامن عشر كان يتجه قبل كل شىء إلى الذين تجمعهم الصالونات والذين كانوا يضيئون العواطف والغرام فوق كل اعتبار آخر . ولذلك غلب الأدب الوجدانى فيه ماسواه ، وكما ان ادب القرن التاسع عشر كان أكثر ذيوذاً بين طبقات الأمة واكثر تأثراً بالمبادئ العلمية التى ظهرت فى ذلك العصر ، ولذلك تخطى الوجدانيات الغرامية إلى تمثيل الواقع فيما كتب زولا وفلوبير وموباسان على اختلاف النزعة التى نزع اليها كل واحد منهم ، كذلك تخطى أدب القرن الذى نعيش فيه — والعهد الأخير من القرن التاسع عشر — الرياليسم

والناتورالسم ، الى صور اخرى بدت مختلفة في ادب لوتى واناتول فرانس وبول بورجيه وجول لومتر وغيرهم، ولكنها تعبر جميعاً عن ميول العصر العلمية وعن الحرص على الطرق التحليلية في البحث وعما تدفع اليه هذه الطرق التحليلية في احيان كثيرة من التشكك والادارية . وها نحن اولاء نرى في وقتنا الحاضر الرواية النفسانية تجاور الرواية الاباحية ، لان هذا العصر الذى تمخضت الحرب عنه لما يمتد الى سبيل تتحد فيه الغاية وان اختلفت فيه وجهة النظر ، وهو مدى يجمع بين المتناقضات ، لعل احتكاكها يثير منها شرراً يهديه الطريق الى الحق والى السعادة بعد ما انبهم عليه هذا الطريق وبعد ماضل فيه رشاده .

* * *

نستطيع أن نقول ان القصة تطورت في الادب العربى بما يجملها تمثل عصوره المختلفة الى عصرنا الحاضر . واذا كانت لدينا بعض قصص تمثل تفكير عصر من العصور كما تمثل قصة حى ابن يقظان التفكير الدينى الحى فى عصر ابن الطفيل ، فان ما يزهى به الادب العربى بعد ذلك من قصص فيه من الخرافة الشيء الكثير . هى لا يرب خرافة قوية ، لا تقل روعة ولا انفساح خيال عن اساطير الميثولوجيا المصرية واليونانية القديمة ، لكنها مع ذلك تمثل حالاً نفسية لعصور لا غلو فى تسميتها عصور التدهور . فكتاب « الف ليلة وليلة » الذى جمع القصص الرائعة الخيال الباهرة التركيب والذى لا يزال عند الامم كلها يعتبر مصدراً من مصادر الادب القوي لا يخلو فى كثير من اجزائه من الخرافة التى كانت سائدة فى العصر

او العصور التي كتب فيها . وبرغم ما فيه في كثير من الاحيان من دقة تصوير الواقع من حياة الاسرة وحياة الجماعة تصويراً مضبوطاً قائماً على أساس من الملاحظة الصحيحة فان ما يبلغه الخيال فيه من رسم صور الجن واخبارهم ومن الحديث عما في الهند والسند وغيرهما من آثار لم تعرفها الهند والسند إلا في مخيلة اصحاب هذا الكتاب العربي ، يدل على عقلية خاصة كانت تسيغ هذا النوع من التفكير وتعتبره مصدراً للحقيقة . فأما قصة عنتر والوزير سالم وسيف بن ذي يزن ورأس الغول وما اليها فدون الف ليلة وليلة في خصب الخيال وان كانت تزعم انها تعتمد على وقائع التاريخ اعتماداً قصصياً ليست له روعة الف ليلة وليلة ولا قوته . وهي مع ذلك تصور الحياة العقلية للعصور التي ظهرت فيها وتدل على ميول اهل تلك العصور ونوع حياتهم .

وقد تكون هذه القصص التي ذكرنا اخر ما نعرف من القصص العربي . وهي على الأقل آخر ما نعرف من القصص الذي يستحق ان يضع الانسان شيئاً من وقته في قراءته . ثم كانت بعد ذلك فترة ركود فيها القصص حتى في صورته التافهة كما ركبت سائر صور الأدب . وقد لا يجازف من يقول بأن القصص يحاول الان استعادة حياته . على ان الأقاصيص الصغيرة التي تظهر من حين إلى حين والقصص التي لم يظهر بعد منها ما يعد على الأصابع ما تزال بعيدة عن ان تعتبر بعناً لهذا النوع من الأدب . ذلك بأن القصة ، ايا كانت الحوادث التي تروى بها ، انما تدل على فكرة وتتصل بمثل أعلى في نفس كاتبها . لتكن هذه الفكرة تافهة وليكن المثل الأعلى وضيقاً ، فهما على

كل حال يترجمان عن غرض يتطلع صاحب القصة اليه . بل ان القصص التي تكتب للتسلية ليس غير ، والتسلية العامة لا الخاصة كالقصص البوليسية ونحوها ، لا يمكن ان تخلو من التعبير عن فكرة في نفس الكاتب . فأما القصص التي تسمو فوق هذا المستوى ، وأما القصص التي تعتبر بحق أدباً وفناً ، فالفكرة والمثل الأعلى يتكرران خلالها واضحين في صور مختلفة وألوان شتى . قد يختلف وضوح الفكرة والمثل الأعلى باختلاف مقصد الكاتب . فقد تكون الفكرة ويكون المثل الأعلى هما الغاية من القصة ويكونان لذلكهما الواضحين فيها كما ترى في قصة حي بن يقظان وكما ترى في قصة إميل عن التربية لروسو وكما ترى في قصص الوزير الانجليزى الكبير دزرائيلى الذى كان كلما ترك الحكم والبرلمان عاد يكتب القصص يمثل فيها مايجول بخاطره من صور اصلاح الجماعة الانجليزية . وقد يكون قصد الكاتب الى غير الفكرة . قد يكون قصده فنياً بحتاً . لكن كل انسان واسع الخيال محب للجمال قدير بذلك على ان يبدع فى الفن ، لا يمكن ان يلهم فى فنه ما لم تكن له فكرة يرمى اليها ومثل اعلى يطمح فى تحقيقه . فالادب فن . وكل واحد من ارباب الفن لا تحركه فكرة ولا يستهويه مثل أعلى لا قيمة لفنه ولا بقاء . والقصة فى الادب العربى الحديث ما تزال أغلب أمرها تستلهم القصة الغربية مقلدة إياها فى صورتها غير صادرة فى نفس الوقت عن فكرة ومثل أعلى يحركان نفس صاحبها . واذا كان التقليد فى أغلب الأحيان مقدمة البعث ، وكان تقليد الأدب اليونانى والرومانى مقدمة بعث أوربا فى القرن السادس عشر ، فان البعث الصحيح هو الذى يقوم

على فكرة ويلهم مثلاً أعلى . قال أن نصل الى التأليف القصصى القائم على هذا الأساس فنحن انما ننفع في حياة القصص روحاً تقليدية صرفة ، روحاً لا يسمى بعناً حتى يستقل بنفسه ويستمد كل مقومات حياته من البيئة المحيطة بالكاتب ومن القومية والوراثة التي يخضع الكاتب لاثرها .

والحقيقة ان القصص على انفساح ميدانه وتشكل صورته وألوانه ، لا يكفي فيه مجرد المحاكاة والتقليد إذا أريد به أن يكون ذا قيمة تكفل له أن يحشر في ظاهرات فن الأدب . لذلك كان الكتاب القصصيون الذين استحقوا البقاء وحفظ لهم التاريخ شيئاً من التقديس من ذوى السعة في العلم والاطلاع الى جانب ما لهم من موهبة الفن في التصوير والأسلوب . هؤلاء يحرك اطلاعهم في نفوسهم الافكار المختلفة وينتهى بهم تفكيرهم الى مثل أسمى يطمحون اليه . وقد ينحو غيرهم ممن لم يوهب هبة الفن نحو آخر في تدوين ما هدته اليه أفكاره وتصوير المثل الأعلى الذي يرجو أن تصل الانسانية اليه . من بين هؤلاء الفلاسفة والحكماء . لكن الفلسفة غذاء جاف للسواد الاعظم من الناس فهم لا يسيغونه ولا يطبقون هضمه . أما القصة التي تحتوى هذه الفلسفة وتلك الحكمة فتشتملها على صورة غير تلك الصورة المطلقة الجافة . هي تحتويهما بعينين عن التجرد ملاسبين للحياة في مختلف صور الحياة على ما يعرفها السواد بحواسه لا على ما يستشفها الحكيم والفيلسوف بنطقه وبصيرته . هي ترسم الحياة على ما يراها ويحسها عامة أهل الحياة ، وترسم معها ما في الحياة من حقائق وما تصبو الحياة اليه عن طريق المثل الأعلى

من كمال . . . وهى ترسم ذلك متصلاً بعواطف الناس ومشاعرهم وبالواقع المحسوس فى الكون وبالمشاهد فى الافلاك وبما سوى ذلك مما لا يستصى على الادراك ولا يحتاج لانقطاع خاص ولدراصة خاصة قد يحولان دون الشخص وأن يدرك كثيراً مما فى الحياة غير ما انقطع له واختص به .

وقد حدث طبيعة الفن القصصى هذه ببعضهم الى القول بأن الأدب انما يعبر عن انصاف الحقائق على حين تعبر العلوم وتعبر الفلسفة والحكمة عن الحقائق عريانة واضحة فى جميع نواحيها . ولست أدرى هل التعبير عن الحقيقة الكاملة مما يدخل فى باب الممكنات وها نحن أولاء مانزال نرى العلم يهدم مقررات العلم نفسها الحين بعد الحين ، كما أنه لا يفتأ يهدب هذه المقررات فى أونات متقاربة . على أنه إن صح ان الفن يعبر عن انصاف الحقائق لا الحقائق الكاملة فان مافى طبيعة الفن من سهولة التناول بما يمكن انقارىء من التحصيل منه أضعاف ما يحصل من مقررات العلم قد يكشف له أنصافاً وأنصافاً من الحقائق يجلو له الحقيقة كاملة آخر الامر . وبعد فهل يستلهم الفن غير العلم فى آخر صورته ؟ وهل يعبر إلا عن آخر مقرراته ؟ هذا الى أن الفن كثيراً ما يسبق العلم الى الكشف عن الحقائق ، وكثيراً ما يصل الهام الفنان الى ما تضطرب أمامه أدوات العلم عصوراً وعصوراً قبل أن تصل الى اقرار ما كشف الفن عنه . وإن كثيرين من العلماء الجنائين وغير الجنائين ليرون فى كثير من روايات شكسبير أقباساً من الهام الفن كان يعتبرها العلماء بعض نزع الخيال فى الماضى ثم انتهى العلم الى الاعتراف بصحتها

ودقتها . من ذلك وصف شكسبير لمكبث حين قتل دنكان وظل
ويداه ملوثتان بالدماء يضطرب أمام جريمته ويناجى نفسه بأن مافى
الارض من بحار والغيث يمدّها بتهتانه لا تكفى لتطهير يده من
الدم . كم رأى الناقدون فى هذا من عبث الخيال حتى اثبت العلم الجنائى
صحة ما ذهب اليه شكسبير من أن الجنائى لا يحرص ، فى فزعه مما اجترحت
يداه ، على ستر آثار جنايته بينما هو شديد الحرص على التمسح بهذه الآثار .
كذلك قل عن هملت وجنونه . فقد اثبت العلم ما بلغه الهام شكسبير
من توفيق لم يصل العلم اليه الا بعد مئات السنين من بعد شكسبير .
فاذا قيل مع هذا ان الأدب انما يعبر عن انصاف الحقائق كان لنا
ان نقول ان الادب ، والفن القصصى بنوع خاص ، هو الكفيل
بنشر ما يكشف العلم عنه من حقائق ، كما انه طليعة العلم فى استلهاام
الحقائق يضعها أمام العلماء لبحثها وتحقيق صحتها .

وللفن القصصى الى جانب ذلك فضل الهام غيره من الفنون
الجميلة . فهو أسبق من الشعر ومن التصوير ومن الحفر بل من
الموسيقى نفسها الى انتقاط صور حياة الجماعة التى يعيش فيها واثباتها
على الورق . ثم هو أقدر من هذه جميعاً على رسم أمل الجماعة فى
المستقبل وتصوير المثل الأعلى التى تصبو الى تحقيقه .

وكم من القصص الخيالية حاول أصحابها فيها أن يصفوا حياة
الجماعة على ما يجب أن تكون ، وان يصوروا المدينة الفاضلة ، اذا
نحن أردنا ان نستعير عبارة الفارابى . وكم من قصص اريد بها
التهديب والتعليم . وكم من قصص غيرها قصد بها الى مختلف
الاغراض نما يجعلك فى حل من انقول بان مكان القصة من الفن

الادبي يتناول نواحي هذا الفن الادبي جميعاً كما يلهم الفنون
الاخرى أجل إلهام واسماء .

مع أن هذا شأن القصة وهذه مكانتها من آداب الامم المختلفة
فانها ما تزال في ادبنا العربي في حال من الركود حتى لنكاد نقول
انها لم توجد . فالقصص التي كتبت في نصف القرن الاخير تعد
على الاصابع . واذا كان أدب الاقصوصة قد انتعش في السنين
الاخيرة فانه ما يزال في بدايته من ناحية، والاقصوصة شيء والقصة
شيء آخر في فنون الادب من الناحية الأخرى . فما هي العلة في ضعف
أدب القصص وفي فتوره وركوده؟ هذا ما يتناوله بحثنا في الفصل التالي .

سبب فتور القصص

ينشر الاستاذ « جب » : الاستاذ بمعهد الدراسات الشرقية في لندن، دراسات مستفيضة باللغة الانكليزية عن الادب العربي الحديث. وقد تناولت هذه الدراسات النثر العربي والشعر العربي وسائر فنون الادب العربي الحديث في هذه الفترة الأخيرة من حياة مصر الادبية، كما تناولت تطور الادب في القرن التاسع عشر وتأثره بادىء الامر بالآداب العربية القديمة وبشعر الجاهلية وعصور الاسلام الأولى بنوع خاص، ثم تأثره بعد ذلك بالآداب الغربية، وبالأدب

الفرنسية والانكليزية بنوع خاص. وقد وقف من بحثه عند فن القصص والرواية من فنون الأدب، وأشار الى أنها لم تتأصل بعد في الآداب العربية، وتكلم في هذا الباب عن قصص شوقي وعن «عيسى بن هشام» للمويلحي وعن روايات جورجى زيدان التاريخية ثم وقف وقفة خاصة عن «زينب» وقال انها الأولى من نوع القصص الحديث، وتحدث بعد ذلك عن «ابراهيم الكاتب» للاستاذ المازنى وأشار الى قصة «الايام» التى قص فيها صديقنا الدكتور طه حسين فصولا من حياته تشعر وأنت تقرأها بأنك تقرأ عواطف فياضة تنتقل الى نفسك

وتتطبع فيها فتعجب بها الى جانب إعجابك بالالفاظ وموسيقاها
وجمال نظامها أشد إعجاب

ووقفه مستر «جب» عند فنون القصص والرواية في الادب
العربي ليس بالشئ العجيب ، وليست هي الوقفة الاولى من جانب
من تصدوا لدراسة فنون هذا الادب في عصرنا الحاضر . فكثيرون من
المستشرقين ، ومن الكتاب المصريين أنفسهم ، وقفوا هذه الوقفة
متسائلين عن السبب في عدم ذبوع هذا الفن من فنون الادب سواء
في الشعر أو في النثر بينما هو قد يقف من الادب العربي في الذروة
من كل فنونه . والحق أن هذا الاقلال الغريب في فن القصة والرواية
يدعو الى العجب والى الدهشة . وهو كذلك بنوع خاص في مصر .
فللمصريين في تاريخ الادب القصصى مكان كريم ، إذ يرجع اليهم —
على أرجح الروايات — فضل وضع ألف ليلة وليلة وكثير من
القصص المتداولة اليوم والتي كتبت في عصور سابقة لم تصل دراسة
الادب الى تحقيقها تحقيقا مضبوطا . ثم ان حب الرواية والقصص
في الطبيعة المصرية ، حتى لتجد أهل القرى أحرص الناس على رواية
الكثير منها لابنائهم وذويهم وأصدقائهم في الكثير من أوقات
فراغهم . وليست الحوادث الوجدانية بالقليلة ولا بالنادرة الوقوع
حولنا حتى تهزم الحياة المصرية بأنها قاصرة عن إلهام هذا الفن
إلهاما قويا . ومسارح القصة في الطبيعة المصرية كثيرة ، كما أن لهذه
الطبيعة من الجمال وتعدد صورته وألوانه ما يعاون الكاتب على أن
ينلق لقصصه مختلف البيئات ذات الاثر في إلهام عاطفة من العواطف
أو مأساة من المآسى أو مهزلة من المهازل . فكيف ، وهذا هو

الواقع ، يكاد الأدب العربي الحديث يخلو من القصة والرواية ؟
والى اى سبب يعزى هذا النقص المعيب فى فن مكاتنه من فنون
الادب المكنة الاولى ؟

يحملو لبعض الكتاب من المستشرقين وغير المستشرقين ، أن يعزو
السبب فى هذا النقص الى ضعف فى الخيال يحول بينه وبين تأليف مجموع
القصة . والى مثل هذا السبب يعزو اولئك الكتاب اقتصارا اكثر
كتاب مصر وأدبائها على نشر الرسائل الموجزة . وما احسبني بحاجة
الى الاطالة فى دحض هذا الزعم بأكثر من الاشارة الى ما يقوله
كتاب الغرب وساسته طعنا على الشرق بأنه خيالى وبأنه لذلك لا
يقدر الطريق العالمية فى البحث ولا فى سياسة الدولة . وكيف يمكن
أن يكون الشرق خيالياً وضعيف الخيال فى وقت معاً ! ولم يكون
خيالياً فى العلم والسياسة حيث يكون الخيال مفسداً ، ثم يضعف
خياله فى الفن القصصى للأدب حين يكون الخيال المتصل بواقع
ما فى الحياة هو المرشد الأول لاتقان هذا الفن ! أليس هذا كافياً
للدلالة على أن الاتهام بالاسراف فى الخيال وبضعف الخيال يقصد
به فى الحالين الى الطعن والتجريح لغايات لا ترضاها الحقيقة ولا
تعاون على حسن تفاهم الامم بعضها مع بعض ، وان الغرض الحقيقى
منه تثبيت الايمان فى نفس أمم الغرب بأنها متفوقة على الشرق فى
كل شىء تفوقاً يجعل حقاً لها أن تحكم أمم الشرق هذه وتستغلها
من غير أن يكون فى ذلك اعتداء على ما للأمم من حق فى الحرية
والسعادة ! وليس أدل على أن هذه هي الغاية الحقيقية من تلك
الدعاية التى يلبسها أصحابها ثوب البحث العلمى والتاريخى والتى يؤيدون

بها ما يدعيه بعض ساسة الغرب من أن الاقدار انقت عليهم عبء تحضير أمم الشرق وتمدينها ، على حين أن مطامعهم هي التي أُلقت عليهم عبء العسف بأمم الشرق والاستبداد بشؤونها . ويعزو كتاب آخرون السبب في نقص فن انقصص والرواية في الآداب العربية العصرية الى اختلاف ما بين لغة الأدب ولغة الكلام اختلافًا يجعل قراء الأدب الراقى قليلين الى حد يفت في عضد الكتاب ويصدّهم عن المضى في سبيلهم . وفي هذا السبب ظاهر من الوجاهة . لكنه لا يعدو أن يكون ظاهراً في اعتقادنا . فان فن انقصص في الأدب الغربي يرجع الى أول أيام « البعث » الأوربي في القرن الخامس عشر . وفي ذلك العصر كان بين لغة الأدب ولغة الكتابة اختلاف لا يقل عن الاختلاف الموجود اليوم في اللغة العربية بين لغتي الكلام والكتابة . مع ذلك ازدهرت حياة الأدب في أوربا وكان للنقص وللرواية مكان رفيع منذ انقرن السادس عشر . بل منذ انقرن الخامس عشر في انجلترا . فهذا السبب وحده لا ينهض إذا حجة للنقص الذي يلاحظه الكل في شأن انقصصة والرواية العربية اليوم . ولا بد أن يقترب به سبب آخر لم يكن موجوداً في الغرب على حين هو موجود في الشرق ، وهو الذي يدعو الى تثبيط همة الكتاب عن انقصصة والرواية . بل لعل هناك أكثر من سبب واحد كما سنشير اليه من بعد

ويجب كذلك أن نهمل ما يتهم به بعضهم كتاب مصر والشرق العربي من الميل إلى الكسل ومن قلة الانتاج . فكثيرون من الكتاب المصريين ليسوا أقل خصبا في الانتاج من أكثر كتاب

الغرب انتاجا . لكن انتاجهم لا يتجه كله الى ناحية القصة والرواية بل يتوزع مجهودهم في نواح شتى ، اذا هي جمعت دلت على عظيم ما يقومون به من مجهود وما يؤدونه الى لغة بلادهم وآدابها من خدمة . وما أظننى مغالياً اذا أنا قلت أن كثيرين منهم أكثر مداومة للاطلاع وتدقيقاً فيه من كثير من كتاب الغرب . كما أن منهم من هم أعمق بكثير من الكتاب في بعض أمم أوروبا المختلفة . ويكفى أن يرجع الانسان إلى آثارهم ما نشر منها وما لم ينشر ، ما جمع منها وما لم يجمع ، ليقنع اقتناعاً صادقا بأنهم يقومون ، في هيئة لا تقدر عملهم التقدير المشجع ، بمجهود الجبارة ، ثم لا يتعنون من ورائه جزاء ولا شكورا .

ما هو السبب الصحيح إذاً في فتور الأدب العصري عن القصة والرواية ؟ أو بعبارة أدق ما هي الاسباب المجتمعة التي أدت الى هذا الفتور ، وبخاصة في مصر حيث الميل إلى القصة أصيل في النفس منذ أبعد عهود تاريخنا حتى الوقت الحاضر ؟ أشرت الى أن اختلاف لغة الأدب ولغة الكلام مما يراه بعضهم سبب الفقر في القصة والرواية ليس إلا سبباً ظاهراً لا يمكن أن ينهض وحده للدلالة على هذا الفقر ، وبخاصة أنه لم يحل في أول « البعث » الأوربي دون ازدهار هذا الفن من فنون الأدب . والواقع أن هذا السبب يجب أن يضاف إليه أكثر من سبب آخر ، ليكون بعض ما يمكن الاحتجاج به على هذه الحالة التي استوقفت نظر مستر جب واستوقفت من قبله أنظار كثيرين . وأول سبب يجب أن يضاف إليه ذبوع الامية وعدم انتشار التعليم في الشرق انتشاراً كافياً . فهذه الامية الدائمة تحول بين الجمهور وقراءة

القصص كما تحول بينه وبين الاستماع لها مع تقدير ماتحتويه من فنون الأدب ، لجهل الجمهور بهذه الفنون من جهة ، ولأنه لو استمع لها لما زاد ذلك انتشارها بما يعوض صاحبها العوض المادى الذى يشجعه على المضى فى كتابة ما يوحىه اليه خياله قصة بعد قصة . وقد يكون ذبوع الأمية من الأسباب التى تسرع الى الزوال مع سير حركة التعليم الجديدة بهذا النشاط العظيم الذى تسير به فى بلاد الشرق جميعاً ، ومع نجاح المجددين فى جعل أساليب الكتابة بعيدة عن ذلك التعقيد الذى كان يعتبره أسلافنا المباشرى . ومن لا يزال منهم من يعيش بين أظهرنا . مقياس البلاغة والدليل على الاقتدار فى الفن . لكنه ما يزال باقياً وما يزال من آثاره هذا الفتور الذى يقعد بالكاتب عن متابعة السير فى فن القصص ويعدل عنه الى ناحية أخرى من الكتابة أجدى عليه وإن لم تكن أجدى على الأدب لذاته .

يضاف الى ذبوع الأمية فتور السراة والأغنياء عن تعضيد الأدب كله . وعن تعضيد الأدب القصصى بوع خاص ، تعضيداً هو الذى شجع كتاب أوروبا فى اقرون التى تلت « البعث » والتى كانت كعصرنا هذا غير بارة بالكتابة وبالكتاب . فالى لويس الرابع عشر يرجع أكبر الفضل فى بقاء الشعر الخالد الذى خلفه راسين وكورنى وموليير ولافونتين ، والى تعضيد السراة والأغنياء الفضل فيما خلفه روسو وفولتير وديدرو وهلباخ وغيرهم من كتاب القرن الثامن عشر . وأحسب عذر سراتنا وأغنيائنا عن فتورهم هذا أنهم لا يجدون من السيدات دافعا الى هذا التعضيد . فقد كان لسيدات قصر لويس

الرابع عشر الأثر الأكبر في تعظيمه كبار شعراء العصر وكتابه،
ولسيدات صالونات الأدب الكبرى في القرن الثامن عشر الأثر
الأكبر في حماية كبار كتاب ذلك العصر وتشجيعهم . ومع ما كان
بعض هاتيك السيدات يتهمن به من الخفة والطيش ، فإنهن قداًين
لبلادهن أجل خدمة بما ظهرن به معضدات لفن من أرقى الفنون
وأجلها . ولو أن كتاب الشرق وجدوا مثل ما وجد كتاب القرن
السابع عشر من تعظيم لويس الرابع عشر ، ثم لو أنهم لو وجدوا
من حماية فضليات السيدات وعطفهن وتشجيعهن ما وجد أولئك
وما وجد كتاب القرن الثامن عشر من بعدهم ، ثم ما ليزال الكتاب
يجدونه حتى العصر الحاضر على صور تتفق مع حياة هذا العصر
الذي نعيش فيه ، إذن لرأيت الأدب العربي ، ولرأيت الأدب القصصي
بنوع خاص ، يجد من صور الإلهام ما لم يعرف حتى يومنا هذا ، ثم
لوجدت فيه نشاطاً وجدة وإبداعاً وفيض خيال ما أظن الغرب
يستطيع أن يسابق الشرق فيه ، وما أجزم بأنه لن يستطيع أن
يسبقه أن هو حال مسابقته .

ولأريد لأى اعتبار من الاعتبارات أن أضعف من خطر هذا
السبب من أسباب فتور الأدب كله ، وفتور الأدب القصصي والروائي
منه . فلم يكن أثر السيدات في الغرب وحده هو الذى حفز الأدب
الى نهضة كبرى كالتى نهضها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ،
بل كان أثرهن هو الذى حفز الأدب دائماً فى كل الأمم وفى كل
العصور . ولن تعوزنا الأمثال اذا نحن رجعنا الى العرب فى الجاهلية
وفى صدر الاسلام وفى أيام عظمته وازدهاره . وليس من المطلعين

على الأدب العربى واحد لا يعرف ما كان لسكينة بنت الحسين بن على بن طالب وحفيدة فاطمة ابنة النبى عليه السلام من أثر فى الأدب وانهاضه وتشجيعه . هذا ، ولم تكن سكينة منفردة بذلك العمل وان كانت منفردة بين ضربياتها فيه بشرف حسبها ونسبها واتصالها أقرب اتصال بالنبي العربى . وليس فى ذلك من عجب . فالقصة والرواية إنما تصور الحياة تصويراً صادقاً تملّيه العاطفة ويحلله العلم . ولا سبيل الى هذا التصوير الصادق مالم تشترك المرأة فيه بوحيا وبالهامها ، ومالم يتصل هذا الوحي والالهام ليجدنا نفس الكاتب أو الشاعر وليدفعنا اليه حياة فتية جديدة كلما آذنت قوته بالتطور أو الضعف . وهذا الوحي والالهام من جانب نصف الانسانية الثانى هو فى كثير من الاحيان خير عزاء عما يفقده الكاتب أو الفنان من ربح مادى ، بل فيه دافع الى التضحية بهذا الربح المادى فى سبيل الفن مادامت أدوات هذا الفن كاملة .

وهذا فى رأينا هو السبب فى أن كثيرين من الذين يكتبون قصصهم فى الشرق يققون عند انقصة الاولى يروون فيها تاريخ عاطفتهم الاولى حين كان الشباب ما يزال كافيا يدفعهم لتخليد هذه الصفحة من صحف حياتهم ، فاذا وقعت لهم بعد ذلك توارىخ عاطفية أخرى ولم يكونوا قد وجدوا التشجيع من ربح مادى او رعاية عظيم أو تشجيع سيدة مهذبة تعرف كيف ترتفع بهم الى ما فوق الاعتبار الثانوية فتقوى ضعفهم وتلقى عنهم غبار فتورهم ، نزعوا الى الناحية التى يرونها أوفر كسبا وأكفل بالشهرة وبالمجد ، وان

تكن شهرة سريعة الانطفاء ومجدا مقضيا عليه بالزوال .
وما دمت قد أشرت الى السيدات وأثرهن في الادب فيجب
أن أذكر في جوارهن أن ضعف أدب القصص والرواية ، كضعف
استمتاعنا بالحياة استمتعا كاملا ، يرجع الى عدم تربية عواطفنا
تربية صحيحة على حين تكفل هذه التربية الصحيحة للعواطف حسن
الاستمتاع بالحياة في أجل صورها وأكثرها سمواً وسناء ونوراً ،
وتكفل لذلك ازدهار أدب القصص والرواية ازدهاراً لا سبيل
اليه في حياة ناقصة متبلدة العواطف الى حد يجعل أهواء المرء
وشهواته تحل من نفسه محل هذه المشاعر السامية ، فتعذب به
وتكون سبب برمه بالحياة وشقوته فيها ، لانها لا تكشف له من
جوانبها إلا عن الفساد والنقص ، ولا تدفع الى نفسه حب الحياة
حباً صحيحاً . وكل فن لا يصدر عند صاحبه عن حبه لجانب من
جوانب الحياة لا يمكن أن يزدهر . وفن القصص أكثر من سائر
الفنون حاجة لحب صاحبه الحياة لأن القصص صورة الحياة .
وأنا إذ أقول بنقص تربية العاطفة عندنا أتمثل أمام عيني
صوراً نراها كلنا كل يوم وقد نمر بها مستخفين غير آبهين لها أو
واقفين عندها في حين هي ذات مغزى عميق لو أدركناه دعانا
إدراكنا إياه لتغيير نظرتنا وتصرفنا . وقبل أن أقف عند العاطفة
التي تتصل بالفرزة الجنسية في نظر كثيرين لأعالجها بشيء من
التحليل يكشف عن النقص الذي أشير اليه ، أود أن أقف قليلا عند
عواطف أخرى أمتحنها بشيء من المقارنة ليتبين القارئ الغاية
التي أرمى اليها ولتتضح أمامه الفكرة التي قدمت . ولنبدأ بعاطفة

الاحسان ، وأقصد البر بمعناه العام السامى . فأنت اذا دعوت الى اکتساب لمستشفى أو لمدرسة أو لعمل خيرياً كان ، وكنت موضع ثقة الناس جميعاً ، ألفت مع ذلك ضعفاً فى الاقدام لا يتغلب عليه فى كثير من الاحايين إلا الاحلاف وإلا مطامع شخصية يرجوها المحسن من وراء احسانه . فكثيرون لا يقدمون الارعاء رتبة ينالونها أو أملاً فى مصلحة عاجلة أو مؤجلة تقضى لهم . هذا على انك ترى فى انكثرتا مثلاً كثيرين يتبرعون بالوف ومئات الألوف لأعمال الخير والبر مدفوعين بعاطفتهم ومن غير أن يطلب اليهم أحد احساناً . بل يأبى كثير من هؤلاء ان يعرف اسمه ويكتفى أن يضع المبلغ تحت تصرف هيئة موثوق بها تتولى انفاقه فى وجوه الخير التى يقررها هذا المحسن المحبوب . ثم ان العاطفة لذاتها نامية عند الجمهور الانكليزى نمواً تغبط انكثرتا عليه . فمستشفيات تلك البلاد تدفع نفقاتها من الاحسان العام تشترك فيه الكافة من طبقات الامة كلها بغير تمييز بين بائع الصحف والتاجر الصغير والمثرى الكبير . وهؤلاء جميعاً يدفعون الى المكلفين بتحصيل التبرعات عن طيب خاطر ، بل مع الشعور بالغبطة لاداء واجب يؤمنون فى أعماق نفوسهم بأنه فرض يؤلمهم عدم ادائه

فلو أن تربية العاطفة عندنا كانت نامية نموها فى الامم الاخرى ، لكان أدائها واجب الاحسان صادراً على عاطفة تامة النمو كاملة الشعور تنغص علينا الحياة اذاهى لم تؤد هذا الواجب اداء كاملاً

وعاطفة الرفق وما يتصل بها من عاطفة النجدة مثلها عندنا مثل عاطفة الاحسان سواء . وكثيرون منا من يعمرون بحیوان

ضعيف سقط الى الارض هذه الاعياء ، أو بأخ لنا من بنى الانسان هوى به الشقاء فألقى به مضعضا على قارعة الطريق ، فلا تتحرك في نفوسهم عاطفة اللهم الا أن تكون حمداً لله على ما أنجاهم من مصاب كالذى تقع عليه أعينهم ثم يمرون به معرضين . والذين يصنعون هذا رأوا عشرات المرات جماعة من الناس تهذب فيهم عاطفة الرفق ، ماتكاد أعينهم تقع على مثل هذا المنظر حتى تتحرك عاطفة الرفق في نفوسهم فتدفعهم الى النجدة . فاذا فرغ أحدهم من نجدة الحيوان أو الانسان المستحق أياها لم ينتظر من أحد جزاء ولا شكورا . وانصرف وكل جزائه طمأنينة نفسه وراحة ضميره الى أنه أدى واجبه الذى تملى به عليه عواطفه .

واستطيع أن أعرض بالمقارنة الى كثير من العواطف غير ما قدمت . على أنى أود أن أشير الى بعض العواطف الاولى التى يردها الكثيرون ، ومن بينهم بعض العلماء ، مرد الغرائز . تلك عواطف الحب وما يتصل بالحب من عواطف الابوة والبنوة . وما أحسبني أغلو اذا أنا قررت أن الحب عندنا ما يزال قريباً جداً من الغريزة الجنسية محصورة دائرته أو تكاد فيما تلهمه هذه الغريزة لتخليد النوع وتحسينه . فأما المناطق العليا التى يرتفع الحب المهذب اليها ، فأما الحب بمعناه الانسانى السامى من الاشتراك التام فى تمثل الحياة لتزداد الحياة قوة وجمالاً وسناء ، فأما الحب على أنه عاطفة انسانية سامية أساسها انكار الذات والرقى النفسانى الى عالم الخير والجمال والحق لنخلع من كل ما فى هذا العالم على نفس أخرى تحاول من جانبها ما نحاول من التعاون على استيعاب كل ما فى الحياة من

رضى ونعيم ، فذلك ما قل أن يفكر فيه أحد أو يتصور وجوده انسان . هذا ، ولو ربيت العاطفة وهذبت وسمت الى المكان الذى تستطيع ان هي حاولت ان تسمو اليه ، رأينا فى الحياة غير ما نرى اليوم ولشعرنا بأننا نستطيع أن نقص من مشاهداتنا فنوياً من الأدب هي القصة الضعيفة اليوم لضعف تربية العاطفة عندنا ضعفاً يجعل عواطفنا كلها هزيلة أنانية لا نستطيع أن ترتفع عن مقام الغرائز الا بمقدار ضئيل .

وقد نشأ عن ضعف عاطفة الحب عن السمو الى المكان الانسانى الجدير حقاً بها أن أصبحت عواطف الأبوة والبنوة نفسها بعيدة عما يجب أن تكون عليه من جهاد كل جيل ليسمو بالجيل الذى يليه فى عواطفه كما يسمو به فى علمه وعقله . بحيث يدفعه ليقطع شوطاً جديداً فى طريق الكمال . وان كثيرين يشعرون بأن الصلات المادية كثيراً ما تكون ذات أثر فى هذه العواطف القوية التى يجب ألا تتأثر بشيء من هذا ، حتى لقد يعق أبناء آباءهم وقد يحقد آباء على أبنائهم لغير شيء الا لصلات مالية كان الطبيعى ألا تخضع لها عواطف مقدسة كالأبوة والبنوة بأقل مقدار .

ما هو السبب فى ضعف تربية العاطفة وفى نقصها هذا النقص المعيب ؟ تعود كثير من أن يقولوا إن مرجع السبب فى ذلك لتربية البيت لا لى سبب آخر . وهو لا يريدون أن يقيموا حداً فاصلاً بين التربية والتعليم بحيث لا يلقون على المدارس والجامعات أية تبعه عن هذا النقص . وعندى أن هذا غلو فاحش . وبطلانه يزداد وضوحاً كلما ارتفع مستوى التعليم وسمت العناية التى يقصد اليها من العلم . فقد كان

العلم عندنا الى زمن قريب وسيلة للارتزاق وكسب العيش ليس غير ، فكان بذلك صناعة من الصناعات التي يتلقاها الناس ليكسبوا من عرق جبينهم فيها ما يقيتهم ويقيت عيالهم . وكان الكثيرون من المتعلمين لا يزيدون لذلك على صناع ادادتهم انقانون لرجل انقانون أو المشرط للطبيب أو ما الى ذلك من الادوات لغير هاتين الطائفتين من المتعلمين . وكان ذلك واضح الاثر في حياة هاته الطوائف التي يسمونها ، تجوزا ، طوائف المتعلمين . فأنت لم تكن تكاد تخرج الا بالقليلين منهم عن النطاق الضيق الذي يعمل فيه لكسب قوته حتى اذا به قاصر العرفان الى حد مخجل ، واذا بك تستطيع أن تقول في غير غلو أو مبالغة إن انقانون في يد رجل انقانون والطب في يد الطبيب مثله كمثل النفأس في يد المزارع والمنشار في يد النجار لا فائدة منه لتهديب النفس أو العقل وانما الفائدة كل الفائدة لكسب العيش . فأما الذين يندون عن هذه القاعدة ويقصدون من العلم والتعلم الى غاية أخرى ، فأولئك شواذ موهوبون لهم فضلهم كما لهم ما تقابل به العدالة الطبيعية الفضل من نقص في نواح أخرى . وما دامت غاية العلم كسب العيش ولم يكن يقصد به الى الحق لذاته أو الجمال لذاته ، ولم يكن أمام المتعلم مثل أعلى غير الأناية الوضيعة : أناية كسب العيش ، فبحال أن تسموعواطف الشخص فوق مقام الغرائز إلا بمقدار ، ومحال أن يحس بالحاجة الملحة الى السمو نحو مراتب الانسانية المهذبة الدائمة الطموح الى الكمال . وقد كان يظن امكان التعويض عن هذه الحال في المدارس المدنية بتعليم أسمى غاية في المدارس الدينية ، أو بعارة صريحة في الأزهر

والمدارس التابعة له . فالدين بطبعه داع الى الكمال ، دافع الى استدامة البحث للوصول الى الحق ليؤمن صاحبه به عن معرفة وازاعة على عمل الخير، وتهذيب العواطف الدافعة له الى غاية حدود التهذيب . لكن الواقع يشهد بأن التعليم الدينى عندنا ليس فيه شىء من هذا على الاطلاق ، وأن غايته هو أيضاً اعداد رجال الدين ليكون العلم الدينى صناعة فى يدهم يكسبون بها عيشهم كما يكسبه الصانع والزارع والتاجر . وانت اذا قصدت الى حلقات الدرس فى المعاهد الدينية لم تكدر تسمع للمعانى السامية التى نزلت الاديان لتثبيت الايمان بها فى النفوس ذكراً ، بل رأيت كل هذا العلم الدينى مقصوراً على تدريس العبادات والمعاملات بصورة مادية جافة لا تخاطب القلب ولا تتصل بالروح ولا تفقه معنى الكمال ولا تتطلع الى جناب الله ولا ترجو من الحياة الا أن يفتح الله عليها من ابواب الرزق وان لا يقتصر عليها فيه

. الغاية من التعليم فى المعاهد الدينية كالغاية إذاً من التعليم فى المعاهد المدنية لا تتصل بالعاطفة ولا تعنى فى قليل ولا كثير بأى شىء له بها عن قرب او بعد مساس . وهذه الغاية لا تتوخى الحق ولا تريد النور ولا تحاول أن تصل بين الانسان والحياة وكل ما فى الوجود ، وإنما تتوخى الغاية الوضيعة التافهة ، غاية ملء البطن وبلوغ ما يمكن بلوغه من الترف . فى مثل هذه الحال يصح ألا يكون مخطئاً من يقول إن تربية العاطفة من عمل المنزل وإنها ليس لها بالتعليم أى اتصال . لكن هذه الغاية الوضيعة لا يجوز أن ترضاها أمة غاية للعلم فيها، بل يجب أن تكون غاية العلم أسمى وأنبل من هذا

بكثير . يجب أن تكون تهذيب العقل وتهذيب الروح والنفس بهدايتها الى الحقيقة التي يجب أن تكون مطمح نظر كل متعلم .
والعاطفة حقيقة يجب أن يجلوها العلم في مختلف صورها كما يجلوكل حقيقة اخرى . وهذا هو الواقع في بلاد العالم المتمدنين كلها . وكل شىء جلالة العلم تهذب وسما حتى المادة الجامدة التي لاحياة فيها ، والتي تحتوى مع ذلك قوة لم يكن أحد يعبا بها حتى ككشف العلم عنها وجعل منها مهذباً لهذه المادة الجامدة . فاذا سمت غاية العلم على هذا النحو كان قيناً أن يعتبر بحق وسيلة صالحة لتربية العاطفة في الانسان تربية أساسها اشتراك الانسان كفرد مع الجماعة كلها ومع سائر مافي الوجود للكشف عن الحق ولعمل الخير ولتجلية الجمال .
ولست أقصد إنكار مالم لتربية المنزلية من نصيب كبير في تهذيب عواطف الطفل بمقدار ما لها من نصيب في تهذيب ذوقه وروحه . لكننى أعتقد تمام الاعتقاد أن الفصل بين التربية والتعليم على نحو مما يحاول بعضهم أن يفعل ، أمر غير ممكن . وتربيتنا في معاهد العلم إنماتكامل من بدتربيتنا المستمرة الناشئة عن اتصالنا بالحياة . وهذه السلسلة المتصلة تجعل لتعليم الآباء في دور العلم أثراً في تربية أبنائهم في البيت قديما دال الأثر الذي يحصل الأبناء عليه من بعدحين تربيتهم في دور العلم . ونحن اذا أردنا البدء الصالح المنمّر وجب علينا أن نلتمسه في دور العلم أولاً بالسمو بغاية العلم الى التماس المثل الأعلى على نحو ما قدمت . يومئذ تسمو نظرتنا للحياة وترتفع عواطفنا فوق الغرائز حتى تقرب من الكمال ، ثم نورث ذلك ابناءنا بتنشئتهم عليه في البيت ثم في دور العلم ، ثم يكون لذلك أثره في الحياة فتسمو

سماً يجعلنا أكثر بالحياة استمتاعاً وأكثر فيها سعيًا وإنتاجاً ، ثم يكون له في نفس الوقت أثره في بعث القوة والنشاط الى فن القصص والرواية من فنون الأدب إذ تقع أعيننا يومئذ على جماعة إنسانية ازدادت رقيًا وتهذيبًا فكانت بذلك أقوى الهاما لرب الفن بما يطوع له أن يجد في متباين صور العواطف المبهضة ما يدعوه الى كمال فنه .

يضاف الى هذه العوامل عامل آخر يبعث على الفتور ويدفع الى الانصراف عن الكتابة وعن الادب . ذلك ما لا يزال متحركاً في أخلاق الشرق من الميل الى هدم كل رجل ذى قوة وموهبة ، وهدمه لاسباب لاصلة لها البتة بقوته وموهبته . فهذا كاتب قدير ولكنه يختلف وإيانا في الرأي السياسى أو ينافسنا فى صفة من الصفقات أو يثقل علينا ظله : إذ يجب علينا هدمه امام الجمهور وان اعترفنا له فيما بيننا وبين أنفسنا بالتفوق والمقدرة . ومادامنا لانستطيع أن نهدمه من طريق النقد النزيه فيجب أن نحتال لذلك من كل طريق آخر .

وكثيرون ، مع شئ كثير من الاسف ، يضعفون أمام هذه المهاجمات غير الشريفة ويرون فيها ججوداً لمجهود أكبر همهم منه خدمة لغتهم وبلادهم أكثر من خدمتهم أنفسهم ، فيعدلون عن متابعة سيرهم وينزعون الى ناحية آمن لكرامتهم ولشرفهم وأكفل بحياة أكثر طمأنينة ودعة . وإذا كان من بين الكتاب من لا يحفل بهذا الجحود ومن يثور فى نفسه الضياء الذى ملأ القدر به روحه فيدفعه غير مختار ليفيض منه على الحياة ما يزيد بها جمالاً ونوراً وليؤدى للفن الرسالة التى ألقى القدر عليه أداءها ، فان صاحب

الموهبة لا يستطيع من غير معاونة الانصار والمؤيدين أن يرى في حياته تمام النجاح لرسالته ، وان كان هذا النجاح قد كفله لها ولو بعد موته . ولو أن خلق الهدم خفت في النفوس وطأته وحل محله التقدير النزيه لثمرات الاقلام ، لقوى ذلك من هذا الضعف الذى يلاحظه الكثيرون في انقصة الرواية في الأدب العربى .

ولا نستطيع أن نهمل عاملا آخر كان له أثر في الجناية على الأدب . ذلك هو العامل السياسى . فقد كان من نتائج الحرب والحركات التى قامت بعدها فى الشرق والغرب أن انصرف الأذهان عن التأمل فى الحياة وجمالها الى صور من النضال والكفاح لكسب حقوق سياسية جديدة ، أو لتنظيم شؤون اقتصادية زعزعت الحرب أركانها ، أو ما إلى ذلك من الشؤون العاجلة . ومن طبيعة هذه الشؤون أن تلفت الناس اليها وتبهرهم عن كثير سواها . وهى لهم أكثر لفتاً وبهراً اذا هم رأوا من ورائها لاشخاصهم مكانة أرفع أو مجداً أشد بريقاً أو رخاء ورغداً لم يكونوا يطعمون من قبل فيه . وهذا العامل الذى شمل العالم كله كان أبعد أثراً فى الشرق ، لان الحرب بعثت الى الشرق هزة عنيفة أيقظته من سباته وفتحت عيونه على نواحي الحياة المختلفة المتباينة ، فجعلته من أجل ذلك فى شىء من الحيرة أى طريق يسلك ، ثم كان الطريق الاول والاقدس هو التخلص من حكم أمم الغرب إياه . وهذا التخلص يقتضى نضالا لا يقل قوة ولا خطراً عن نضال الحرب بين الامم المسلحة . فكما تستنفد الحرب جهود الامم كلها ، كذلك استنفدت وتستنفد هذه الثورات السلمية كل جهود أمم

الشرق وتدفع بالكتاب والأدباء ليضعوا قواهم ومواهبهم في خدمة بلادهم . وقد جزتهم بلادهم عن ذلك بما زادهم تشجيعاً عليه وحرصاً على المضى فيه . وهم ما زالون كذلك حتى اليوم ، وقد يطول ذلك بالكثيرين منهم الى مدى يتعذر اليوم تحديده .

هذه العوامل كلها مجتمعة تجعل من المستحيل على الكاتب الذى أوتى موهبة فى فن انقصص والرواية أن يختص فيه وينقطع له . بل لقد صار كل ما يستطيعه هذا الكاتب أن يحاول وضع الاقصوصة تلو الاقصوصة فى أوقات فراغه . فأما ان ينقطع لدراسة موضوع يكون قصة أو رواية كاملة فقد يقتضيه ذلك السنين الطوال ، وقد ينتهى به الامر إلى أن لا يتم قصته إذا هو بدأ فيها . والتخصص فى انقصص كالتخصص فى كل عمل من أعمال الحياة ، هو مفتاح النجاح والوسيلة الوحيدة لاخصب فى الانتاج وللاوصول إلى الثمرة الصالحة الجيدة . وهو كذلك بنوع خاص فى عصرنا الحاضر الذى انفسح فيه ميدان العلم الانسانى الى حد أصبح معه المحيط بهذا العلم كله محيطاً بقشور قليل ما يتصل بها من اللباب ، والذى أصبح كذلك بحيث يصبح الانسان بعد دراساته العامة ، وبعد تحصيله منها أوفر حظ تمكن منه الدراسات فى المدارس والجامعات ، بحاجة الى التوجه فى الناحية التى يميل عليه ميله التوجه اليها فيتخصص فيها ، بل فى فرع من فروعها . وقد يعجب قوم اذا ذكرنا لهم أن ميدان الأدب القصصى والروائى قد أصبح لذاته فسيحاً الى حد يحسن معه أن يتخصص الكاتب فى أحد فروعها لتعذر الاحاطة بفروعه كلها إحاطة تيسر معها الاتقان والاقتراب من الكمال .

لكن الأمر في واقع هو هذا . وأنت اذا عدت الى أكابر الكتاب القصصيين والى أكابر الكتاب الروائيين رأيت لكل واحد منهم نوعاً خاصاً يمتاز به ويفلب عليه حتى يعرف به . فأنت ترى في بورجيه غير ما تراه في أناتول فرانس وغير ما تراه في زولا وغير ما تراه في فلوير وغير ما تراه في موباسان ، وأولئك كلهم من القصصيين الفرنسيين في النصف الأخير من القرن التاسع عشر وفي هذا الثلث الأول من القرن العشرين . وأنت ترى لكل واحد منهم ميداناً خاصاً يمتاز به وتخصص فيه وقصر مباحثه على التعمق فيه وعلى معرفة ماسبق به اليه في العصور الأخرى وفي الأمم الأخرى . وهذا التخصص هو وحده الذي يجعل الإنسانية ترجو بلوغ الكمال في ميدان الأدب والفن . كما أنه هو الذي يجعلها ترجو بلوغ الكمال في ميادين العلم المختلفة .

ولا يعترض علينا بأن كثرة القصصيين وغزارة المادة التي يأخذون عنها في أوروبا هي التي تؤى بهم الى هذا التخصص ، على حين أنا ما نزال بحاجة الى الانشاء حتى ليدعونا ذلك الى تقليد الغربيين أكثر مما يدعونا الى الظهور بشخصية ممتازة لنا في عالم التأليف والأدب . فهذا الاعتراض على ظاهر وجهته ضعيف متداع بطبعه ، وهو إن حدث عن شيء فأنما يحدث عن ميل الى عدم البحث والاطلاع على صورة من الدقة العلمية تكفل تكوين المذاهب في القصص والرواية تكويناً سليماً . وقد ينال مثل هذا القول في الطب والمحاماة ، فظلت الصناعتان ضعيفتين في مصر حتى تخصص الأطباء كل لفرع من فروع الطب ، أو لبعض فرع من فروعه ،

وحتى صار المحامون يعرف أحدهم بامتيازته فى ناحية المعاملات المدنية والآخر فى المعاملات التجارية وهلم جراً . واذا كان مظهر التخصص فى الطب أوضح ونتائج هذا التخصص فيه أكثر ظهوراً ، فذلك لأن الحكم والقاضى فى شؤون الطب هى الطبيعة التى لا تخطئ أبداً . وحكم الجمهور فى الأدب كحكم الطبيعة فى الطب وفى الميكانيكا وفى كل ما هو غير خاضع لاختفاء اللسان وشهواته . وكما نجح الطب فى مصر نجاحاً يقر له السكل فى مصر وفى غير مصر منذ تخصص الأطباء تخصصاً تاماً . فانى لا ارتاب لحظة فى نجاح الأدب القصصى والروائى اذا عاونت العوامل الكتاب والموهوبين منهم بنوع خاص على التخصص فيه ، أو اذا جادت الطبيعة على هذه البلاد التى تتكلم العربية بعباقرة من الكتاب الذين يقدرون تقديرأً صالحاً عظمة الرسالة التى يحملونها ليلبلغوها إلى مواطنيهم وإلى العالم كله ، فتغلبوا على الصعاب وهزموا العوامل التى أشرت من قبل اليها ولم يتأثروا بشئ منها حتى يصدحهم عن السبيل التى تكفل اقتراب هذا الأدب خطوة أو خطوات من ناحية الكمال .

على أن انتظار جود الطبيعة بالناطقة انفذ الذى يستطيع أن يحطم كل القيود ويتغلب على كل الصعاب ويتخطى كل العقبات ليس من شيمة الامم التى تجاهد ما تجاهد مصر وسائر بلاد الشرق العربى لتتبوأ المكان اللائق بها فى زمرة الامم ، بل الواجب على الذين يشعرون ممن يقرأون هذا الكتاب بأنهم يستطيعون أن يتقدموا بأية معونة للتغلب على عامل من عوامل الضعف والفتور التى ذكرت أن يقدرها الواجب العظيم الملقى على عاتقهم هم الآخرون

ليهدوا لرجل انفن فى انقصص والرواية طريقه وييسروا سبيل نجاحه .
وكل واحد منهم ، رجلا كان أو امرأة ، يتحرك ضميره فيدفعه
لأداء هذا الواجب يقدم لبلاده أجل خدمة ويبقى فى التاريخ
مذكوراً ما ذكر الكتاب وانقصصيون الذين اتصلوا به واستمدوا
التعزید أو التشجيع أو الوحي منه . والذين يقرأون تاريخ الأدب
فى بلاد العرب حين كان الأدب فيها زاهراً ، والذين يقرأون تاريخ
ادب الغرب فى العصر الحاضر ، يرون كيف اقترنت أسماء أنصار
الأدب والعاملين على إحياء نهضته بالأدباء والكتاب أنفسهم ،
وبالنوابغ والأفذاذ منهم بنوع خاص . وهذا جزاء وفاق وحق
يجب أن يؤدى إلى هؤلاء الذين يعززون الأدب بنصرهم وبأيدهم .
وإنى لعلى يقين ، إذا وقع هذا الذى أدعو إليه ، من أن ترى مصر
وبلاد الشرق نهضة للأدب فى زمن وجيز يكون لها فى مصر وفى
بلاد الشرق ، بل فى العالم كله ، أثر يبهى الابصار ويخطو بالشرق
كله خطوات واسعة فى طريق البعث الذى بدأه منذ زمن ليس
بالقصير . إذ ذاك تثبت خطاه وتزداد سرعة وسعة عما كانت منذ
حفزته الحرب الكبرى إلى أسنى معانى المجد والعظمة والحرية .

التأليف المسرحى

ليست لغة المسرح هى ما أقصد التكلم عنه ، وإن كان الناس قد ألفوا قراءة بحوث مستفيضة يفاضل أصحابها بين اللغة الدراجه أو لغة الكلام وبين اللغة الفصحى أو لغة الكتابة وأيهما أصح لتكون لغة للمسرح . وليست ترجع رغبتى عن هذا البحث الى استهانة منى بأمره أو اعتقاد أن ما يمكن أن يقال فيه قد نقد كله . وإنما ترجع من ناحية الى أنى أميل الى الحرية المطلقة فلا أرى أى ضير فى أن يكتب مؤلف مسرحى باللغة الفصحى وآخر باللغة الدارجه ، وبأية لغة دارجه من مختلف اللهجات التى نسمعها فى مصر وفى غير مصر من البلاد التى تتكلم العربية ، والتى تصل لهجاتها أحيانا لتصبح رطانة غير مفهومة عند أبناء بلد آخر يتكلم العربية . وترجع من ناحية أخرى الى اعتقادى أن هذا الخلاف حول لغة المسرح صائر بطبعه الى الزوال . فإن انتشار التعليم فى البلاد المختلفة انتشاراً سريعاً يقضى على الامية ، من شأنه أن يقرب بين لغة الكلام ولغة الكتابة ، وأن يجعل اللغة التى تكتب الصحف ويكتب الأدباء هى لغة الحديث ولغة الكتابة فى وقت معاً مع فوارق بسيطة لا يقام لها وزن . ويومئذ تصبح لغة للمسرح كما تصبح غيرها من اللغات هى اللغة الفصحى فى متعارفنا نحن أهل هذا الجيل أو الجيل التى تكتب هاته اللغة فيه . فاذا أراد مؤلف بعد ذلك أن

يختار لقطعة مسرحية لهجة دارجة كان ذلك تأثقا في الفن لا بأس به . ونحن في هذا كغيرنا من الأمم . فأنت تسمع في انكثرا أو فرنسا أو ايطاليا لهجات في الشمال تختلف عن لهجات الجنوب ، لكن لغة المسرح هي لغة الكتابة للجميع ، من غير أن يحول ذلك دون قيام مؤلف متألق بوضع قطعة بلهجة مقاطعة من المقاطعات أو ناحية من النواحي .

على ان هذا الحل لمسألة التأليف المسرحي من ناحية اللغة لن يحول دون ظهور مشكلة أخرى وموضوع جدير بالبحث ، كما كانت لغة المسرح جديرة بالبحث من سنوات ماضية . هذه المشكلة هي اللغة القديمة والشعر القديم وهل يجب أن تكون ثروتنا المسرحية حاوية لطائفة من انقطع التمثيلية مكتوبة بهما . وقد اثير هذا البحث من ناحية عملية حين ترجم الاستاذ خليل مطران بعض روايات شكسبير في لغة عربية فيها من انفخامة والجزالة ما يتفق مع لغة شكسبير وما قد يعتبر من غير لغة الكتابة في عصرنا . وهو قد اثير حين وضع شوقي بك روايته الشعرية (مصرع كليوباترا) ورواياته التي جاءت بعدها ومثلت على المسرح ، فكانت صورة جديدة من اللغة المسرحية لم تؤلف من قبل . على ان هذه الاثارة العملية للبحث لن تكفي ، فيما أظن ، لسد حاجات اللغة على وجه يرضى أقطابها . وأعتقد أن البحث سينتار من ناحية نظرية أيضاً لمعرفة ما إذا كان واجبا أن يوجد في انقطع المسرحية العربية نوع من « الكلاسيك » الذي يصل الحاضر بالماضي أم أننا نستطيع نسيان هذا الماضي والاكتفاء ببذل كل جهودنا للتجديد للمستقبل . وسيتصل بهذا البحث وسيتفرع

الى بحوث أخرى منها ما إذا وجب أن ترجع الصلة بين الحاضر والماضى الى بلاد العرب فقتصل البلاد التى تتكلم اللغة العربية جميعاً بتاريخها وبتقافتها وبآثارها وتعاليمها على نحو ما اتصلت أمم الغرب كلها باليونان وروما انقيديتين، أم أن ترجع الصلة بين الحاضر والماضى الى صلة كل أمة بماضيها فترتبط مصر بالفراعنة وطرابلس (برقة) بقرطاجة وبلاد الشام بفينيقيا ، وأن تربط اللغة العربية السليمة بين هذه الثقافات المتصلة كلها وتجعل منها وحياً للادب يقصد منه الى احياء الادب العربى فى ظل كل واحدة من هذه الثقافات المختلفة أحسب أن هذا البحث سيثار عما قريب ، وبخاصة حين تخرج المدرسة الجديدة من طلاب الادب الذين يدرسونه اليوم على طريقة علمية صالحة . على أن هذا البحث ليس هو أيضاً غرضى من هذا الفصل عن التأليف المسرحى . وإنما أقصد منه الى مايجب أن يتناوله هذا التأليف المسرحى من ناحية أنه فن من فنون الاجتماع من مواضع . وقد دفعنى إلى تناول هذه الناحية من المسألة ماقرأت ورأيت من قطع مسرحية مؤلفة بعد الحرب . فهذه انقطع كلها ، أو الكثرة الظاهرة منها ، تتناول صور التطور الذى اتجهت الانسانى بعد الحرب وبسببها نحوه ، وكلها ، أو الكثرة الظاهرة منها . تحاول توجيه تيار هذا التطور بهذيب شذوذه ورده قدر المستطاع ليندفع فى الناحية الطبيعية ، أى فى الناحية الاكثر على الانسانى جدوى فى رقيها وفى سعادتها فى ظل الحضارة الغربية الحاضرة .

من بين ما نتناول هذه القطع التمثيلية من الموضوعات ما خلفته الحرب

من أثر في شأن الرجل والمرأة واتجاه كل منهما في الحياة ونظرته اليها وعلاقة كل منهما على أثر ذلك. فقد كان من أثر الحرب أن أصبح الرجل غير مبال للعمل المتصل والكدح المستمر، بل صار ميالاً للمخاطرة والمجازفة يلتمس من طريقهما الثروة وبعد الصوت ورفيع المكانة كما كان إبان الحرب يلتمس من طريقهما الظفر والنصر أو الموت والاستراحة من عناء الحرب والحياة. أما المرأة فقد ألقت الحرب عليها أعباء ثقالاً خلال أربع سنوات متتالية فكانت في الدار الاب والمربي والمجد لرزق البنين والبنات والعامل لفاهية الاسرة كلها، وكانت خارج الدار العامل الذي لا يمل في الاسعاف والتمريض وفي المعمل والمصنع. لذلك أفادت من الحرب حرية بتقدير ما حملت من عبء المسؤولية، وازدادت شعوراً بقوتها على الحياة بتقدير ما استطاعت أن تكافح لها ولذويها ولوطنها في الحياة. وهي اليوم تحاول أن تستبقي هذه القوة وتلك الحرية بأزاء الرجل، وأن تنظم علاقاتها معه على أساسهما. أما هو فقد أصبح يعتبر الهجوم سبيل النصر، وانتهاز الفرصة وسيلة الغنيمة، والمجازفة مفتاح التحكم والاستعلاء. على أن هذه الصفات الجديدة التي أكسبتها الحرب الرجل والمرأة لم تنزع بطبيعة الحال ما فطر عليه من سلائق وعواطف تضرب بين جوانحهما وتجيئها دخال وجودهما. لهذا اضطربت العلاقات بينهما على أثر الحرب اضطراباً أشار الكتاب والاجتماعيون اليه ونظروا مبهوتين يلتمسون الوسيلة الى القضاء عليه. ومن بعض الوسائل تحليل أسباب هذا الاضطراب وردّها إلى أصولها وإظهار الجواهر عليها، حتى تسترد قوى التنسيق بين العقل والعاطفة وبين السليقة

والشدوذ. وقدلفت نظرى فى هذا التحليل استفزاز عاطفة النبيل والكرامة عند المرأة لمحاربة هذه الوحشية المفترسة فى سبيل المال مما أصاب الرجال على أثر الحرب دأؤه . فهاته فناة مهذبة متعلمة قوية على الحياة شاعرة بحقها فى الحرية ، يحبها رجل فى مثل تهذيبها وتنقيتها ولا تشعر هى نحوه بمثل العاطفة التى يشعر بها نحوه . ذلك بأنها وضعية المنبت ، وهى تريد أن تتخذ من شهاداتها وتهذيبها وسيلة للاستعلاء على منبتها . ويتصل بها شاب من المستمتعين بألقاب الشرف ، أو من الذوات إن شئت تعبيراً مصرياً ، فترى هى فى علمها وشهاداتها ما يوازى شرفه فتتعلق به وتود لو تكون دوقة ، جزاء لها على ما أنققت فى تعلمها . لكن الدوق لا يعنيه العلم ولا يهيمه التهذيب ولا يطمع فى أكثر من أن يجعلها متعة هواه وفريسة ما أفادته الحرب من مغامرة . ويذكر لها صديقها المتعلم الذى يحبها ، أن الدوق لا يعنيه علمها وأنه إنما يحبها لو أنها أصبحت إحدى نجوم السينما ، واحدة من ملكات الجمال . وبرغم تقززها من أن تظهر فى هذا المظهر فإنها تنتهى بأن تعرض نفسها فى معرض الجمال وتصبح مسفرنساء ، فس أوربا ، فس العالم . هنالك يجن الدوق بها ويخطبها ويحدد موعد العقد عليها . لكنه قد اضاع ثروته ، فلا بد من أن يستفيد من ملكة الجمال فى العالم يعرضها على مسارح أمريكا وأوربا ، ويصبح وإياها نجمى مسرح أو نجمى سينما . هنالك يثور شرفها وتثور كرامتها وتثور بها التعاليم التى تلقىتها ، فتعلم فى الصحف أنها انتحرت ، وتذهب الى صاحبها الاول تعرض عليه ما حل به من كارثة ، وتنتهى بأن تصبح زوجا له تعيش وإياه فى ركن ضيق من الارض تتمتع

بنعمة الامومة وسعادة الزوجية بعيدة عن المغامرات المحجلة المزرية
بكل علم وكل كرامة .

وتلك فتاة متهذبة متميزة قوية على الحياة شاعرة بحقوقها في الحرية
تزوجت رجلاً مقامراً يريد الثروة والغنى العاجل ، فيضارب في البورصة
فتصيبه الخسارة تهوى به الى حضيض الجريمة ، ثم يعلم ان زوجه
هذه ورثت سبعة ملايين من الفرنكات مع ابن عم لها ورث سبعة
ملايين مثلها . وكانت الزوجة قد سئمت هذه الحياة المادية الوضيعة
التي لا ترمى الى مثل أعلى ولا تطمع في غير المال تحتله بكل الوسائل
ومن مختلف الطرق . وزادها سأمًا ان أصبحت أما وان صارت
تخاف أن ينسد هذا الغارق في حضيض المادة كل المعاني الانسانية
في نفس ابنته . ثم كان ابن عمها الذي ورث مثلها ورثت قد وهب
نفسه للفقراء والمحتاجين : يقوم على تربية أبنائهم وحسن توجيههم
في الحياة الى أسمى مافي الحياة . فلما علم بما ورث أبي أن يقتضيه
لأنه لم يكن نقي المورد إذ كان خالدة ساعات زمنا ماسيرتها . وأعلنت
الام البائسة أنها تنزل عن سبعة الملايين التي لها هي أيضا . فجن
جنون زوجها وذهب يلتمس عون ابن عمها كي يرد لها عن عزمها .
وبعد لأي قبلت أن تنزل له عن سبعة الملايين مقابل طلاقها
وتسليمها ابنتها . فلما تمت الصفقة صاحت متهجة : لقد باعني ابنته !!
ووقفت حياها على ابنتها تربيتها تربية سليمة وتوجهها الى مثل أعلى .
ليست تقف مواضع التألف المسرحي عند هذا النوع من
الاصلاح الاجتماعي . على أنها تحاول فيما تتناول منه تحليل أسباب
الاضطراب النفساني والاحتماء الذي خلفت الحرب لتظهر الجماهير

عليها كي تسترد قوى التنسيق بين العقل والعاطفة وبين السليقة والشذوذ . ثم هي تتناول كذلك أنواعاً أخرى لعل الفن وحده هو صاحب الاملاء فيها . على أنها بالرغم من ذلك تتناول جانباً من الحياة كما يراه الناس ، وتتناوله بالتحليل أو بالعرض أو بالنقد . ثم إنها في كل حال تتناول جانباً من الحياة على ما تراها ونحسها فتجعلنا لذلك نرى صورة الحياة من أحد جوانبها حين نرى هذه القطع تمثل على المسرح . قد يكون هذا الجانب تافهاً وقد يكون ضعيفاً وقد لا يرى البعض أن يتوجه إليه بأية عناية خاصة . لكنه على كل حال من الحياة التي نحى ، فهو لذلك يمسنا من ناحية الحس أو الشعور أو التفكير أو العقيدة ويحرك فينا واحدة أو أكثر من هذه النواحي بمقدار قل أو كثير . وفي اعتقادي أن هذا هو الهم الأول للمسرح . فأما ما يكون فناً للفن من غير أن يكون ذا مساس بالحياة ، فن صور الكمال المستحبة ، ومما يجب أن يفكر الكتاب المسرحيون فيه تفكيراً جدياً ، ولكن مع هذا الاعتبار دائماً ، وهو أن هداية المسرح الجماعة في الحياة يجب أن تنال أو فرحظ من العناية ، ويجب أن تكون عند رجال المسرح في المكان الال

حاول بعض الكتاب المسرحيين في مصر ، وفي مقدمتهم المرحوم محمد تيمور ، أن يجعلوا غايتهم من قطعهم المسرحية هذا التوجيه الصالح لتطور الجماعة الى الناحية الأكثر على الانسانية جدوى في رقيها وفي سعادتها ، فانتزعوا من وقائع الحياة في مصر صوراً أبرزوها على المسرح لتمس من الجمهور بعض نواحي الحياة ولتستفز منه العقل أو العاطفة أو العقيدة . ولست أحاول أن أحلل أو أُنقد بعض هذه

القطع . لكن هذا المجهود الصالح لم يصل الى غايته ولم تتداوله الايدي بمقدار نتجلى معه من الحياة نواح كثيرة ، فتوجه في نفس المطمع على القطع التمثيلية المختلفة تيار التطور الى الناحية المراد أن يتجه اليها . ولعل لا أغلو إن قلت إن كثيراً من هذه القطع كانت تنقصه روح الفن التي تضاعف الحياة على المسرح مضاعفة تجعل ما يتركه من الاثر في النفس قويا عميقا لا يتبخر ولا يزول بعد مناداة المشاهد المسرح بسويغات . قد يذهب بعضهم الى أن جانباً كبيراً من اللوم في هذا يقع على الممثلين الذين لا ينقلون الى الجمهور كل ما يريد المؤلف أن ينقله اليه من صور الحياة ولا يوجهون هذا الجمهور الى ما يريد المؤلف أن يوجهه اليه ليندفع تيار تطوره الى ناحية خاصة . لكنني أعتقد من جانبي أن المؤلف جدير بمقدار من اللوم أكثر من الممثل . وهو جدير بكل اللوم أن كان واجبا عليه هو أن يختار الممثل الذي ينقل قطعه المسرحية الى الجمهور . وأكبر ظني أن لو اخترت المواضيع من واقع ما تضطرب به الحياة اختياراً يجعل الموضوع لذاته قويا أخذاً ، لكان هذا الاختيار نفسه جديراً أن يسمو بالممثل الى مالا تسمو به اليه القطع التي تمثل اليوم والتي تعتمد أكثر أمرها على الخيال البعيد عن قوة تصوير ما في الحياة التي نرى ونحس .

نعم . فإن كثيرين من كتابنا ومثلينا يظنون المقدرة غاية المقدرة في ابداع مالا تستطيع الحياة ابداعه . وأنت أكثر ما ترى على مسارحنا مآسى ومهازل منقولة عن اللغات الاوربية ، وانغرض من أكثرها لا يمدو إلهاب خيال الجماهير الساذجة القاصرة الخيال

والتي تريد لذلك أن ترى في المدهش وفي المعجب والمطرب ما يعوض عليها قصر خيالها. وهذا الضرب من التأليف ومن التمثيل أقرب الضروب إلى ما يرغب الاطفال عادة في مشاهدته في خيال الظل والقرا كوز ونحوها. وإذا كان هذا النوع من الفن مما يثير إعجاب البعض فهو في نظري ليس بالفن الذي يؤدي للحياة رسالة الفن الجدير باسم الفن ، والذي يتصل بالحياة ويسبقها في تصوير سبيل الكمال لها وفي تشذيب ما بها من شذوذ يعوقها عن سرعة السير في سبيل الكمال هذه . وهذا انن هو الذي ندعو لدراسته وجعله موضع التأليف المسرحي .

وليست هذه المواضيع بالقليلة أو النافذة في مصر . بل إن مما تنقل الصحف السيارة من أخبار وحوادث قد نر عليها من غير أن تقف طلعنا عندها ، ما يجدر بالعناية والدراسة والبحث وما يصلح خير صلاح ليكون قطعاً تمثيلية إذا أتقنت من ناحية التأليف كانت من خير ما أخرج للناس في مختلف البلاد والأمم . لكن العناية والدراسة والبحث تحتاج إلى مجهود . وقد أصابتنا الحرب بما أصابت به أوروبا من السعي للفرار من كل مجهود متصل مضى ولكنه عظيم النتيجة عميق الأثر .

هل لنا أن نرجو التغلب على هذا الهمود الذي أصابتنا في نواح كثيرة ، منها ناحية التأليف المسرحي ؟ وهل للمؤلفين المسرحيين عندنا أن ينظروا الى هذا الفن نظرة جد وأن يعتبروه جديراً بمجهود ماثرب منتج ؟ وهل لكتابنا الذين يعنون بهذه المواضيع أكثر من عنايتنا والذين يعرفون لذلك أسباب ضعفها وقوتها أكثر

مما نعرف ، أن يكشفوا عن هذه الاسباب وعلى وسيلة التغلب على
الضعف واستثارة مقدمات القوة ؟ ان النجاح فى هذا وما قد يكون
أثراً له من النجاح فى التأليف المسرحى خلىق بأن يوجه تطور
الامة توجيهها صالحاً لم توفق حتى اليوم له . وهذه غاية سامية
جديرة بأكبر الرؤس وأنضج العقول .

الادب القومى

عرفت بباريس فى ربيع سنة ١٩١٠ فتاة من كندا نزلت وأمها بالنزل الذى كنت به وأقامت فيه أسبوعين ثم غادرت وأمها الى ألمانيا فى واحدة من هاته الرحلات التى يعكف أبناء أمريكا عليها حتى لأحسبهم يعتبرونها بعض واجبات الحياة . وكنا أهل النزل جميعاً نقضى ما بعد العشاء فى صالون متصل بغرفة المائدة نتحدث أو تعزف صاحبة النزل لنا بعض قطع على البيانو أن كانت تحب هذا العزف الى حد البراعة فيه . وقد وثقت هذه السويغات بينى وبين الفتاة الكندية أن كنت أقدر الحاضرين على التحدث اليها بالانكليزية لأنها لا تحب الفرنسية . وكنت يومئذ أكتب « زينب » وكانت لى يومئذ فى الأدب وما أرجو أن أجدد فيه من آثار أو هام طويلة عريضة . وعرفت مس شلوك كاسلز ذلك من أمرى وعرفت مما كان يرد إلى من صحف مصر إنى أكتب فى بعضها . فلما كانت الليلة التى اعترمت مغادرة باريس فيها وجهلنا نتحدث بعد العشاء خاطبتنى فى ذلك المستقبل الذى كنت أرجو لنفسى ككاتب قصصى فقالت :

— كم أود لو استطعت أن تكتب تاريخ مصر فى صورة قصصية كما صنع سير والتر سكوت بتاريخ انكلترا . إننى وإن لم

أعرف مصر أشعر بأن فيها شيئاً كثيراً جيلاً وان تاريخها وآثارها جديران بالكشف عنهما وتقريبهما للناس في الصورة القصصية المحببة للنفس . ولعلك إن فعلت تجمل إهداء أولى هذه الروايات التاريخية لى .

ولم أفل ولم أقم بأكثر من محاولة لم تتم يتبينها القارىء في الفصول الأخيرة من هذا الكتاب . لكنى أشعر من يومئذ كما كنت أشعر من قبل ذلك بأن حياة الأدب إن لم تتصل بنفس الأديب وروحه ، وإن لم يظهر وحيها في آثار حياته ، كان الأدب فائراً ضعيفاً لانه لا يصف الواقع ولا يجلو الحقيقة . وخير ما يكفل وضوح ذاتية الأديب في أدبه أن يتصل ما يكتب بقلبه وعقله وكل حياته . وليس ذلك بمستطاع على أكل وجوهه إلا حينما نصف حياتنا وحياة آبائنا والبيئة التي أنبتتنا والوراثة الكامنة فينا فنصل بذلك حاضراً بماضينا ونصور بذلك حياتنا وحياة قومنا ووطننا وكل ما توحى به هذه الحياة للعقل والقلب والحس والشعور مما لا تستطيع حياة أخرى أن تلهم أو توحى .

وعدت من باريس الى مصر في سنة ١٩١١ بعد ستة وعشرين شهراً أقمتها بها وجست أثناءها خلال أوروبا . وعدت عن طريق سويسرا وإيطاليا وركبت البحر من برندزى الى بورسعيد وكانت هذه أول مرة رأيت ذلك المرفأ المصرى . وما أزال حتى اليوم أذكر ما أثارته مقارنتى بينه وبين مدن أوروبا من رغبة عنه وحرص على مغادرته . فلما ركبت انقطار الى قريتنا ونزلت منه فى محطتها وامتطيت الجواد نحو نصف الساعة بينها وبين منزلنا وسرت على

هذه الطرق وبين هذه المزارع التي شهدت طفولتي وأستمع بها صباى نسيت أوربا وريفها وأهلها وكل ما فيها وشعرت بقلبي يتفتح ونفسي تنتشر في أرجائها السعادة ووجودى يكاد يظفر من فرط الطرب وأحسست كأنى عدت أختلط بكل فرع بل بكل ورقة من هذه الأشجار وبكل قطرة من هذا الماء المتقلب في التربة وبكل ذرة من هذا الهواء، هواء قرينتنا الصغيرة الجميلة. فلما انتهيت الى بيتي وأهلى لم استطع أن أحبس احساسى فتركته يظفر فرطاً سعيداً وشعرت بما فى ذلك كله من وحي صادق لمن أراد الكتابه عنه.

وفى سنة ١٩٣٢، أى بعد أكثر من عشرين سنة من ذلك التاريخ، وكنت اتقل فى ربوع الشام، اذ مررت بعمرة النعمان ولم أقف عندها. مع ذلك نمثل لى فى هذه الساعة هذا الشيخ أبو العلاء وارسم أمامى تمثاله وفصلت أمام بصيرتى آدابه وحكمته وفلسفته والفيت قطعة من شبابى ترسم أمامى بقوة ووضوح وشعرت كأن هذا البلد الذى لم أر من قبل قط يحتوى شيئاً من حياتى. إذ ذاك سألت نفسى: إذا كان هذا شأنى ولم أدرس أبا العلاء دراسة بحث محص ولم أقرأ عنه قراءة متصلة غير كتاب صديقى الدكتور طه حسين: ذكرى أبى العلاء، فإذا تكون الحال بالنسبة لمن يدرسون تاريخ أسلافنا المتصلين جميعاً فى سائر البلاد التى تتكلم العربية دراسة تصل بين نفوسهم وهؤلاء الأسلاف وعصرهم وحضارتهم. الا يكون ذلك مصدر إلهام لهم اصديق الالهام ووحى فى التاريخ والأدب أسمى ما يكون الوحى. والالهام يكون لا ريب اسنى كلما كان أوثق اتصالاً بوطن الانسان وقومه. والأدب الذى يصدر عن هذا

الالهام يكون لذلك أروع وأقوى إذ يكون أدبا قومياً صادقا .
وكما يسمو وح الوطن بالكاتب في الادب القومى فان هذا
الادب يخلع على الوطن فى نفوس أهله جميعاً جلالاً وبهاء يزيدانهم له
حباً وبه إيماناً وتقديساً وإياه اعزازاً . ولقد كان للادب القومى وللفن
انقومى فى كل الامم أعماق الاثر من هذه الناحية . وضعف أدب
مصر وفنها القومى له الاثر المقابل لذلك من هذه الناحية أيضاً .

ولأدلك على ذلك اذ كر انى زرت روما غير مرة . وكنت
ككل مقيم بروما أو زائر إياها أتخطى نهر التبر مراراً . وفيما
أتخطاه يوماً ذكرت أبياتاً من الشعر الانكليزى حفظناها حين
كننا بالمدارس الثانوية فيها قصة لبطل لم يحضرنى اسمه كما لم
يحضرنى اسم الشاعر صاحب القصيدة . ولست أذكر أكان هذا
البطل قد أحيط به فاضطر ليلقى بنفسه فى النهر أو أنه أراد مهاجمة

خصوم لروما فى الجانب الثانى من التبر فرمى فيه بنفسه ليعبره
ساجحاً . ولم يعنى من أمر القصة كلها شيء . ولم أجد ذا كراتى
لاستظهار شيء منها . وإنما عنتنى الابيات التى قالها البطل ساعة
ألقي بنفسه فى الماء . وعنتنى فيها نعمة المتعبد المقدس إذ يقول :

« ايها التبر : يا أبانا التبر ومن يسبح الرومان بحمده . اليك حياة
رومانى وعدة حربه خذها اليوم فى رعايتك » . ذكرت هذه الابيات
وألقيت على النهر نظرة طويلة وجاهدت كي أجده فيه ما يبعث لى نفسى
مثل القديسة التى كانت وما تزال تلك الابيات التى حفظت صنيحاً
مبعثها عندى . وأعترف أنى لم أصار من جهادى الى شيء : لا أنى

لم احاول اجهاد ذاكراتي لاستظهر ما عرفت من تاريخ الرومان ولأجد فيه هذه القداسة التي شاد البطل الروماني بها على لسان الشاعر الانكليزي . لكنى مع ذلك ما أزال أرى في هذه الايات نفسها قداسة تجذبني الى ناحية التبر وتدعوني لأستشف من مجراه ومن تاريخه ما أوحى للمئين من الشعراء والكتاب بالقصائد والصحف الخالدة .

وليس نهر السين في اختراقه باريس أكثر بهاء من التبر في اختراقه روما . لكنى إذ أقرأ ما يكتبه شعراء فرنسا وأدباؤها عنه أشعر في عمق نفسى بما يجعلنى أشارك هؤلاء الشعراء في محبة نهر باريس واجلاله . ذلك أنى عشت الى جوانب السين سنوات وعرفت من مجراه وتاريخه وكان لى فوق لجته ما يجعل له في حياتى أثراً يدعونى للاشتراك في شعور الشعراء والكتاب والمصورين نحوه والى التلذذ الصحيح المتجدد بكل ما أقرؤه عنه من شعرونثر ، وبكل ما تقع عليه عيني من صور لا ماكن فيه ، وبخاصة اذا كنت قد قرأت عنها شيئاً يجعلها في حكم ماعرفته بنفسى

وشهدت في سويسرا جمالا وروعة جعلانى أقرأ ما كتب عنهما لأزداد لهما تذوقا وبهما سرورا . وأشهد لقد كنت ، كلما تزايد ما قرأت ، أشد لجمال سويسرا وروعيتها حبا . وليس فى شىء من هذا كله أى عجب . فكلنا أكثر بالجمال فى مختلف صورهِ استمتاعا كلما كان معنا رفيق يشاركنا المتاع . والمتاع يزداد كلما كان الشريك أكثر للجمال قدراً وبدقائه معرفة . فانت فى صحبة شاعر أكثر استجلاء لما فى منظر من مناظر الطبيعة أوفى حادث من

الحوادث من شعر . وأنت في صحبة موسيقار ترى بعينيك أنغاماً
يشيرها في الجو جمال الصور . وأنت في صحبة مصور تحس بما في
الشعر وما في الانغام من صور رائعة واضحة الحدود . ممالك اذا
كان ماتقرؤه في قصيدة من انقصائد أو كتاب من الكتب عن
نهر التبر أو السين أو عن منظر من مناظر سويسرا الساحرة يجتمع
فيه الشعر والموسيقى والتصوير وتلتقى فيه الفنون الجميلة كلها . أنت
إذن تود لو تعود الى هذا المنظر . وأنت إذا عدت اليه لاشك
واجد فيه حديثاً أشهى وأعذب من حديثه اليك قبل أن تقرأ عنه
ماقرأت ، وتسمع من تاريخه ومن روعة جماله ما سمعت .

وعدت الى مصر من روما في العشرة الاخيرة من أغسطس
سنة ١٩٢٩ وأتيح لي يومئذ أن أشهد في هذا منظرًا لم يتح لي المتاع به منذ
سنوات . ذلك منظر النيل في فيضانه . واتيح لي أن أشهد هذا
المنظر في أروع صوره وأكثرها مهابة وجلالا . فلم يبلغ فيضان
النيل من العظمة والرهة منذ عشرات من السنين ما بلغه ذلك العام .
وما كادت عيني تقع على النهر حتى تحركت في نفسي كل عواطف
الاكبار والتقديس وحتى ذكرت من مناظر النهر التي شهدتها
بالاقصر واسوان والسودان ما زادني بحمائه وجلاله وروعته شعوراً
وما وصل بهذا الشعور بين نفسي ونفوس أجدادنا الفراعنة الاقدمين
الذين كانوا يرون في « البحر الاعظم » معبودهم الذي أتاح لهم
الحياة وأمتعهم معها بكل ما فيها من خير وبركة . ولذلك جعلت كلما
سنحت لي الفرصة اذهب الى شواطئه أملاً ناظري وقلبي وجوانحي
إعجاباً به وتقديساً إياه ودعاء أن يكتبني من فيضانه بما يغمر البلاد

من خصب ونعمة دون أن يحل بها غضبه فتكون وأهلها من
المفرقين .

وأفضيت يوماً بنحو الج نفسي الى صديق من الذين زاروا أوروبا
وتنقلوا في مختلف نواحيها وتذوقوا جمالها في تبين صورته واختلاف
أوضاعه ، وذكرت له عميق شعورى بجلال النيل عمقا لم أشعر به
حتى حين الشباب وتحفز العواطف لاستجلاء الجمال وروعته أثناء
بدائع سويسرا فوق موج بحيرات الهادي وبين شوامخ جبالها
الساحرة السفوح والقمم المغطاة بالنبات والشجر والثلج غطاء
يزيد في روعه جلالها بما يجعلها دائماً التغير والتحول كلما تغير الجو
ومتوجت السحب . وتبسم صاحبي ضاحكا من قولي معتقداً اني
امزح ، ثم كرر هذه الانشودة التي نسمعها دائماً وقد نكررها
احياناً : وماذا في مصر من جمال وماذا لطبيعتها من روعة وهي
ليست الا مسطوحاً من الارض يملك تشابهه الذي لا يعبس ولا
يبتسم ولا يقطب جبينه ولا يقهقه ضاحكا . وكيف تقرن هذا
الوادي المحصور بين الصحارى الجذباء المحرقة الى سويسرا جنة
الله على الارض ، أو الى ايطاليا مهد الفن والجمال ، أو الى اية بلد
يكفيه دلالة على جماله ان ألهم الشعراء والكتّاب ورجال الفن في حين
لم تلهم مصر احداً اذ ليس في تشابهها ما يلهم شعرا أو يقيم فنا .
ليس صاحبي ، مع شيء كثير من الاسف ، هو - ده الذي يفكر
هذا التفكير أو ينظر الى بلاده هاته النظرة الخاطئة المملوءة غروراً
وعقوقاً ، بل ان الاكثرين من رجالنا وشبابنا المتعلم ليزهون
باعتجابهم بما رأوا وما لم يروا من بدائع الجمال في أوربا زهوهم بما

تبعته مناظر بلادهم الى نفوسهم من ملال . ثم أن كثيرين ممن لم تتح لهم اسفارهم وقراءاتهم المفخرة بهذا الزهو لبعدثونك في أبلغ الاعجاب بجمال صحراء العرب وما انجبت هذه الصحراء من حب وحماس وكرم تجلى في الشعر العربي القديم وليزهون بهذا زهوهم باملال بلادهم إياهم . وهؤلاء وأولئك هم الطائفة التي تسمى جماعة المتعلمين في مصر . وقد يكون هؤلاء وأولئك من العذر أنهم ليسوا شعراء ولا كتابا ولا رجال فن . وأن أحداً لم يحرك في نفوسهم صور الجمال الظاهرة والكيانة في نهرهم وواديهم وفي صحارى بلادهم ووحاتها المنقطعة النظير كلها في بهر روعتها وسحر جمالها وقداستها جلالها . لكن العجب هم أولئك الذين نسميهم شعراء مصر وكتابها ورجال الفن فيها . هؤلاء كذلك يشعرون أكثرهم إزاء ما في بلادهم من جمال يمثل شعور هؤلاء الذين يسمونهم جماعة المتعلمين في مصر . فقل منهم من تهتز عاطفته لمشهد هذا الجمال الى حد يره شاعريته أو خياله أو فنه اهتزازاً يخرج من نفوسهم صيحات صادقة كلها تأليه هذا الجمال وعبادته وتقديسه، ويستثير من أوتار شاعريتهم أو خيالهم هذه الاناشيد التي تدفع بالنارس ليلتي بنفسه في غمار التبر متغنياً ! « أيها التبر، يا أبانا التبر، يا من يسبح الرومان بحمده، اليك حياة روماني وعدة حربته خذها اليوم في رعايتك » . بل إن أحدهم ليحس أحياناً بأن واجباً عليه أن يتحدث عن بلاده وعن تاريخها وعن جمالها ، فإذا قرأت حديثه وجدت فيه من جمال العبارة ما يجذبك ولكنك وجدتته خلواً من الشعور الصادق والاحساس العميق . وكل شعر وكل أدب وكل فن ليس صادراً عن شعور صادق وإحساس عميق لا حياة فيه ولا بقاء له .

وسر هذا الجمود في تقدير جمال بلادنا ضعف الايمان في نفوس شعرائنا وأدبائنا وكتابنا وذوى الفن فينا بالجمال . وسبب ذلك أنهم يستمدون شعورهم بالجمال من الكتب لا من الحياة . فالجميل هو ما تغنى به غيرهم على أنه جميل . أما ما لم يقفوا على أن الغير تغنى به فلا يمكن أن يكون جميلاً . وما دامت قرون قد انقضت بيننا وبين أجدادنا الذين كانوا يحبون جمال بلادهم و يقيمون لهذا الجمال أعياده ويقدمون له فيها قرايبه ، وما دامت الكتب التى فيها تلك الاغنيات قد أصبحت فى غير متناول الا كثيرين منا وأصبحت قراءتها لا تلهى فبحسبنا أن نقرأ ماتعودنا قراءته تلاميذ عن جمال صحراء العرب وأن ننتقل بعد ذلك لقراءة ماتعودنا قراءته طلابا عن جمال أوربا وروعة تاريخها . فأما ما بين ذلك فليس أمره ميسوراً ، وليست قراءته مستحبة . ومصر وجمالها تقع كلها فيما بين ذلك من فترة . وإذن فمصر لا جمال فيها وهى بلاد مسطوحة متشابهة كل ما فيها مملول وليس فيها ما يشبع النفس أو يلهمها آيات الفن والأدب .

ولعلك إن سألت الشعراء والكتاب فى سربقائهم على التقليد وحبسهم ونوسهم على ما سبقهم اليه غيرهم رأيتهم يجيبونك بأن لا جديد تحت الشمس ، وكل ما تحت الشمس قد دون وحوته المكاتب ، وانهم لهذا يكتفونهم أن يقلدوا سابقيهم وأن ينقلوا عن ماضيهم من أهل البلاد الأخرى . هم فى ذلك متورطون فى أخفش الخطأ . وأى خطأ أخفش من ايمانهم بأن لا جديد تحت الشمس ! . بلى ! ان كل ما تحت الشمس جديد لانه دائم التجدد . والشمس نفسها

تتجدد مطلع كل نهار ومغيبه . وكل انسان منا جديد ، وهو كل يوم متجدد . وكلما ازداد بما حوله من صور الحياة امتزاجا ازداد بهذا الامتزاج حياة وازداد بذلك تجددا . واذا كان حسناً وواجباً أن يمتزج الانسان بالماضي وأن يد هذا الماضي طي الكتب فأحسن منه أن يمتزج بالحاضر في كل مظاهر هذا الحاضر ليجمع بين الماضي والحاضر كاملين ولا يجدد بذلك للمستقبل صورياً أقوى مافيهما من المظاهر الجديدة شخصيته هو الدائمة التجدد . وأنت أكثر ما تكون قوة على الامتزاج بالحاضر وبالماضي وعلى التجديد فيهما تجديداً تبرز فيه شخصيتك قوية ظاهرة اذا كان هذا الماضي هو ماضى بلادك ، وكان هذا الحاضر هو حاضر بلادك ، فإذا بلادك نفسها بما فيها من حياة وجدة وجمال . فإذا استطعت بعد ذلك أن تتصل بغير بلادك لتتمثل مافيهما من جمال وتجليه على غيرك ، أو استطعت أن تكون أوسع مدى فاختلطت نفسك بنفس الانسانية كلها وترنمت عن ايمان صادق بأناشيد الخلد في وحدة الوجود ، فقد بلغت الذروة من مراتب الالهام . لكذلك على كل حال لن تجد في قصرك نفسك على الكتب إلهاماً صحيحاً ولا وحياً صادقا . إنما الالهام الصحيح والوحى الصادق في اختلاطك بالحياة وامتزاجك بمظاهرها واجتلائك مافيهما من جمال هو الاساس الاول لكل ايمان صحيح .

وكيف لانسان بالغة ما بلغت قدرته أن يعبر عن جمال لم يصل اليه عن طريق حسه هو ، وإنما وصل اليه من طريق حس غيره ! كيف له أن يعبر عن جمال لم يجنله ولم يحسه وإنما هو يذكره لأن

غيره ذكره ويحس به لأن غيره أحس به . إن العواطف لتختلف مظاهرها ، وإن اتفقت في النفس مصادرها ، باختلاف الوسط الذي تبدو فيه . وعاطفة الحب نفسها تتجلى عند أهل الصحراء على صورة غير التي تتجلى بها عند أهل الشمال . ولذلك تختلف أناشيد الحب من بلد إلى بلد ومن عصر إلى عصر . مابالك بالصور التي يقع عليها الحس ويتأثر بها في صور تختلف باختلاف الأشخاص أنفسهم ، لأن الأشخاص يختلفون في قوة كل حاسة من حواسهم وحس من إحساسهم وعاطفة من عواطفهم .

كنت ألتفت يوماً مجموعة من الشعر الفرنسي نشرت في مجلة الحوليات Les Années في ملحق لها وجعلت عنوانها إلى جانب المدفأ Au coin du Feu وقدمت لها مقدمة صغيرة أشارت فيها إلى ما يشير المدفأ في نفس أكثر الشعراء بل كلهم من الخواطر وما يجيش في نفوسهم من العواطف . وفي هذه المجموعة كثير من الغراميات الرقيقة يذكر فيها الشاعر كيف جاءت إليه صاحبة في هدأة الغرفة التي يقيم فيها ، أو كيف ذهب هو إليها في غرفتها ، وكيف جلسا على مقربة من النار يصطليان بينما تهطل الثلوج وتكسو الطبيعة المحيطة بهما بثوبها الناصع البياض ، وكيف تبادلا حلوى الغرام وتناجيا أغاريداً ، وكيف تاهت عليه صاحبة ودلت ثم زادت تيهاً ودلاً بينما زاد هو استعطافاً وضراعة ، وكيف جئنا عند قدميها راجياً آملاً ، ثم كيف تركته بعد ذلك تاركة وراءها جيشاً من الأحلام والمني العذبة اللاذعة ، أو كيف جعلنا يقرآن ويتحدثان ثم إذا القراءة وإذا الحديث يقربان بين قلوبهما حتى يمزجها مزجاً ، وما

الى ذلك من صور حلوة يزيد لها حلاوة أنها تعبر عن احساس صادق
 وشعور فياض ، وهى مع ذلك وفى تعبيرها القوى هذا بسيطة كل
 البساطة فى نفسها وفى روايتها ، لا تكلف فيها ولا مبالغة ولا اغراب .
 وذ كرت حين قراءة فى هذه المجموعة من الشعر الفرنسى
 التى ألهمها جوار المدفأ ما كان لهذا الجوار من أثر فى الفن وفى الادب
 عند أهل أمم الشمال كافة . وليس أحد يعرف الادب الانجليزى
 شعراً ونثراً الا يذكر جوار المدفأ The Fireside وما ألهم
 الكتاب والشعراء . بل أن لجوار المدفأ لأثراً عملياً فى حياة هذه
 الامم الشمالية كلها ، وهو لاشك له مثل هذا الاثر فى الامم
 الجنوبية حيث تسقط الثلوج كما تسقط فى الشمال وحيث يضطر
 الناس للاحتماء بالجدران ويدفعون غائلة البرد بالاصطلاء كما يفعل
 أهل الشمال سواء . وأنت إذ تقرأ شيئاً عن حياة أهل هذه
 البلاد ترى هذا الاثر واضحاً ظاهراً فى عيشهم وفى توزيع ثروتهم
 وفى ألوان طعامهم ولباسهم وفى صور سرورهم وملذاتهم . قالى
 جوار المدفأ تجلس الجدة العجوزة تقص على أطفالها قصص الماضى
 وخرافاته وأساطيره . والى جوار المدفأ تجلس الاسرة تتناول
 طعامها فى النهار وفى الليل . والى جوار المدفأ يجلس الرجال يقرءون
 والنساء يطرزن والاطفال من حول أمهاتهم وآبائهم فى شغل
 بلعبهم وما أعد لتسليةهم . وبجوار المدفأ يقرض الشاعر قصائده
 ويكتب الكاتب رواياته ويذهب النقصاص والحكيم والفيلسوف
 فى خيالاته وتأملاته ومنطقه وتفكيره . فلا عجب ، وذلك أثر المدفأ
 فى حياة تلك الامم ، أن يكون المدفأ وما يانع فيه من بصيص

النيران وما يرسل من ضياء لا يضيء ، لا عجب أن يكون مصدر وحى
والهام للشاعر والكاتب والمفكر والفيلسوف وأن يكون بعيد
الاثـر فى الفن والتفكير عند الذين يقضون حظاً عظيماً من وقتهم
فى جواره .

وليس جوار المدفأ إلا بعض مظاهر الحياة التى تلهم الشعراء
شعرهم فى بلاد الشمال . لكن الثلوج وقر الشتاء وبداية الربيع
وتفتح الازهار وكل ما فى الطبيعة المحيطة بهم يلهمهم هو
الآخر . وهو يلهمهم بذاته عن طريق إتصالهم به . وليس
إلهامه إياهم مقصوراً على ما يقرأون عنه فى الكتب التى سبقهم بها
غيرهم ، بل لها نحن أولاً تحيط بنا طبيعة ساحرة ومع ذلك لا يظهر
لها فى شعر شرائنا ولا فى كتابات أدبائنا من الاثر إلا قليل . ولذلك
تظل هذه الطبيعة لا يعرف جمالها أحد ، لأن الذين ألفت الطبيعة
عليهم رسالة الكشف عن الجمال لا يرونه فيها . بل نرى شعراءنا
وكتابنا وذوى الفن منا لا يتصلون ، كما قدمنا ، بالحياة إلا عن
نار فى غيرهم ، ينظرون بعينه ويسمعون بأذنه ويحسون بحسه . وهم
فى هذا ينسون أنهم القيثارة التى تنقل الى آذان البشر أنغام الجمال
مائلة فى مختلف مظاهر الطبيعة ، ويقصرون همهم على محاكاة أنغام
سبقهم غيرهم اليها وبذم فيها وقضى على كل أمل فى أن تكون لهم
شخصية قائمة بذاتها حين يشدون هم بها ويحاولون تجديدها . وهم
لا يكادون يجدون شيئاً لم يسبقوا به فيما قيل من شعر ونثر فى وصف
مصر والتغنى بسحر جمالها ، فهم لذلك لا يكادون يذكرون شيئاً
من أمرها . فان هم ذكروا منه شيئاً لم يزد على بريق حسن بدا لهم فلم

يقفوا عنده ولم يحاولوا الامتزاج به واكتفوا بأن سجلوه في فراره، كأنما ليس له في حياة مصر قرار . ولو أن ربة الشعر والفن والكتابة كانت تلهمهم لآمنوا بأن الثمن ليس هو اثبات هذا البريق الفرار ، وإنما هو الوقوف عند الجمال والاعجاب به وأخذه الى مجامع النفس في مختلف صوره والعود اليه مرة ثم مرة ثم مرة والوصول بالنفس الى حدود القناء فيه حتى تمتليء به وتجمع اليه ما تعيه الذاكرة مما سطر الآخرون عنه ، ثم اذا هذا الجمال يفيض عن ذى الفن، واذا القصيدة أو القطعة من الأدب أو القصة أو اللوحة أو التمثال قد خلعت على هذا الجمال الذى تمثلته نفس إنسانية ممتازة روحاً إنسانية تتخالط النفوس كلها فتشعر في أعماقها بمثل ما شعر به رجل الفن . وتحس في الاشياء بجمال ما كان لها أن تحس به لو لم يكشف هذا الرجل عنه ولو لم يملقه في الحياة خلقاً يجبل للانسان على الارض من المجد مثل مجد الله في العلا .

ولنعد الى النيل ، الى هذا « البحر الاعظم » الذى كان أنشودة العالم منذ القدم . الى النهر الذى تأله على الدهر وجل في كل العصور وتقديس عند كل الاديان . ألم يكن رباً من أرباب انفرانة يرمزون له بأبيس إله الخير والبركة ؟ ألم يذكر المسلمون أن منبعه الجنة وأنه فيها ينبع من أنهار العسل ؟ ما أشك لحظة في أن الشاعر أو الكاتب أو المصور يجد في هذا النهر اذا هو امتزجت به نفسه واختلط بدنه إجلاله وحبه ، وحيّاً لا ينضب وإلهاماً يكفيه مدى حياته ، بل يكفى شعراء وكتاباً وأرباب فن على تعاقب الاجيال جيئاً . إن في تبدل مياهه وتغير مجراه في كل فصل من فصول السنة . وفي إرتفاعه

بالفيضان جباراً رحيماً : يغرق ويسقى ويطنى ويخصب ، وفي خضوعه
للسابحات من الفلك فوق ظهره تجرى بالتجارة حيناً وبالمسرة واللهم
حيناً ، وفي هؤلاء الذين يتغنون في سكينه مطمئنة حين هو يحملهم
في أناة ومن غير عجلة الى حيث يريدون ، وفي تعاريجه وشلالاته
وسدوده وفي انبعاثه من هناك هناك عند خط الاستواء ماراً
بأقوام يتغير لونهم كلما تقدم هو الى مصبه ، وفي شواطئه المخصبة
بطميه الدائمة شكر النعمة ، وفي شرايين الحياة الممتدة بمصر ترعا
وقنوات والمتصلة كلها به على أنه القلب الكبير الذي يمد بالحياة كل
ما حوله ، وفي ألف مظهر غير هذه من سلطانه وقوته الدائمى
التجدد والجمال ، في هذا كله من الشعر ما تقصر عنه ألوف القصائد
والكتب والصور وما لا يكون تاريخ مصر من أبعد عهودها
الى يوم أزلها إلا بهضه ، لأن مصر وتاريخها ليسا الا بعض هدايا
النيل واعطيته .

وإن نسيت فلن أنسى لهذا النهر الاله كل ماملاً به نفسى من نقديس
وإجلال في كل مرة صحبته فيها ، ولن أنسى منظره الذى أشرت اليه حين
عج فيضانه في صيف سنة ١٩٢٩ وحين أخذنى اليه أخذاً إثر
عودتى من أوروبا بعد مشاهدتى انتمس والسين والتبر في مختلف
عواصمها في الساعات الثلاث التى قضيت ما بين الإسكندرية والقاهرة
وبعد أن تحطينا النهر عند كفر الزيات وامتألت نفسى بروعة جلالة .
يومئذ تحركت في نفسى الفلاح القديم الذى ورث عن آبائه وأجداده حب
هذا الثرى المقدس واجلال هذا النهر المبارك والاعجاب الى غاية
حدود الاعجاب بجمال ما ينبت من زروع ملأى بحياة كلها البهجة

والنضرة . نعم ! تحرك هذا الفلاح في نفسي ، فصرت لا أبصر الا بعينه ولا أسمع الا بأذنه ولا أحس الا بقلبه ولا أشعر الا بشعوره ، فسكنت خلال هذه الساعات الثلاث مأخوذاً بمنظر الوطن المحبوب وجمالها الساحر أكثر مما يأخذني أى مظهر من مظاهر الجمال . وكان تقديسى على أشده لمشهد مياه النيل في فيضانه تتقلب موجاتها الحمراء بعضها فوق بعض في الترع وفي النهر العظيم . يا لها ذات جمال لا يعد له جمال وروعة تسجد أمام جلالها كل روعة ! انى لأشعر ان هذا الماء المملوء حياة وخصباً يجرى في حنايا نفسي ويجرى في عروقي مع دمي أكثر مما يجري في النهر وفي الترع المتفرعة منه . وإني ما زال لذلك أراه أمام نظري وأنا أكتب في غرفتي أمام كتي ومكتبي . نعم ! ها هو يهوى موج حلواً جذاباً ساحراً بلونه الطامى وموجه المتدافع في طمانينة بين جروف الترع المخضرة بالحشائش تتخللها الشجيرات والاشجار ، وتنفسح من ورائها المزارع الخضراء المترامية الى حدود الأفق يكسوها الذرة والقطن وتقوم فوقها هنا وهناك المنازل الترابية اللوز تأوى اليها اليد العاملة التى تنبت من هذا الماء ومن هذا التراب كل هذه النعم التى يجود الله بها على أهل مصر . وها هو يهوى موج فى عظمة وجلال وقوة تدافع فى مجرى النهر الذى اتخذ منه أجدادنا الفراعنة الهاة يعبدونه ، والذى جعل من مصر جنة فيحاء بدل أن يذرها تندمج فيما يحيط بها من صحروات جرداء . أين أنت يا أنهار أوروبا وأنهار العالم كله من نيلنا السعيد المبارك الغدوات الميمون الروحات ؛ ومع ذلك يقدر سكان روما التبر وسكان باريس السين وسكان برلين الاسبرى وسكان لندره

التمس ! ما أكبر ما لأجدادنا من عذر عن عبادتهم إياك واعتبارهم جنة
النعيم منابلك الالهية .

أى منظر من مناظر بحيرة ليمان وسجرتها البديع يعدل منظر
نهرنا فى سحره وبهره ؟ وأى جبال فى سويسرا أو غير سويسرا
تعديل هذه المستويات الذاهية إلى الأفق تكسوها ذروع مصر
واشجارها وكلها النماء والقوة والحياة المتدافعة !! أنظر الى مزرعة
الذرة ماتزال فى اول صباحها ذاهية خضرة اوراقها غضة سيقانها
تلتف حولها عقلها وكأنها قصبات الناي يثير منظرها فى أذنك ألحانا
لا تدرى أهى عيدان الذرة ترتلها أم هى اصوات الموسيقى المصرية
الحنون تموج على أوتار فوداك لتككل فى نفسك جمال هذا المنظر
المصرى الفذ الجمال . ثم انظر الى اشجار القطن مناط آمال اهلنا
الذين تراهم سمر الوجوه سود العيون حادى النظرات تلمع عيونهم
ذكاء وتحدث نظراتهم عما جبلوا عليه من جد ومثابرة . وسط
هذا الوطن الذى نشأت فيه والذى نسيت معه كل ما رأيت مما
سواه ذكرت أننى أستطيع أن أجوب أقطار الارض ماشئت ،
وأشهد من صور الجمال فى مختلف مظاهر الفن ماحلالى أن اشهد ،
وأن أسمع من موسيقى الغرب كل ما يلذ ويغرب ، وأن أقرأ من
أدب العرب وأدب الافرنج كل ما يتسع وقتى لقراءته . أستطيع
أن أصنع هذا واكثر منه من مثله ثم أبقي بعد ذلك وفوق ذلك مصريا
وأبقى أكثر من مصرى ، أبني فلاحاً قحاً صميماً ، أقدم كل ما فى
مصر ومزارعها من جمال ، وأقدس النيل الذى حبا مصر الحياة
وحباها الجمال .

لو أن رهطاً من الشعراء والكتاب وأرباب الفن استلهموا هذا النيل ودونوا وحيه ، لرأيت صاحبي الذي هز كتفيه حين ذكرت له إعجابي بالنيل وجماله أشد بنيل بلاده إعجاباً منه بجمال سويسرا أو أية بقعة ساحرة من بقاع العالم . نعم ! فالنفس يسكب الجمال حتى في النفوس الجامدة أمام الجمال . وهو بما يصنع من هذا يدفع الناس إلى العمل للزيادة تجميلها وإلى معاونة الطبيعة لاستظهار زينتها وهرجتها . وما أشك في أن سويسرا مدينة بكثير من رواء جمالها لعمل الإنسان بعد أن دله اثنين وأربابه على مبلغ ما جملت الطبيعة به هذه البلاد . ولو أن اثنين كشف للمصريين عن جمال بلادهم لعملوا كل ما في وسعهم لزيادة جمالها جلالاً وروعة ، ولرأينا هؤلاء الذين لا يعرفون كيف يستشفون جمال الطبيعة في جلال سهولته وقد رأوه باهراً بارعاً من خلال ما عمل الإنسان لاستظهاره فآمنوا به إيمانهم بجمال سويسرا ، ولقدسوه تقديس ذلك البطل لنهر التبر ، بل لكان تقديسهم وإيمانهم أقوى وأعرق لأنه تقديس جمال متصل بنفوسهم جار مجرى الدم في عروقهم .

ولست طبيعة مصر وليس نيلها وواديها هي وحدها ذات السحر والفتنة ، بل إن تاريخها القديم والحديث ليحتوى من ذلك أكثر مما يحتوى أى تاريخ غيره كما سنبين في الفصل التالى . وهذا التاريخ وذاك الوادى ونهره كلها جديرة بأن تكون مصدرالوحي لأدب قومى يصور مصر فى ماضيها وحاضرها صورة صادقة قوية تنطبع فى نفس أبنائها وفى نفس الأجانب عنها ممن يقرأون هذا

الأدب فيعرفون مصر كما هي حقاً ، لا مصر التي شهت شر تشويه
بالدعاية الفاسدة لغايات سياسية وغير سياسية . ويومئذ تنتقل النفس
المصرية خطوة واسعة في سبيل الاعتزاز بنفسها وبوطنها ، وتنتقل كذلك
خطوة واسعة في سبيل تمثل الجمال والخير والحق ، وتسمو بذلك
الى المكان الانساني الصحيح الذي ألتني على عاتق الأدب في مختلف
العصور أن يمهّد له فيعد الانسانية عن طريقه لبلوغ الكمال .

التاريخ والأدب القومي

بين مصر الحديثة ومصر القديمة إتصال نفسى وثيق ينسأه كثيرون يحسبون أن ما طرأ على مصر منذ عصور الفراعنة من تطورات فى نظم الحكم وفى العقائد الدينية وفى اللغة وفى غير ذلك من مقومات حياة الامم قد فصل بين هذه الامة الحاضرة وبين الامة المصرية القديمة فصلا حاسما جعلنا الى العرب أو الى الرومان أقرب منا الى أولئك الذين عمروا وادى النيل فى ألوف السنين التى سبقت المسيحية . وهم يعلمون ما يحسبونه من ذلك بدظم هذه التطورات . فكيف ترى المصريين الذين يتكلمون العربية المصرية اليوم، والذين يتصورون الأشياء على ما تريد لهم لغة العرب أن يتصوروها . تتصل حياتهم النفسية فيما يتعلق بالتصوير والخيال بحياة الذين كانوا يتكلمون الهيروغليفية بما كانت تحمله الفاظها وعباراتها المتوارثة الى اقلوب والعقول من صور . وكيف ترى المصريين الذين يدين أكثرهم بالاسلام وأقلهم بالمسيحية والذين تكونت عقائدهم على ما فى كتب الاسلام والنصرانية المقدسة — وبين هذه الكتب المقدسة صلة كل الصلة — كيف تراهم يعتقدون ما كان يعتقده عباد آمون ورع وآلهة مصر القديمة المتعدين؟! بل كيف تراهم

ترتبط عقائدهم بتلك العقائد القديمة أى ارتباط ؟ ثم كيف ترى المصريين الذين خضعوا لنظم الرومان . ثم لنظم المسلمين . ثم للنظم الديموقراطية الحاضرة فى صور الحكم ، يفهمون من الحكم ما كان يفهمه أولئك الذين خضعوا فى سكرينة واستسلام لبناء الاهرام والكرنك وهذه المعابد الضخمة العظيمة الخالد على التاريخ مجدها ، والتي ما كانت مع ذلك لتشاد لولا استسلام الشعب لألوان الاستبداد التى فرضت عليه؟! أو ليس انقول ، وهذه هى الحال : بوجود الصلة النفسية بين مصر الحديثة ومصر القديمة أقرب الى الخيال منه الى الحقيقة التاريخية ؟.. ولئن أرضى هذا الخيال فكرة قومية تريد أن تصل مجد مصر الحاضر بمجدها القديم فهو لن يرضى الواقع الذى يجب الاعتراف به ، والذي يفصل بين المصريين القديمة والحديثة فصلا حاسما .

كذلك يقول الكثيرون . ولقولهم ظاهر من الحقيقة . لكنه لا يعدو هذا الظاهر من الحقيقة فى قول انقائل بانقطاع الاتصال النفسى بينك وبين اجدادك لأنك تعلمت غير تعليمهم وفهمت الحياة غير فهمهم إياها ، وخضعت لنظام من الحكم غير الذى خضعوا له ، وصرت تتكلم بلغات غير اللغة التى كانوا يتكلمون ، وتتنظر الى العقيدة بغير العين التى كانوا بها ينظرون . أنت فى الظاهر تختلف عن هؤلاء الاجداد جد الاختلاف . وقد يحسب من رأيهم ويراك أنك لست منهم وانهم ليسوا منك . لكن ذلك لا يزيد على أنه الظاهر . أما الحقيقة العميقة التى تشعر بها أنت ويثبتها العلم فهى أن بينك وبين أجدادك إتصالا وثيقا لا سبيل الى إنكاره ، وأن

جهله الناس ، وإن جهلته أنت . فهذا الدم الذى كان يجرى فى عروقهم يجرى فى عروقك ، وهذه الانفعالات النفسانية التى كانت تدفعهم فى حياتهم هى التى تدفعك فى حياتك . وأنت محكوم عليك طائلاً أو كارهاً أن تخضع للوراثة التى أورثوك إياها .

فاذا أنت دخلت يوماً الى نفسك تحاسبها على أعمالها، وإذا أنت امتحنت يوماً خلقك وحلات فطرتك وتعرفت سجيتك إذن لرأيت جوهر أجدادك قد إنتقل اليك . فاذا خضعت بحكم الحياة المحيطة بك لصورة غير صورتهم وظاهر غير ظاهرهم ، فسك الذهب عملة مختلفة الاشكال لا يميز من أنه ذهب وان المعدن الاصيل باق فيه بقاء معدن أجدادك فيك .

وبعد ، فهل تحسب هذه المظاهر التى يظنونها كافية لقطع الاتصال النفسانى بين مصر القديمة ومصر الحديثة من الجسامة بما يكفى لقطع هذه الصلة بل لضعافها ؟ أليست هذه الاديان التى تتابعت على مصر وهذه النظم التى خضعت لها ، وهذه اللغات التى تبدلت عليها ، هى الاديان والنظم واللغات التى تداولت على مصر وعلى البلاد المجاورة لها ؟ ! أليس الاسلام والنصرانية واليهودية هى الاديان التى يعرف كل واحد منها الدين الذى سبقه ويعترف به ؟ ! أليست جميعاً قد نزل الوحي بها فى مصر وفلسطين وبلاد العرب وكلها متجاورة أقرب انتجاور ؟ ! أليست اليهودية ، وهى أقدمها جميعاً ، تتصل بالفراغة وبمصر القديمة اتصالاً متيناً . والنصرانية تتصل باليهودية وتعترف بها . والاسلام يتصل بالنصرانية وباليهودية ويعترف بهما ! . . . ثم أليست لغات الفراغة والعرب

والشام تصور حياة هذه البلاد المتجاورة حياة متشابهة في التاريخ
 انقدم قرية الشبه في التاريخ الحديث ؟ ! وأما نظم الحكم فلا تميز من
 الحقائق التاريخية شيئاً لأن نظم الحكم تتأثر بالزمان الذي تكون فيه
 في مختلف أنحاء العالم فهي أضعف من أن تترك في نفسية الأمم أثراً عميقاً.
 فاذا ذكرت كذلك أن الوسط الطبيعي لم يتغير في وادي النيل
 منذ آلاف السنين وأن هذا الوسط الطبيعي هو الذي يصقل
 اللغات والقائد والانفس ، وان الذين أغاروا على مصر ثم
 استوطنوها أجيالاً نقدوا كل صفات اجناسهم القديمة وخضعوا
 لحكم الوسط الطبيعي وأصبحوا وكأنما أبائهم واجدادهم في مصر
 منذ عهد الفراعنة — اذا ذكرت هذا أيقنت إذن أن بين مصر
 الحديثة ومصر القديمة اتصالاً تنسياً وثيقاً، وان واجبا على المصريين
 أن يبحثوا عن مواضع هذا الاتصال، وان خير ميادين البحث العلمي
 هي الادب وكتبه والقائد وطقوس العبادة .

ولقد يدهشك أن تعلم أن كثيراً من طقوس العبادة في مصر
 هو اليوم كما كان منذ ستة آلاف سنة وكما كان من قبل التاريخ لم يتغير
 بتعاقب الأديان المختلفة على مصر . وأنت ترى أن كثيراً من
 الحفلات التي تمبردنية عند الاقباط وعند المسلمين كحفلات
 الزواج وحفلات الجنائز تشابه أشد الشبه وبخاصة في بلاد الارياض
 حيث الوراثة سليمة لم تصف بمظاهرها أعاصير الحضارة. هذا مع أن
 هذه الحفلات تختلف عند مسلمي مصر عنها عند مسلمي الدول الأخرى.
 كالغرب وتركيا وتختلف عند اقباط مصر عنها عند نصارى الدول الأخرى.
 فهل تستطيع ان تجد لذلك تفسيراً إلا ان هذه الحلات سابقة في

مصر على المسلمين وعلى الأقباط وعلى الاسلام وعلى المسيحية، وأنها ترجع الى تواريخ ربما كانت سابقة على كل ما كشفت عنه التواريخ . أشار بعضهم الى أن تلقين الميت عند مسلمى مصر عادة ليست شائعة عند أكثر المسلمين . وأشار الى أن عبارة هذا التلقين وما جاء فيها عن منكر ونكير وسؤالها وتحديد الاسئلة والتحدث الى الروح والنصح لها بالجواب على صورة معينة كل ذلك يعيد الى النفس صورة طقوس الدفن والحساب عند قدماء المصريين وما كانوا يتحدثون به الى الروح لتنجو . ولست واقفاً على تفاصيل هذه الطقوس القديمة لأؤكد ما يؤكدون من مشابهة بينها وبين التلقين . لكن هذه المسألة تدل على كل حال على أننا ورثنا حتى فى العبادة طقوساً تسلت اليها من الأزمان القديمة وأنا اقتبسنا من الدين الاسلامى ما أسبغناه على هذه الطقوس وصبغناها به . ومن يدرى اذا لم يكن عند اخواننا الاقباط مثل ما عندنا من ذلك أو أكثر منه . ومظاهر الحزن على الميت عند المصريين المسلمين تختلف اختلافاً عظيماً عنها عند أهل الأمم الأخرى وتتفق وهذه المظاهر عند سائر المصريين كما تتفق وما كان عليه الحال عند قدماء المصريين . فكما ترى النسوة من أهل الميت وخدمه وتابعاته قد انتقلن مع جنازته فى الازمان القديمة نادبات مولولات لاطات خدودهن مجللات بالسواد أيديهن اذا بك ترى مثل هذا تماماً عند المسلمين من المصريين وبخاصة فى الارياف التى ما تزال خاضعة لاحكام العادات القديمة . ولعلك إن بحثت عن سبب الافراط فى الحزن وعدم النظر الى انتهاء الحياة بشئ من السلى وجدته فيما كان يعتقده الاقدمون من بقاء

الروح أو بعبارة أدق الشخص الباقي (الكا) يرقب ماسيحل بالجسد من ألوان الألم ساعات الحساب . وكأنا تجسدت هذه الصورة أمام المصريين القدماء فكانوا يرون بعين تصورهم هذا العزيز الذاهب خاضعاً لآلهة الحساب وقسوتهم فيولولون ويندبون ويتألمون مع الميت عل في ذلك مايلين قلوب الآلهة ، كما يلين ألم النظارة والحاضرين قلب الحاكم الذى يحاسب رجلاً أمامه على سيئة اجترحها . وبرغم تداول الاديان بد ذلك بقيت هذه الفكرة أشد حياة في النفس المصرية فكانت لذلك أشد فزعا مما بعد الموت من سائر الأمم الاسلامية ، ولم ينهض من كتابها وأدبائها من تعشقوا الحياة ولذا نذها على نحو ما تعشقها عمر الخيام وغيره من المسلمين في انفرس وفي بلاد اسلامية أخرى .

بل لقد ترى من مظاهر وراثية المصريين اليوم لثراث أجدادهم الاقدمين ما هو أبلغ في الدلالة على متانة الصلة النفسية بينهما . ذكر غير واحد من المشتغلين بدراسة الطقوس المصرية القديمة ان ما يخلعه المسامون المصريون اليوم على بعض أوليائهم المحبوبين من مقدرة وسلطان وما يقومون به لهذا الولي من طقوس وفرائض في «مولده» هو بعينه ما كان يقوم به المصريون الاقدمون في هذه المنطقة لآله محلي من آلهتهم من طقوس وفرائض وما كانوا يخلعونه عليه من مقدرة وسلطان .

ولا أريد أن أقرن الى ذلك ما يوجد من شبه عظيم بين قصة موسى عليه السلام من حيث وضعه في التابوت والبقاء أمه به في اليم (١٠)

وانتقاط فرعون له ، وقصة أوزوريس وخيانته سخرت له بوضعه في تابوت والقائه في اليم وعثور إيزيس عليه عند جبل من أعمال الفينيقيين ، فقد لا يكون الشبه هنا دليلاً على أن القصة واحدة إختلفت عليها أيدي الرواة ، وقد تكون عادة الالتقاء في اليم بعض عادات ذلك العصر فأصابته أوزوريس اله المصريين القدماء الاعظم كما أصابت مرسى عليه السلام بعد ذلك على النحر المبين في الكتاب المقدسة .

لأسبيل إذ زانى انكار ذلك الاتصال النفس الوثيق الذي يربط تاريخ مصر منذ بدايته الى عصرنا الحاضر ، ولى آخر التصور المستقبلية التي يمكن أن يعرف التاريخ . ولئن تبدلت أسباب الدش ماتبدلات ، ولئن قربت سكك الحديد والبواخر والطائرات وكل ما يمكن أن يتمخض عنه خيال العلم من وسائل المواصلات بين اجزاء العالم ما قربت ، بل لئن تهدمت الحدود الدولية وفنيت البطاطة الوطنية ، فسيتبقى أبداً هذا الاتصال النفس الوثيق الذي يجعل من مصر وحدة تاريخية زلية خالدة ، فيما يصل اليه عقلنا من تصور الازل والخلد . بنا ورث أجداد هذا الوادى الاحفاد ماسكبته طبيعة الوادى في وجودهم من حياة نفسية إن تأثرت بتظاهر الدش وألوان التفكير وصور الحكم فستظل أبداً طبيعتهم التي لم تنير منذ خلق الانسان الى يومنا هذا . ولا شيء يدل على انها ستغير ما دام الانسان انسانا .

واذ كان الانسان أقوى سلطانا على الحياة وحكامها كما تمثل

ماضيه في شخصه وكلما تثلث الامة ترات آباءها وأجدادها جميعا بالغنا
 ما بدوا في غيب الماضي أي مبلغ ، فن حق المصريين ومن الواجب
 عليهم أن يستنبطوا دقائق أجدادهم جميعا وأن يربطوا بين حاضريهم
 وماضيهم ربطا ظاهرا لسكل عين . وانهم إذن ليضيفون الى قوتهم
 قوة وليضاعفون مجدهم أضعاضا وليزدادون لذلك بالحياة استمتاعا
 ولها ذوقا . ولقد رأينا نحن أبناء مصر اليوم من ذلك مالا يدع
 مجالا للشك فيه . فكنا صنف طربا لا اكتشاف آثار توت عنخ آمون ،
 وكلنا ملأ ماضيه نغرا بمدينة هذه الاسرة الثامنة عشرة الفرعونية
 على ما بيننا وبينها من آلاف السنين ، وكلنا حدثته نفسه : إذا كان
 أجدادنا قد تسنموا هذه الذروة السامية من ذرى المدنية فلم
 لا تسنمها نحن كما تسنموها . ولم يك منذاً هذا الطرب والفخر والامل
 مالهذه الآثار النفوسة من قيمة لها ومن قيمة على التاريخ وكفى ،
 بل كان منشؤه في غور النفس وأبد أعماقها . كان منشؤه اعتزاز
 النفس بذاتها واعتقادها القدرة على ملك الحياة بديأس من هذه
 المقدره . أرايت اى الفقير البائس اى لا يمتاز من آباءه بجاه ولا
 بمال كيف يجاهد الحياة وتجاهده ولا أمل له الا في الحظ الحسن
 وهو من غدر القدر ابدا على حذر . ثم أرايت الى الماتز بجاه بيته
 وماله كيف ينظر اى غدر القدر باسمه ودعوا ابدا يؤمن بأن له آخر
 الامر القلب . هذه العواطف هي التي ترك الامم بقوة مضاعفة
 ملايين المرات اكثر مما تحرك الافراد . وانك يحمد المستعمرون الذين
 يريدون أن تذلل لهم أمة الى أن يلقوا في روعها انها كانت على
 التاريخ عبادة ذليلة فحتم عليها أن تظل عبدة ذليلة

فاذا جاز لنا أن نامل ما يامل المعتز بجاه بيته وماله وكان لنا من آثار الاقدمين المتصلين بنا هذه الصلة النفسية الوثيقة ما يطوع لنا أن نجد مصر القديمة، كما جدد الغربيون اليونان والرومان، وكان لنا من وراء ذلك مطمع في أن نقر في مصر حضارة قوية فتية كالحضارة التي أقرها الغربيون في أوروبا . فمن الجريئة على أنفسنا وعلى الوطن أن ننى في ذلك أو أن نقصر فيه أى تقصير .

والسبيل الى ذلك كله هو البحث عن موضع الاتصال بين مصر القديمة ومصر الحديثة في ميادين الأدب وكتبه والعقائد وطقوس العبادة . ولقد فتح الغربيون أمامنا الباب واسماً في هذا المضمار . فبذ كشف شامبوليون عن سر الهيروغليفية حين حل طلاسم رموز حجر رشيد لم تن البعثات الغربية من أوروبا وأمريكا عن البحث والتنقيب في الآثار المصرية وبعث ما تنطق به أحجارها الصامتة وما تنطوى عليه أوراق البردى القديمة . وهذا فضل لهم يجب الاعتراف به وشكرهم عليه ، لكنه يحملنا نحن وزراً كبيراً ، وزر الاهمال في تمثل هذا التراث المجيد الذى يضم حضارات باهرة زاهرة يمكن أن تكون لنا اليوم نبراساً لاقامة حضارة لاتقل عن هاتيك بهراً ولا تقل عنها ازدهارا .

وإلى ليخيل إلى أن المصريين الذين يتقدمون الى ميدان البحث في الشؤون المصرية القديمة أدنى الى التوفيق فيه من أبناء أية أمة أخرى يتقدمون اليه . ذلك بان غير المصريين انما يرجون مالا يتصل بحياتهم ومالا تسرى روحه في قلوبهم وأفئدتهم ، فلمهم إن أخطأوا عذر المترجم الذى ينقل من لغة الى لغة . أما المصريون الذين يوفقون

الى مثل ماوفق اليه أولئك الغربيون العظماء من براعة في الوقوف على أسرار المصريين القدماء فانهم حين يترجمون آثار هذه العصور القديمة يشعرون في غور وجردهم بما يتفق وهذه الصور والاخيلة والمآنى فيؤدونها الاداء الاثو فى .

ولقد وفقت فى مطالعائى الى مراجعة بعض كتب مما خطه بعض الاقدمين من اليونان عن المصريين المعاصرين لهم وعن عقائدهم فألفت فيها روحا وحياة أكثر مما ألفتها فى كتب أخرى وضعت حديثا . ولا عجب فال يونان ومصر متجاورتان وروح العصر كانت تربط الفريقين جيئاً بأوثق رباط .

ولست أقصد من ذلك الى قصر التجديد فى قوميتنا الادبية على آثار الحضارة الفرعونية ، فذلك محال لأنه مخالف لخلد حياة الامم . وانك لترى هذه العصور الوسطى فى أوروبا ، والى يسمونها العصور المظلمة ، ذات أثر فى تاريخ الادب الغربى غير منسكور . والذين يزعمون أن مصر خضعت من بعد الفراغنة لحكم الاجانب فتاريخها لذلك ليس تاريخها يزنون التاريخ . انما خضعت مصر لناموس ما تزال اكثر الامم الملكية خاضعة له بجلوس اسرة أجنبية عنها على العرش الذى يعتبر تاجها وعنوان مجدها . ثم أن مصر أيام اليونان والرومان والعرب والى عصر قريب جداً كانت ذات أثر كبير فى سياسة العالم وفى توجيه دفعة حضارته . وكل هذا الماضى المجيد تراث يحق لنا أن نفخر به وان نعيد الى حياتنا وحياة أبنائنا ذكره لنزداد به على الحياة قوة وعزة وليزيدنا بالحياة متاعا وفيها سعادة . وإنما أريد أن لا يقل النشاط فى الكشف عن حضارة

التفراغة وتمثلها وإحيائها عن نشاطها في الكشف عن كل عصر آخر من عصور تاريخ مصر، وأن يعمل مؤرخونا وكتابنا وأدباؤنا ليقنعوا ابن اليوم هذا الميراث الجيد فيجمع ذهنه وعقله وقلبه وفؤاده وتصوره وخياله ما كان مصر في ميادين العقل والعلم والخيال من مجد وعظمة تنقلت في تاريخ مصر على كاهل القرون من التفرغة إلى البطالسة إلى مقاومة مصر استعمار روما إلى الحضارة الإسلامية التي ازدهرت عن شاطئ النيل وأضأت العالم بنورها ونامت وإليه إلى عصور التدهور أيام الحكم العثماني ومقاومة ما كنا من ظم تلك العصور إلى هذه النهضة الحديثة التي تنهض مصر كما تنهض الأمم الشرقية جميعاً. وليس ريب في جلال هذا التاريخ كله جلالاً يوحى للمطالب ويلهمه أقوى إلهام في ميادين الأدب والقوى بما يجعله يقيم من صروح هذا الأدب آثاراً شامخة باقية على التاريخ بقاء آثار مصر منذ التفرغة إلى عهدنا الحاضر.

ولست أغلو في تقدير قوة هذا الإلهام القومي الذي ينبعث من تاريخ مصر لسبب من غنى بدراسة هذا التاريخ وأطواره ومواضع الاتصال بين مختلف عصوره. ولقد أشرنا في الفصل السابق إلى قوة إلهام الطبيعة المصرية وجلال وحي النهر الإله وأحسب ما تقدم في هذا الفصل يزيد في قوة هذا الإلهام بما يصور من تاريخ من أقاموا إلى جانبي النهر يتعاقبون على ألوف السنين. ويضاعف في قوة هذا الإلهام كذلك خلد هذه الآثار الباقية منذ التفرغة إلى عهدنا وإلى من بعدنا حتى يرث الله الأرض ومن عليها. هذه الآثار التي ترك الأقدمون

منذ بناء الأهرام الأولى الى أن أقام الرومان مقابرهم بعد ان مهد لهم
 الفن اليونانى حين دخل الى مصر مع البطالسة . وما أقامت المسيحية
 بعد ذلك من كنائس وبيع ، ثم ما كان بعد ذلك من آثار الفن
 الاسلامى الدقيقة البديعة التى ماتزال تشهد بها المساجد والتسكيا
 وسبل الماء وما إليها . هذه الآثار وحدها قد ألهمت كثيرين من
 الأجانب عن مصر ممن زاروها فهى جديدة أن تلهمنا ابناء مصر
 اصناف ما ألهمت اولئك . وهى ليست إلا مظهراً لحياة آبائنا
 واجدادنا من فجر التاريخ فنحن وحدنا الذين نستطيع ان نكشف
 عن صلتها بهذه الحياة وان نجتلى من خلال هذا الكشف حياة الروح
 المصرى الذى يمت الى نواحي العالم فى غير فترة من حياته حضارات سعدت
 بها العالم قرونا وقرونا . وأينا لا يقف كعصرى صادق الاخلاص
 لوطنه وتاريخه أمام أى من الازهارات أو من آثار طيبة أو من
 الآثار الأخرى الكثيرة التى تعمر اشاطئين . أو أمام أثر من
 الآثار الرومانية أو المسيحية ، أو فى مسجد من المساجد الاسلامية
 المملوءة دينة وقداسة ورهبة - أينا لا يقف كعصرى صادق الاخلاص
 لوطنه وتاريخه عند أى من هذه الآثار أو عند أكثر من واحد
 منها يسلمهم صورة أهلنا الذى شادوه وصورة عباداتهم وعاداتهم
 ومعيشتهم ثم لا يخرج بعد وقفته هذه وقد تبسدت الوطن بجنانه
 الكامل فى نفسه فدفع الى فؤاده وروحه من صور الالهام أرقاها
 وأسماءها . وأينا يقف هذه الوقفة ثم لا يحس بنفسه جزءاً من هذا
 الوطن باقياً بقاءه خالداً خلده ولا يدفعه ذلك الى أن يتغنى بأناشيد
 بقاء الوطن وخلده فى رعاية الله وعنايته . وهل أدب قومى يصدر

عن هذا الالهام كله يمكن أن يعدله أدب قوى لأمة من الأمم مما عرف العالم أو عرف التاريخ . وقصص هذه الآثار وقصص آبائنا الذين شادوها وقصص حياتهم المادية والنفسية والروحية كل ذلك حاضر تحت أيدينا لمن أراد أن يكلف نفسه مشقة التنقيب فيه . فإذا تمثلنا هذا التاريخ واستنطقنا هذه الآثار وقصدنا كما يجب أن تقدر هذه الطبيعة المصرية الخفية المحسنة وهذا النهر الذي أنشأ الله به مصر وأنشأنا بفضلها عليها فألهنا ذلك الأدب الذي نرجو فلن يقف هذا الأدب عند تحقيق رسالة الأدب من تجلية الخير والحق والجمال . بل إنى لا أعقد أنه يصل إلى أكثر من هذا وأن قبساً من نور هذه الأديان التي شهدت مصر وتوجت بالاسلام سيضيء ظلمات هذا العصر المادي التي غمرتنا حضارة الغرب بآثاره . وسيقدم للعالم بذلك غذاء روحياً يلتمسه العالم اليوم في مختلف انحاءه في الشرق والغرب فيفضل سعيه ولا يجد إليه سبيلاً .

ولا يحسن أحد أن هذا النشاط المادي العظيم في الاختراع مما هو به اليوم في كل انحاء العالم يجنى على فكرتنا هذه شيئاً . فان هذا النشاط سيصل يوماً إلى فترة يستقر فيها . ويومئذ يشعر العالم بظلمة أى ظلمة إلى الحياة النفسية الفتية الممتعة . ولعله واجدها في هذا البعث الذي نطلب إلى مصر أن تقوم اليوم به .

محاولات في الأدب القومي

منذ أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن نشأ حوار بين كتابنا وفي مقدمتهم كبارهم عما إذا كان هذا العصر الذي تتخطاه منذ الثورة العراقية الى وقتنا الحاضر عصر ترجمة أم عصر تأليف . وهو حوار من نوع الحوار الذي نشأ بين القديم والجديد في الأدب، يرجع الى مثل أصله ويقوم على مثل أساسه . وأصل هذا الحوار وأساسه في الحائين نضال ما بين الحضارتين ، حضارة الغرب الحاكمة اليوم والحضارة الاسلامية التي حكمت العالم زمناً ثم جاء دورها في الاستجهاام انتظاراً للبعث . فأنصار الجديد هم الذين لا يرون مفراً من أن تغزو حضارة الغرب أم الشرق فهم يريدون أن يهيئوها لهذا الغزو حتى تستقبله مستعدة لتمثل آثاره متهيئة للوقوف أمامه في شئ من الكرامة والعزة ، وأنصار اقديم هم الذين يقدرون ما آل اليه حال الحضارة الاسلامية وهم يخشون عليها كل جديد أن يسدها وأن يقضى عليها . لذلك يريد أنصار اقديم هؤلاء أن يظل العلم وأن يظل الأدب والتفكير كما كانت جميعاً في العصور الماضية . وليكفوا هذه الغاية هم يريدون أن يكون العلم والأدب وأن تكون الحياة العقلية والفكرية ملكاً لهم يقولون فيما شاؤوا وأمنها هذا حلال وهذا حرام ، وأن تكون لهم سلطة كسلطة الكهنة أيام قدماء المصريين

تمكنهم من الحكم على من خالفهم بالاعدام أو بالموت الأدبي . وهم بهذه الغاية يريدون أن يسبقوا على أنفسهم قداسة روحية وعقلية تلزم كل من عداهم أن يتبعهم . وهم ليبرروا موقفهم هذا يدعون بالسلف الصالح ويدعون أنهم وارثوا تراثه وانهم باسم هذا السلف يحاربون من شاءوا حرباً بأنه خارج عليه وعلى تلاميذه . ولا ريب في تعاليم السلف الصالح كثير من الحق . ولو أن خلفاء هؤلاء قلوبهم بخير مما يقولونه اليوم لازداد جانب الحق فيه وضوحاً وجلالاً . لكن أنصار القديم يريدون أن يقولوا هذه الحقائق بلغة وأسلوب فيهما من السقم شيء كثير وأن يضيفوا عليها ترهات وأوهاماً وأن يفرغوها مع ذلك في قالب رسمي لتصبح في حماية الدولة وليسبق عليها القانون من القداسة ما يعاقب معه مخالفها .

أما أنصار الحديث فيريدون أن يكون التنكير حراً والعلم حراً والرأي حراً والتعبير عنه حراً وأن تمتد الحرية في هذه الناحية إلى أقصى الحدود . وهم قد جعلوا سبيلهم ، أول أمرهم ، لتثبيت هذه الحرية أن ينقلوا عن الغرب وأن يترجوا علمه وأدبه وآراؤه . وما دام كتاب الغرب وأدبه ورجاله هم أبطال هذه الحرية وحملوا ثأرها فيجب أن ينشر هذا اللواء في الشرق كما هو منشور في الغرب ويجب أن نستعير من أساليب الغرب في الكتابة وفي التنكير ويجب أن نؤمن بالحقائق العلمية التي يذيع كتاب الغرب وبفلاسفتها ، ويجب أن نواجه بهذه الأسلحة القوية الحادة جهود القديم حتى تحطمه ثروة الحديث عليه فنكون من بعد ذلك أحراراً نتمتع من حريتنا في مجبوحه السعادة العقلية والفنية ولا يقف هؤلاء الكهنة بمزاميرهم المملولة ينسدن

علينا حياتنا . ويجب من أجل ذلك أن ننسى القديم كله وأن نقيم مكانه من علم الغرب وحضارته وتفكيره جديدا .

شيء من التمهيد يكشف عن أن جهود اقديم كل هذا الجهود وثورة الحديث كل هذه الثورة انما دفعت اليهما حرارة النضال . وانهما ما كانا يندفعان الى الحدود التي اندفعا اليها لولا هذا النضال . وقد بينا في الفصل السابق ان الخصومة بين اقديم والحديث كالخصومة بين الوارث والمورث غير ممكنة ، لأن الحديث ينطوى على شيء من اقديم بل على أكثره . واقديم لا يمكن أن يتصل بقاؤه اذا هو لم يتصل بالحديث ولم ينتشر في ارجائه . أليس فخار الأمم باضيها لا يقل عن فخارها بالحاضر ها؟ ألسنا في مصر نقاخر بالفراعة وبالعصر الاسلامي أكثر مما نقاخر بالعصر الحديث ؟ فبحال إذن أن نتصور حديثاً لا يتصل بالقديم الذي أثره ، أو نتصور قديماً لا يتطور مع الحديث وينضم اليه . فاذا اتصل القديم والحديث وتضامنا نشأت عن ذلك حيوية قوية وروح معنوية ناشطة هي التي تقوم أساساً لكل حضارة من الحضارات ، وبدونها تتداعى الحضارة ونهار ويضطر أهلها الى استعارة حضارة غيرهم والديش في كنفها .

بهذا الروح حاولت منذ سنين عديدة أن أكشف عن بعض جوانب مصر القديمة وأن أسلكها سبيل الأدب القومي وأن أحقق بذلك بعض ما اقترحت على مس شلوك كاسلز مما أشرت اليه في فصل الادب القومي . وقد بدا لي في وقت ما أن اجعل من بعض عصور مصر الاسلامية موضع هذه الدراسة ، وكانت الحروب الصليبية أشد ما استهوانى من هذه العصور . لكنني وقفت يومئذ متردداً .

أفأقدم فأبحث فأوالى البحث فأقدم للجمهور ثمرة بحثى فى صورة
من صور الأدب القومى فاذا حركة مهاجمة عنيفة تفاجئنى من غير
أن تزن بالقسط ما إلية قصدت متأثرة فى ذلك بنخصومة سياسية
أو غير سياسية مما أشرت إليه حين الكلام عن فتور القصص !!
خير إذن أن أبحث عن ميدان لا يعنى بمهاجمة الباحث فيه أحد .
وهو بعد ميدان طريف يلذ ببحثه ويلذ اتخاذه مادة لأدب قومى شهى
الثمره خصب غاية الخصوبة . وليكن هذا الميدان ميدان انقراة
وأهتهم . ولنطلق حرية الأدب غاية مداها فى تصوير حديث هؤلاء
الآلهة مستمدين أخبارهم من مختلف مصادرهما موازين بينهم وبين
آلهة الاغريق الذين ألهموا من فوق الأولمب حضارة أوربا الحاضرة .
وقد بدأت مباحثى عن أيبس العجل الاله ونشرتها فلم أجد من
أحد نقورا منها أو ازوراراً عنها مما أثبت لى أن فى النورس الى هذا
الأدب القومى ظمأ وإنها صادية لورده اذا هى وجدت من يقدمه
إليها . وكنت قد جعلت بحثى عن أيبس فى صورة قصة لآخوان
ذهبوا الى المتحف المصرى فوقفوا أمام تمثال أيبس وجعل أحدهم
يقص عليهم من تاريخ عبادته ومن الاساطير الميثولوجية التى أحاطت
به شيئا غير قليل . ولأميز هذا المحدث عن بقية أصحابه دعوته
نجن أيبس . وكان من بين هؤلاء الأصحاب شاب وخط الشيب رأسه
قبل أن تؤذن السنون بهذا البياض فى الشعر فدعوته الاشيب وجهلت
منه رجل صلاح ونقوى . وكان من بينهم شاب غير مؤمن بادية
الرأى بعبادة أيبس وأساطير الميثولوجيا المصرية القديمة فاكتفيت
تمييزاً له عن إخوانه بأن أطلقت عليه اسم الشاب . وقد ظل الآخوان

فى مناجاتهم لأبيس وفى مناقشة النجى أقواله زمناً ثم خرجوا فأنطلقوا
 مارين بشكنات قصر النيل الى فندق سميراميس ليتناولوا الشاى فيه
 إجابة لدعوة أحدهم الذى تسمى من بعد باسم الذى دعانا الى الشاى .
 فلما آنست ظمأ النفوس الى هذا الأدب القومى فسكرت فى متابعة
 بحى . وما دام القوم قد دعوا الى الشاى فى سميراميس فليكن حديثنا
 بعد أبيس عن هذه المملىكة الالهة التى جلست على عرش بابل واتى
 غزت مصر وحكمتها زمناً . وتحدث القوم وهم فى بهو الفندق وقد جلس
 الى جانبهم جماعة من السيدات والسادة المتقبعين من بينهم فاتنة ذات
 دل ساحر عبث بالاشيب أشد العبث ، بدله من ورعه وتقواه جنون
 الهوى وفكك اللوعة . وجعله يتساءل فى حديث القوم عن سميراميس
 مقدساً للجمال فى حيث يكون سعيداً بحكم النساء الرجال سامياً بشأنهن
 الى ما استهوى اليه رقة الفاتنة وما جعلها ترنوا اليه بنظرات معسولة
 زادت هوى ووجداء . وفى خلال ذلك كانت قصة سميراميس تقص
 بدقة تاريخية تزيد الفاتنة إعجاباً ودلاً . ونشرت هذه القصة هى
 الأخرى وكنت لما أطبع كتابى (فى أوقات الفراغ) . وقد وجدت
 من الجهد فى كتابة هذين الفصلين بعد التدقيق فى بحثهما ما جعلنى
 أشك كل الشك فيما اذا كان وقتى يسمح بمداومة البحث والكتابة
 وتدوين (حديث الآلهة) على ما كنت قد اعتزمت أن أسمى الكتاب
 الذى يجمع بين دفتيه هذه الأساطير . لذلك نشرت حديث أبيس
 وحديث سميراميس فى كتابى (فى أوقات الفراغ) . لكن هذا البحث
 استهوانى من بعد وعاد يجذبني اليه بقوة زادهامعانا تسكرار زيارتى
 للاقصر واسوان ومشاهدتى مختلف آثار الفراعنة فى وادى الملوك

وفي صماری مرکز الدر و جباله الممتدة ما بين اسوان وحلفا . وإجابة
لدعوة أجدادنا وألهمهم عدت أبحاث ودونت حديث ايزيس وهاثور
وأفروديت . وفي هذا الحديث يتصل البحث على لسان نجى أبيس
والشاب والذي دعانا الى الشاى والاشيب وفاتنة سميراميس ، وينصل
به حديث دوى وصباية كنز أرجو أن يظل متصلا حتى تباركه
آلهة مصر القديمة كلها مجتمعة . لكنى عدت فوقمت من بحثى عند
هذه النصول الثلاثة التى تتصل أو ثق اتصال بفصلى أبيس وسميراميس
وتتابع حوداثهما . ولولا ماسبق لى من نشر هذين الفصلين لكان
موضعهما لا ريب هنا فى هذه المحاولة التى قمت بها فى سبيل الادب
القومى . أما وقد سبق نشرها فانى أكتفى بنشر فصول ايزيس
وراعية هاثور وأفروديت هنا راجياً أن تعود بنى الآلهة الاقدارين
تحدثنى وأحدثها وتوحى الى بى ما بقى من قصة الأشيب وفاتنة سميراميس .
ولست كنيلا بأن تستجيب الآلهة الى دعائى وقد آتبه ذهبى ، اتجه
روحى وجهة جديدة فى البحث ، وفى بحث ليس دون بحث الآلهة
الأقدمين مشقة ولكنه أجل منها مقاما وأروع فيا ينطوى علمه من
حق ونور وجلال وجمال .

وأعتقد أن الذين يبنون أنفسهم بطلاة النصول الثلاثة التى
تلى هذا النصل سيقدرون ما كان للتراعة الاقدمين من حكمة وفلسفة
قويتين عميقتين محيطتين بالحياة محبتين إياها اشد حب وأخصبه .
ولعل منهم من يتابع هذا البحث الذى بدأت فى اصوره اثر تائه
من صور الادب القومى . ولعله يشعر حين بجمته وحين تدويه ثار
هذا البحث بما شمرت أنا به من أن تغير طرائق البحث تبكأ لما

حدث في أوروبا واتباعا لديكارت ومن جاء بعده من الكتاب والفلاسفة ليس معناه اهدار تراثنا كمصريين وكشركيين وكمسلمين والانتقال الى تقليد الغرب في أدب القوم، كتنقليدنا إياه في لباسه وفي طعامه ، كما أن ابتكار طرائق جديدة في الزراعة ليس معناه أن أترك الأرض المملوكة لي لاذهب أجيراً عند اندي ابتكر هذه الطرق الحديثة، ولكن معناه أراقف أنا على هذه الطرائق وأعمل على مقتضاها في الأرض المملوكة لي . كذلك يجب أن نستعين بطرائق الغرب في بحث تاريخنا وإثمة أدبنا وفي ابتكار علم يتصل بعلمنا وصناعة وتجارة تتصل بطبيعة بلادنا . عند ذلك تبني لنا شخصيتنا ولا نصبح عيالاً على غيرنا ننال من فوائده وننال عشرات الاضعاف من ذلك من ذريته ومن احتقاره .

هذا وقد أثبت بيد البحوث الفرعونية الثلاثة قصتين مصريتين من واقع حياتنا الحاضرة نقلت حوادثهما مما شهدت دور اقضاء وماقصه على بعض زملائي المحامين حين كنت أشتغل بالمحاماة . وهما صورة من أدب القوم عن حياتنا الحاضرة . وهما من نوع الأقصوصة التي ازدهرت في هذا الزمن الأخير . وقد نشرتا في مجلة الهلال في سنة ١٩٢٦ . وإنما أذكر أن وقائهما نقلت الى مما شهدت دور اقضاء لأن هذه الدور تشهد من المآسى الوجدانية الشراء الكثير الذي يصلح مادة للقصص ويطبعه طابع مصرى صميم ويجعل الأدب اندي يسلمهم مادته أدباً قومياً بكل المنى القوم . وليست دور اقضاء هي وحدها مسارح الوجدانيات وغير الوجدانيات مما يلهم الكتاب اقصص ويلهم الأديب أياً كان نوع الأدب الذي يريد أن يضع .

بل إن في الحياة المصرية فيضاً من مصادر إلهام الأدب في مختلف
نواحيه أغزر وأخصب مما في غيرها . والمقاصير تنطوى من ذلك
ما لا يقل عما تنطوى عليه الحقول والمزارع . وما على الكاتب إلا
أن يستمع ويبحث ويحلم ليجد من غزارة هذا الفيض خير مادة لما
يريد من صور الأدب القومي في الحياة الحديثة .
وها نحن الآن نعرض على انقارىء محاولتنا في الخمسة الفصول
التالية راجين أن يجد شبابنا فيها مثلاً لطليعة من طلائع الأدب
القومى المصرى .

إيزيس

« ولد اوزوريس من الآله جب (الأرض) ومن الآلهة ناوت (السماء) حين أدرك هذين الآلهين الهرم فعجزا عن قمع وحشية الناس وشرهم . ولما كبر تزوج من أخته إيزيس وجلس على عرش المصريين وصار ملكا على الآلهة والناس جميعاً . وقد استطاع بفضل الجمال والعلم والصلاح أن يتغلب على شر الناس وأن يردهم الى السلم وأن يعلمهم صناعاته .

« وكان « ست » إله الشر أخا لأوزوريس . ولما رأى من آيات حكمته أدركته انغيرة فدعاه الى وليمة أعد فيها صندوقا فاخر المصنع ووعد أضيافه بأنه مهديه لأى منهم طابق الصندوق حجمه . فدخل اليه الأضياف واحداً بعد الآخر حتى اذا كان دوراً لأوزوريس واستوى فيه — وكان قد صنع على حجمه — أسرع شركاء إله الشر وأقبلوا الصندوق وألقوا به فى النيل ، فدفعه التيار الى البحر وقذفت به الأمواج الى شاطئ الشام وبقي عنده تحوطه شجرة أنثاهما انقدر لتحميه من الأعين الى أن جاءت به إيزيس الى مصر بعد حزن وبُحث . لكن ست عثر بأخيه ثانية فى إحدى جولاته جوف الليل فزق جسده أربعة عشر جزءاً ألقى بكل منها فى مكان . فعادت

(١١)

إيزيس الى بحثها واستعادت أجزاء الجسم واستعانت بأختها وبابنها
الاله هورس وبطقوس الدين فردوا اليه حياة شابة خالدة لايحيائها
على الأرض بل في السماء . وكذلك بعث «الاله الملك» ووعداً بالبعث
كل من يفعل الخير حين حياته .

(أيبس — ص ٢٨٣ و ٢٨٤ من كتاب في أوقات الفراغ)

« لقد حدثتكم بحديث إيزيس فرأيتكم مبلغ وفائها لأخيها
وزوجها أوزوريس . قتله أخوه إله الشر تيفون فاستقلت البحر
باحثة عن جثته فلما عثرت بها وعاد تيفون الى تفريق أجزائها عادت
تبحث حتى جمعت الأجزاء الأربعة عشر ، ثم حبست نفسها لتعيد
الى إله الخير حياة الخلد ، وعملها هذا آية في الوفاء من امرأة . وهو
خير مثل لما يجب أن تكون عليه الآلهة .

... . وقتنا الى نزهتنا فأقلنا زورق وسمننا جيئاً . ودار حديثنا

حول عبادة إيزيس في مصر وروما واليونان . »

(سميراميس — ص ٣٠٦ من كتاب في أوقات الفراغ)

تخطينا أبواب سميراميس فاذا أضواؤها طرحت على الرصيف أمامها
وعلى الطريق بعده ضياء مبهما اخلتط بضوء انقمر السابح في السماء
ولما تكتمل دارته ، فهو ثلاثة أرباع تعرج طرفه المشطور فجعل له
ذقاً وأنفاً وجيناً وضاء . وكست الاشجار الرصيف المقابل للفندق
ظلاماً . فلما بلطنا الشاطئ ألفينا صفحة النهر صقلها القمر بشعاعه
الندى فجعل منها مرآة له وحده . ونزلنا على الدرج إلى مرسى
الزوارق وقد اصطفت بعضها الى جانب بعض ومنها الضئير يسير
بالمجداف ولا قلع له ، ومنها ما لفت قلوبه في انتظار من يستقله ،

ومنها ما أحاطت بجوانبه ستور هيأت منه معبداً للزهرة وآلهة
الهوى جميعاً. ووقفنا وتقدم الذى دعانا الى الشاى يتخير لنا زورقا
لاستور على جوانبه، فحديث الرجال فى غير حاجة إلى ستر وازتناول
الجمال وآلهته والهوى ورباته . وتنادى أصحاب الزوارق، كل يكشف
من فضائل زورقه عما يحسبه مرغبا إيانا فيه، وجعل كل منا يدير
نظره فى هذه السوايح ليتخير أطفها وأنضرها . فأما الاشيب
فوقف فى شبه ذهول برهة لا ينظر الى الزوراق ولا الينا . وتخبرنا
زورقنا وجاء صاحبه يعاونا على التخطى اليه . فلما كان دور
الاشيب وأمسك رب الفلك بيده سمعت الاشيب يهمس فى أذنه :
— أيا ن ذهبت السيدات الافرنج والسادة الذين سببقونا الى
هنا منذ هنية ؟

فابتسمت وعجبت لفعل جمال فاتنة الفندق بالاشيب ونظرت الى
« الرئيس » فاذا به يحيب فى جد من يدرك قداسة الهوى مشيراً الى
ناحية جسر عباس :

— هم سألوا عن ذهبية أحد البكوات هناك . وأحسبهم
يقصدونها .

أخذنا أما كننا وحل الرئيس قلع زورقه بعد مادفعه فوق لجة
الماء والنور بمجدافه . وسرى الى نفوسنا نسيم عذب بليل زاده
انقمر رقة وعذوبة . وجرى الزورق يدفع ذلك النسيم فى قلعه وقد
وجهه الرئيس الى ناحية جسر عباس كأنما هداه سؤال الاشيب
طريقه . وسرحت بصرى نحو الجزيرة فاستوقفته احدى الذهبيات
وكانها بجملها قدس هوى أنبته الماء وانبت فيه أنوار الكهرباء

المطلة من نوافذها الرشيقة الضيقة . وأدركت نظري الى سميراميس
فأذا هي بأضواءها الكثيرة منارة هدى لفلک النهر جميعاً . وأشركت
أصحابي فيما جال بخاطري فكان الاشيب أسرعهم الى اجابتي :

— هي منارة هدى للقلوب والابصار

وابتسمنا . . أما هو فلم يبتسم لأنه كان في شغل بالذهبية التي
ذهبت اليها الفاتنة وأصحابها .

ثم قال الذي دعانا الى الشاي يداعبه :

— لملك لا تشير الى فندق سميراميس بل الى سميراميس الالهة

التي جعلت الفندق منارة هدى ومعبد هوى . ولعل الحظ الذي
هدانا الى الفندق والالهة فيه : يهدنا الى الالهة حيث تكون
وابتسم الاشيب لهذه الدعابة وابتهل الى الله أن يجيب الدعاء . ثم
توجه الى نحن أليس بقوله :

— وأنت يا صاح خذ بنا في حديث ايزيس . فلعل الآلهة التي

عثرت على أخيها : زوجها أوزوريس تهدي هذا الزورق فيعثر على
صاحبتها الالهة السيدة سميراميس

قال نجبي ابيس

— لا يكن قولك عبثاً بمعبودتنا القديمة التي امتد سلطان

ربوبيتها من مصر الى أثينا وروما . ولتؤمن بأن لاسمها سرّاً
تعنوله اقوى حتى اليوم . واذا كانت قد تلمبت إبان حياتها زوجة
لاوزوريس على كل العقبات بالجمال والعلم والطيبة فانها ظلت بعد
ما ارتفعت الى أثير الخلد تؤتي عبادها المخلصين من روح قوتها
ما تغلبون به على كل عقبة . لكنها تطلب اليهم أن يكونوا مثلها

ذوى صبر وإيمان. فلا تحسب يا صديقي أنها عادت بأوزوريس
 فى صندوق الحياة الذى حبسه فيه أخوه إله الشر من غير عناء .
 بل لقد ركبت فى سبيل ذلك من الأهوال ما تضعف دونه هم الرجال .
 ولولا ربوبيتها وحرصها على أن يدفع الخير الشر ويغلب الرجاء
 اليأس لأسامت للتدروغنت لنكد الحظ . وقد كادت تضعف أول ما عرفت
 الخبر وكاد يقعد بها الهم والحزن دون النضال . وكفاها يومئذ أن
 قصت خصلة من شعرها وأن لبست الحداد . لكنها عافت أن
 تستسلم لتيفون وأن تدع الخير دفيناً فى محبسه غير مخلد فى السماوات .
 وسارت فألقت على شاطئ النيل عند مدينة قفط أطفالاً سألتهم عن
 الصندوق وهل رأوه ؟ والأطفال : كما تلمون : أحباب الله . وهم
 لذلك ملهمون من أمر الغيب ما لا يلهم الرجال . فلما عرفت منهم
 سير الصندوق تبعته حتى مصب النهر والى جيبيل فى الشام . وكان
 أهل جيبيل قد بهروا بنمو الشجرة التى أحاطت به وحفظته فى جذعها .
 فلما بلغ ملكهم (مالكاندر) أمرها أمر بها فقطعت وجعل منها عمادا
 لبهو قصره . وأحاطت الرياح المقدسة ايزيس بذلك كله خبراً ،
 فجلست عند مورد ماء مكتئبة لا تكلم إنسيا . فلما مر بها خادمت
 الملكة عشتروت حيثهن وتحدثت اليهن ومشطت شعورهن وعطرت
 أجسامهن بالعطر الذى يفوح من شذا شخصها المقدس . وعدن
 الى سيدتهن فتاقت الى معرفة الغريبة التى ضوعتهن بالشذا العذب .
 وبعثت فى طلبها فبهرها جمالها وحكمتها واتخذت منها صديقة لها
 وعهدت اليها فى تربية ولدها وشفائه . وكذلك أتيح للإلهة الخزينة
 أن تقيم على قبر زوجها الدفين فى عماد البهو تشدو حوله كما سجي

الليل بأغنيات الموت والأسي ، فاذا فرغت من شدوها عادت الى
الطفل تحرق من جسمه كل أسباب المرض وانفناء . . وفطن بعض
من في القصر لها وأبلغوا الملكة خبرها . فراقبتها ليلة حتى اذا رأت
الزيران تخرج من فيها صوب الطفل صرخت جزعة مرتاعة . فسلمت
الالاهة من الطفل ما كان أصاب من أسباب الخلد وإن أبقته له صحته .
وخافتها الملكة وحسبتها ساحرة فعرضت عليها أن تأخذ ما تشاء
وأن تغادرهم . فاختارت إيزيس العماد وشقيقته وأخرجت منه
الصندوق . وما كادت تراه حتى علا نحيبها ، ثم حملته في قارب
وبعدت عن جبيل وفتحته وقبلت أوزوريس وألصقت وجهها بوجهه
وبكت أمر بكاء . ولما بلغت مصر نحت الصندوق في مكان وذهبت
تبحث عن ابنها هورس وعن أختها نفيس ليعيدا للملك الآله حياته .
« فلعلمك ترى يا صديقي ان إيزيس تجشمت في سبيل العثور
على جثة زوجها أوزوريس من المشقة مالا تتجشم انسوة في سبيل
البحث عن أشلاء أزواجهن ، بل عن أزواجهن الأحياء . وانما هو
الوفاء الذي جعلها تستمرى المشقة . وحرصها على غلبة الخير للشر
هو الذي هون على ربوبيتها أن تخضع (للاكندر) وامراته .
« ولما عثر (ست تيفون) أثناء صيده بالصندوق وبه جثة أخيه
مزق الجثة أربعة عشر شلواً ألقي كلا منها في مكان . وليس عسيراً
تصور ما تجشمته إيزيس للعثور من جديد بالأشلاء جميعاً .
 واجتمعت لها أعضاء أوزوريس كلها خلا عضواً فرداً كان الشر قد
ألقي به في النهر طاماً للأسماك مما اضطر إيزيس الى أن تصنع مكانه
صورة له من الشمع ليتم لها الرجاء في إعادة الحياة الكاملة لاله الخير

الذى عبث به الشر وأعوانه شر عبث . وكأنما كان الخير في عصور
الآلهة مثله في عصور الناس هياباً للشر متحاشياً إياه قاصراً عن دفع
هجماته عاجزاً عن مهاجمته . فان إيزيس خشيت بعد الذى لاقت من
نصب في بحمها أن يعثر تيفون بالخير مرة أخرى ويعبث به فأقامت
أربعة عشر قبراً في أربع عشرة قرية من انقرى التى عثرت بالأشلاء
فيها وزعمت كل واحد منها قبر أوزوريس لتضلل بذلك أخاه في
مطاردته إياه . وما تزال هذه انقرى تدعى الى يومنا بهذا الاسم .
فأبو صير ليست إلا بوزيرى أو قبر أوزوريس . وإقامة هذه القبور
جهد مضن أشد اضناء . وهو بعض الوفاء الذى تميزت آلهة مصر
اقدية على غيرها من الإلهات الجمال اللأى ازدرين الوقار وسخرن
من العفة .

قال صديقنا الشاب :

— ظريفة أساطير انقدماء . وأقر لكم الآن بخطأى حين سخرت
من عبادة أبيس . فإدام للجمال آلهة وللوفاء آلهة وللخير وللشر
وللنور والظلام آلهة؛ فمن حق ثمرات الارض أن تكون لها آلهة .
وللثور كما للنيل وللشمس حظ في انبات هذه الثمرات . فمن حق الثور
أن يكون آلهة كالشمس والنيل . ومن حقه أن يكون أوزوريس
أو غير إوزوريس من اكابر الآلهة رمزا له

وقال الذى دعانا الى الشاى باسمنا :

— ما أسعد جماعتنا بعودك الى ذوق أساطير أسلافنا ، وما
أشدنا سعادة باجلالك عبادة أبيس . فهو وحده الذى اختص مع
النيل والشمس بعبادة مصر اقدية منذ أقدم عصور تاريخها . أما

سائر الآلهة فكان لهم شأن غير شأنه وحديث غير حديثه . كان لكل منهم اختصاص لا يتخطاه . وأحسب أن توزيع الاختصاص بين الآلهة في مصر القديمة وفي اليونان وروما ونسبة الخير الى أحدهم والعلم الى غيره والشر الى ثالث وهلم جرا ، لم يكن الا بعد تطورات سياسية واجتماعية مر بها عبادة هذه الآلهة . وأحسب أنهم أول نشأتهم كان كل منهم إلهًا طائفيًا له كل صفات الربوبية عند أهل طائفته ، كما كانت أوثان العرب قبل الاسلام آلهة كل منها لقبيلة ، ولكل في نفوس عباده كل ما كانت تتصوره هذه النفوس الساذجة الضالة من صفات الربوبية . ثم كان أن تغلبت طوائف على أخرى أو امتزجت طوائف بأخرى فكان آله الطائفة المغلوبة على أمرها شقيا مثال النقص والفساد ، وكان آله الطائفتين الممتزجتين صنوان في الفضل بلغ من تشابه صفاتهما أن امتزج كل بصاحبه . واذكر على سبيل المثال أن آمون اله طيبة لم يكن اول امره ذا مكانة عند غير عباده ، وكان رع هو الاله المقدم في انحاء مصر الاخرى . فلما آل الى طيبة عرش مصر وكان لزاما أن يصير لآمون مجد طيبة لم يكن الا ان امتزج برع فصار الاله آمون رع . ولما أصبحت مصر مملكة واحدة توزعت جهود اللاهوتية بين آلهة عشائرها المختلفة وخص كل منهم بعمل من الاعمال ووصف به . وأعمال هذه الآلهة هي ما قضت حاجات عبادها النفسية ان تكون ، وهي لذلك مظهر من مظاهر شهوات الازمان ومخاوفه وآماله . على أن التاريخ المعروف ضنين بأن يحدثنا متى تم هذا التوزيع . وكل ما نعرفه عن ثقة أن رع كان كبير الآلهة منذ كان للآلهة كبير . وأن هورس

كان آله الشمس في هليوبوليس . ولقد ظل له ولفتح آله منفيس
أكبر السلطان حتى جعلت طيبة آلهها آمون قريناً لرع وآلهاً
للشمس كهورس وفتح . وكان لكل من هؤلاء الآلهة ممثل له من
حيوانات الأرض .

قال الشاب :

— وما حكمة اختيارهم الحيوان ممثلاً لآلهتهم ؟ أو لم يكن خيراً
أن يرسل كل إله للناس رسولا منهم من أن يرسل حيواناً أعجباً ؟
وأجاب الذى دعانا الى الشاى :

— ما أحسب المصريين انقدماء كانوا قوما فى بداءة الحضارة
حتى أصدق الرواية التى تفسر عبادتهم الآلهة الحيوانات بأن الناس
كانوا أول الخليفة أكثر من الآلهة عدداً وخبناً حتى خشيتهم الآلهة
فتمصوا أجسام الحيوانات لينالوا عطف الناس عليهم وليطفئوا من
نار شرهم . بل انى لأميل لتصديق ما يروى من أن جنود مصر
هزمت غير مرة فى وقائع متعاقبة بسبب اختلاط أفراد فرق جيشها
بالفرق الأخرى فاتخذت لكل فرقة علماً جعلت عليه رسم حيوان
كى يهتدى الجند به . فلما تم لهم هذا النظام سار النصر فى ركبهم
مما أعز أعلامهم عليهم . وكما يقدر أهل هذا الزمان رمز وطنهم
وكما يفتدون بالروح علمه كذلك قدس قدماء المصريين أعلامهم وما
عليها من صور وقدسوا تباً الحيوانات التى تمثلها هذه الصور .
وبعز من أصبح هذا التقديس عبادة لهذه الحيوانات وتألها إياها
على نحو ما يفعل عامة الناس فى كل بلد وكل دين بأزاء أوليائه المقربين
» ويضيف المؤرخ antiquaire ديودور الصقلى سبباً ثالثاً فى تأليه

قدماء المصريين للحيوان يدل على أنهم كانوا فى ذروة حضارة كاملة . ذلك أن هؤلاء المصريين إنما كانوا يقدسون فى الحيوانات فائدتها للحياة الانسانية . والانسان لا يقدس إلا فائدته ولا يؤمن إلا بها . فالبقرة تحرث الأرض وتنسل ثيرانا وأبقاراً للحرث والنسل ، ومن صوف الغنم يلبس الناس ومن ألبانها يصنعون الزبد والجبن . والكلب حارس أمين ورفيق فى الصيد بارع . ومن الطيور ماعبده المصريون لقتله الشعايب والحشرات الضارة بالناس وبالزرع . أما صاحب الجلالة القدسية أبيس فقد كانوا يعبدون فيه قوة اخصاب الأبقار لتنسل والأرض لتثمر . وفى نسل الأبقار وفى ثمر الأرض متاع للانسان وفائدة أى فائدة .

« لم تكن الحيوانات إذن رسلا للآلهة بل كانت هى الآلهة نفسها .

أتم الذى دعانا الى الشاى قوله وأراد نجى أبيس أن يتم حديث إيزيس . لكن الشاب استمهلها بابتسامه وبإشارة لطيفة من يده وقال . — ليس أشهى يا صديقى من حديثك عن آلهتنا الأقدمين ولا أعذب . ولست أقول لك ذلك مجاملة ولا تملقاً . فقد رأيت حتى أول الأمر على عبادة أبيس ومقاطعة قصصك عنها استخفافاً بأمره . أما وقد ملكت شجون هذا الحديث الشجى على نفسى وفتحت أمام بصيرتى آفاقاً جديدة للفكر فاستأذنك وأستأذن إخواننا فى أن أقطع نهم قصة إيزيس لألقى بفكرة استشارها الآن عندى مارواه مضيفنا الكريم عن ديودور الصقل . وإنى بعد ذلك لأذان كلى تلتهم رواية إيزيس اتها .

« عبد قدماء المصريين آلهتهم لأنهم كانوا علم النصر وغلب الأعداء ولأنهم كانوا يقدسون في آلهتهم ماتقيض على الحياة الإنسانية من خير ، أليس هذا المعنى هو خلاصة الايمان الانسانى فى مختلف مظاهره ؟ ! أليس هو إجلال اقوى الظاهرة والخفية التى تمكن للانسان فى الحياة ، تدر عليه خيرها وتكفيه شرها ؟ ! وهل هذا المعنى إلا السليقة انطوية لكل حيوان ، سليقة الاحتفاظ بالحياة فى خير ظروفها . فهل لهذا نتيجة إلا أن الايمان يحل من الانسان محل السليقة من الحيوان ، وإما انفارق بينهما أن الايمان يتطور لأن إدراك الانسان مرن يتشكل بمختلف صور الحياة على حين قد تعجز السليقة عن هذا التشكل فيؤدى عجزها الى فناء الحيوان الذى لم يثوت من فضل الطبيعة مرونة فى السليقة

» هذه فكرة طرأت الآن على أرجو أن تعينونى على تجميعها . ويحيل الى أن جانب الحق فيها أرجح . فبن الحيوان ما مرتت سليقتة فامكن تألف الانسان إياه . ولئن ظل قرار السليقة ثابتا فى الحيوان الاليف وحيوان مثله لم يتألف فاذا اختلاف سلوك كل منهما فى الحياة واختلاف معاملته لما حوله ومن حوله واختلف يقظة المشاعر المختلفة عند كل منهما يدل على مبلغ مرونة سليقة نوع من الحيوان أو ببوسستها . فأنت قد تألف اسداً أو نمراً وقد ترى سلائقة الوحشية تحتفى . لكن هذه السلائق أغلب عنده مما ادخلته عليها من تحوير . فاما يكاد محرك يحرك السليقة حتى ينسى الاسد أو النمر ما طبعته أنت عليه ويعود الحيوان المفترس بكل شرسته ووحشيته . فاما ان تألفت كلباً أو جواذاً كان لتألفك إياه أثر فى سليقتة فلا

تتحرك فيه الغرائز الاولى ، الا أن يدفعه لذلك دافع شديد . ولا ينهض اعتراضا على هذا أن الاجيال التي مرت على هذه الحيوانات الأليفة هي التي جعلتها كذلك . فلو ان الانسان وجد في الحيوانات الأخرى التي ما يزال يعتبرها عدوة مثل ما وجد في الحيوانات الأليفة من مرونة في السليقة لتألفها هي الأخرى ولجعل منها عوناً له في الحياة . والانسان أمرن الحيوان سليقة ، وقد تشكلت سليقته هذه على الاجيال وكانت اقوالب الاولى التي سمكت فيها تهذب وتبقى هي قوالب العقيدة . لذلك أرى جانب الحق أرجح في قولي : ان العقيدة تحمل من الانسان محل السليقة من الحيوان .

بهتنا جميعا لهذه الفكرة الجريئة المفاجأة واشتملنا الصمت
 ز منا . ثم قال الذي دعانا إلى الشاى :

— لعلك يا صديقي تستطيع بعد سماعك بقية حديث ايزيس أن
 تمحص فكرتك الطارئة . ولعلنا بعد سماعه اقدر على معوتك في
 هذا التمهيص . وأوماً الى نجى ايبس :

— عد اذن بنا يا صاح الى حديث إلهة الجمال والوفاء . قال
 نجى ايبس :

— نعم هي آلهة الجمال والوفاء . ولن يضير وفاءها أن خدعها
 الظلام يوما فحسبت تيفون زوجها واسلمت اليه نفسها وأعقبت منه .
 ولولا علم اوزيريس بانها خدعت لما غفر لها خطأها

كان الاشيب الى هذا الموضع من الحديث شارداً اللب يفسكر
 في جميلة سميراميس ويمد ببصره الى الدهبيات كلها يريد ان يعرف
 ايها قصدت . فلما طرقت العبارة الأخيرة سمعه تبسم وقال :

— ولن يضير وفاء أية حسناء ان يخذعها ظلام معبد الحب
فينسلها جميلة مثلها ترث عرش الزهرة من بعدها وتبعث في الحياة
من ضياء حسنهما ما ينير جوانبها المظلمة . وهل الوفاء الا مظهر تجارى
لعهده مالى اساسه الفائدة هو عقد الزواج . ودل هو الاجانية على
الجمال وآلهة الجمال :

ابتهج نجى أليس بهذا الدفاع الذى أوحى به جميلة سميراميس
الى الاشيب فأضلته ، وعاد الى حديث ايزيس فقال :

— استعادت ايزيس بمعونة ابنها هورس وصديقها الالهين
توت و نوبيس أشلاء زوجها أوزوريس وجعلت ههما أن تعيد اليه
الحياة . وكانت كلما عثرت بجزء من الجسم صنعت لأوزوريس تمثالا
من الشمع ووضعت الجزء الذى عثرت به فى مكانه . فلما اجتمعت
الاجزاء كلها أقامت ايزيس وأختها نفتيس حول الجثة وقد لبستا
ثياب الحداد وحلتا شعورهما ودقتا صدورهما ورؤوسهما بأيديهما
كما لا تزال النائمات اليوم تفعل ، وجعلتا تناديهما مستعيتتين
بزملائهما الالهة لبعثه . فأما ايزيس فجعلت تقبل أقدام جثته نادبة :
« عد الى بيتك فأعداؤك ليسوا هنا . عد الى بيتك وانظر الى فأنا
أختك التى تحب . لا تبعد عني وعد الى بيتك حالا فانك كما غبت
عن ناظرى اضطرب قلبي وحارت عيناى تبعثان عنك وجريت فى
كل ناحية لكي أراك . عد الى من تحب . عد الى أختك . عد الى
زوجك . أو اه يا من وقف قلبه فلا ينبض ، عد الى بيتك ولا تبعد
عني أنا أختك ابنة أمك . ان الالهة والناس يبكونك جميعا ، أما
أنا فأدعوك معولة فى صراخ يشق عنان السماء أفلا تسمع صوتى ؟ !

أنا أختك التي أحبيت على الأرض بما لم تحب مثله « . وأما نفتيس وكانت عند رأسه فأعولت نادبة « أيها الأمير الجميل عد الى بيتك لتسرى عن نفسك فليس أحد من اعدائك هاهنا . انهما أختاك الى جانبك تحرسان سربر موتك وتدعوانك نادبتين . قم من سريرك لترى أختيك ، لقد هزم اعداؤك ، وها أنا حارسة اعضاءك . قم أنظر الى ابنك هوروس ملك الآلهة والناس . انه يقيم الطقوس من أجلك ، فقوت يندشك ويدعوك بترائيله وأبناء هورس يحرسون جثمانك ، وروحك تؤدي لها طقوسها كل يوم إذ يجيء الآلهة يحملون الأوعية المقدسة لتعيد صورتك ، عد الى أختك ياأميرنا يامليكننا ولا تبتعد عنا »

وأمسك نجى أبيس عن القصص برهة كأنما غلبه التأثر بحزن ايزيس ، فقال الشاب :

— ما أشبه نواح ايزيس ونفتيس بنواح مصريات اليوم ! أو ليس حل الشعور ودق الصدور والصراخ الذي يشق عنان السماء من طقوس حزن نسائنا على اختلاف طبقاتهن ؟! أفترانا رغم تناسخ العصور والأديان والحكام والأجناس التي قطنت الوادى خاضعين لحكم ما نبت الوادى من عقائد وعادات وتقاليد ؟
قل الذى دعانا الى الشاى :

— وما طقوس الحزن الى جانب ما لانزال نؤمن به على انه دين انقبط أو المسلمين وهو ميراثنا عن أجدادنا من قدماء المصريين !
روى هيرودوتس أن الرجال فى غير مصر يقصون شعورهم آية الحزن بينا يرخيها المصريون من أقارب الميت علامة الاسى ، وذلك

مانصنع اليوم ! وأن المصريين وخدمهم يحملون أن تعيش الحيوانات على مقربة من الناس وفي دورهم ، وما يزال ذلك شأن مزارعنا ! وانهم دون غيرهم يختنون أبناءهم ، فعنهم ورث اليهود والمسلمون الختان . وذكر غير هيرودوتس طقوساً كان يقوم بها أجدادنا لبعض آلهتهم يقوم بمثلها اليوم عامتنا لبعض الأولياء . وفي ذلك مصداق ما ذكره كثيرون من أن العقائد لا ينسخ بعضها بعضاً بل يضاف بعضها الى بعض وأن كثيراً مما نسميه خرافات العامة وأوهامهم انما هو بقايا متخلقة من أديان قديمة هي في النفس الانسانية أشبه بآثار الحيوانات البائدة المتحجرة في الصخور ، والتي لا يسهل لذلك زوالها .

» وربما رأيت فيما سيجلوه صديقنا تنمة الحديث ايزيس وبعثا لاوز وريس ما يعيد الى ذهنك كثيراً غير ما ذكرت من عادات أهل هذا الجيل وعقائدهم اتجهت الانظار الى نجى ايبس وكأ نما يريد كل أن يعرف ما لا يزال في نفسه من آثار الفراعنة النظام . واستطرد هو في حديثه :

— ولما أدت ايزيس فرائض الحزن استعانت بهورس وبنته تيس وبالألهة فتلوا من الادعية والاوراد لروح اوز وريس ما كنى لعمودها الى جسمه تمهيداً لبعثه . وهنا تختلف رواية البعث . فمن قائل انه كان بعثاً زراعياً . ومن قائل انه كان حيوانياً . والذين يذكرون البعث الزاعي يروون أن الجثة حملت بعد الاوراد والادعية الى شجرة جيز ووضعت خلال ورقها ، وهناك تم بعثها بعد سبعة أيام الى حياة خالدة تحياها في السماء . والذين يذكرون البعث الحيوانى يروون

أن الجثة وضعت بعد الاوراد والادعية في صورة بقرة صنعت من الحشب ظلت فيها سبعة أيام كذلك ثم تم بعثها الى الخلد :
 « ثم عاد اوزوريس من العالم الآخر يوما وسأل ابنه دورس عن أجل الاعمال في نظره ، فكان جواب الاله الشاب : أن يثار لايه وأمه ممن أساء اليهما . وأعلن الحرب على آله الشر وكانت بينهما موقعة دامت أياما وانتهت بهزيمة الشر ووقوع تيفون أسيراً في يد إيريس . لكنهما بدلا من أن تقضى عليه أو تسجنه أطلقت إيساره ، وقد أحفظ ذلك هورس حتى انتزع عن رأسها تاج الملك ،

هنا تداخل الاشيب معترضاً :

— يالهورس من ساذج! أحسب أن أمه نسيت يوم خدعها الظلام وألقى بها في أحضان تيفون فأخصبها ! فهل تراها وهي آلهة الخصب تقسو بتيفون لأنه الشر . منكرة ما للشر في أحيان كثيرة من فضائل وحسنات ؟!

وعجبنا لضلال الاشيب بعد سحر انفاتة إياه واتجهنا لسماع قصة إلهة الوفاء .

— انتزع هورس تاج الملك من رأس أمه فغضب لذلك الآلهة هرمس وأبدل إيزيس من تاجها خوذة على صورة رأس بقرة تمثل الالاهة هاتور رمز إيزيس نفسها . ويذهب القصاص الى أن هورس ازاد لذلك غضبا فقط رأس أمه . لكن هذه الرواية موضع شك عند المؤرخ اليوناني فلوطرخوس . وهو يذهب الى أن الأم والابن تصالحا وعادا يحاربان الشر وانتصرا عليه في موقعتين نصرأ حاسما

وصارت ايزيس بعد ذلك إلهة الخصب وهورس إله الخير، وله لهما
ارتقيا بعد ذلك الى السماء راضيين

هذا حديث ايزيس في مصر، أما حديثها في اليونان وروما..
هنا أشار الاشيب من جديد معترضا .

— امسك بربك وحق ايبس دنيهة. ألا ترون الى ذلك الزورق
المرخاة سدوله من حوله؟ أقصد بنا اليه ياريس. انى لا أستحس
فيه همسا من نجوى الهوى لا أشك منه في أنه معبد سيدتنا
سميراميس. وهذا هو يتجه صوب ذهبية صديقنا الخليل، فلئن
صدق ظنى فما قولكم في أن نسبق السيدات والسادة اليها حتى
لا يحسب منهم أحد أننا تأثرناهم لغاية

وبدا على حديث الاشيب من الجدل الذي تلهب به الزهرة دماء
عبادها ما ردنا عن مخالفتهم. وردنا كذلك أننا شعرنا بالنبظة لرؤية
القاتنة من جديد فأشرنا الى الريس كي يقترب من الزورق المرخاة
سدوله. فأخبرنا هو أنه حقا الزورق الذى استقله السيدات والسادة.
واستحسنا الاشيب كي يسبقهم الى الدببة. وألذينا الخليل واقفا على
ظهرها كأنما ينتظر أحدا. فلما رأنا ساجدين نحوه أشار إلينا مناديا
— تقدموا فإشاركونى فى ليلة ساهرة هى جديرة بتملكم ظرفا وأدبا.

ولما رأنا السيدات والسادة حين ارتقوا الذهبية بدورهم دهشوا
وألقت القاتنة على الاشيب نظرة معسولة ردت اليه صوابه. وكانت
ليلة ساهرة أرخى كثيرون فيها لا تقسمهم العنان وإن أبى نجى أيبس
إلا أن يتم حديث ايزيس في مصر وروما واليونان

رابعة هانور

صعدنا إذن الى دهبية صديقنا الخليل ، ثم أدركنا السيدات والسادة ومن بينهم فاتنة سميراميس اليها . وألقت الفاتنة على الأشيب نظرة معسولة ردت اليه صوابه . وتلنى الخليل الفاتنة وأصحابها باسماء قرير النفس وتقدمهم الى أماكن وثيرة أعدت ، على ظهر السابحة . وأدريت طرفي فيما حولى فألثمت مقصفا ببلغ من الكمال أن كان بشيرا بليلة قصف تشير فى النفس أحلى المنى . وأخذنا من السيدات والسادة مجلسا كجلسنا منهم فى الفندق ، ثم كنا معهم أقل كلانة بعد ما قدمنا صديقنا لهم وأتم التعارف بيننا وبينهم . وسألت الفاتنة صديقنا الأشيب باسمه ان كان قد نسى من تاريخ آلهة الاشوريين حديثا أو خبرا . وكان أصحابها من جيراننا الشرقيين المتقبعين أبا عن جد حتى لا يتميز الافرنج عنهم فى قليل ولا كثير ، وحتى صارت عربيتهم الى العجمة أو كادت . وبينما نتحدث أقبل علينا آخرون صعدوا من زورق ، وآخرون جاؤا من ناحية الشاطئ . ومع هؤلاء جاءت جماعة يحمل أحدهم قيثارة والآخرون رقعا والثالث عودا والرابع كمنجا . وعرفنا فى العواد مغنيا رفيقا تعرفه مجامع الاصدقاء ولا يعرف المحافل العامة . وفى أثر هؤلاء أقبلت فتيات ذات ظرف وقسامة

ودل ، هن الساقيات الراقصات المحييات في لجة القمر وفوق لجة الماء خيالات عذارى البحار . ولما تكتمل الساعة حتى كانت الذهبية في عالم يوج بالرجال والنساء تغمرهم جميعا غلالة رقيقة من ضياء فضى وهواء عذب يحمل معه قرأ منعشاً . وفي مثل هذا العالم يتسرب الى النفس احساس الرضى والمسرة وتجري في العروق آمال حلوة مبهمة ويستشعر الانسان بما سيكون من أسباب الطرب والنعيم . ويزيد في هذه الاحساس والآمال والمشاعر ما يكون بين الجمع من تبادل ابتسامات وتحيات ونكات . والحق أنك كنت ترى الأشيب ملكه كل شبابه فضحكت عيناه وافتقر ثغره ونضح بالبشر محياه ووقفت نظراته عند فاتنة سميراميس لا تتحول عنها الا لترتد الى قرارة نفسه تزيده ذوقا لسعادته ونعيمه . أما صديقنا الشاب فكان لا يستقر في مكان ، بل دائم الانتقال يحى من عرف ويقدم نفسه لمن لم يعرف ويتبرع بأجل الثناء لكل ذات دل وسنا . وأما نجى ابيس فجلس الى أصحابنا السيدات والسادة يسمرّون . وفيما هم في سمرهم دلف اليهم الخليل يكرر ما يتوجه به لكل زائريه من شكر ومديح . قال صاحب السيدات والسادة محدثنا الخليل ومشيرا الى نجى ابيس :

— لقد كان صاحبنا واخوانه يتحدثون في سميراميس بحديث آلهة آشور وآلهة مصر الفراعنة . فليتنا عرفنا من أمر حديثهم قبل اليوم فجعلنا من ليلتنا هذه ليلة فرعونية ، أو ليلتنا يتاح لنا ذلك في وقت قريب
قال الخليل :

— ولم لا تكون ليلتنا هذه الليلة الفرعونية . أن لدينا في هذه الذهبية من العدة ما يجعل منها أن شئتم معبد الكرنك أو شئتم قصر الفرعون أو ماتشاؤن من صور حياة آبائنا الاقدمين . وبين هاتيك الفتيات اللاتي حضرن من تمت بروحها وبقسمات وجهها وبنظراتها وبكل ما فيها إلى عباد آمون بامتن نسب . واليه يرجع الفضل في عدة الذهبية كما يرجع اليها الفضل في غرام تأصل في نفسى بكل حياتنا المصرية القديمة . وسترون اننا لن نجد نصبا في إعداد ذهبتنا الا ما يجد معد المسارح في تهيتها لرواية جديدة قال الخليل هذا وأجال بصره في الحاضرين حتى استقر في ناحية، ثم نادى :

— الى يا راعية هاتور .

— لبيك يا حبيب آمون ورع والآلهة السالفين ! هل لنا في

ليلة فرعونية ؟

وكأنما كان نداء الخليل إشارة ذات معنى إذ أقبلت اليها تشق موج الحاضرين فتاة هيفاء سمراء ذات دل وحوور وذات قسامة تعيد الى النفس صورة الفرعونية نفرتيتي ورأسها الساحر . والقي نداء الخليل وجواب الفتاة وإقبالها صمتا خيم على الجمع الذين التفتوا كلهم إلى ناحية راعية هاتور في نظرة إعجاب من الرجال واستيعاب تقاد من النساء . واستقبلت الفتاة القمر في طريقها اليها ، فكانت أشعة عاشق السماوات هالة زادت ابنة الفراغة رقة وسحراً . وتلفت الاشيب الى ناحيتها مع من تلفتوا ودارت حدقته معها في بطء دل على ذوقه جمالها . وأدرت ناظري لمحة فاذا فاتمة سميراميس تحدج

الاشيب والراعية وكأنا دب من الفيرة الى نفسها أن تلفت غيرها من نفس هذا المفتون بها حتى لتخشى أن تقتنه عنها . والصمت مخيم والفتاة تقبل والاعين مشدودة اليها والخليل يفكر فى اليلة الفرعونية ويكاد ذلك يطول لولأن بدأت انفتيات والنساء حديثهن وتهاقهن كأشهى ما يستطعن ليصرفن الانظار من جديد اليهن ولكى لا يحسب أحدهن الرجال أنهن أقل من تلك الراحية سلطانا . قالت إحداهن :

— مأعظم سرور الراحية بدعوة الخليل لليلة الفرعونية ! فهى لاتتقن رقصا كالذى تقوم به فى دورها هذا . وأكبر الحظ فى اتقانها إياه أن ملابسه تخلع عليها شيئا من الجمال . وأجابت جارة لها :

-- يجب أن نحمد للخليل على كل حال . فالضيف أسير الحلى . واردفت كل واحدة عبارتها بابتسامة تجلت خلالها ثناياها الحلوة العذاب ذامتعت النظر كما امتع صوتها السمع ، واستعاد هذا وذاك انتفات من حولها كما استمادت غيرها التفتات من حولهن وتداول الخليل والراحية وجيرانهما فيما يصنعون ، ونادى هو بالخدم وسار واياهم خلفها الى الدور الاسفل ، ثم اذا بهم يصعدون من جديد واذا ستور تمد واذا عيوننا تشهد صورة قصر فرعونى مشيد وترى خلال جدر هذا القصر عمدا تذهب الى اللانهاية كأنما هو يطل على معابد الكرنك من ناحية كما ظل يطل من الناحية الاخرى على النيل ورياضه النظرة . ودعانا الخليل لنهبط وراءه وأشار الينا جميعا أن ندخل الى غرف الذهبية كي يلبس كل منا

الرداء انفرعوني الذي يصادفه. وعدنا الى انقصر المظل على الكرنك
فاذا الحاضر الذي عرفنا يحنى واذا عصر سلف يبعث واذا الاحفاد
تتقمصهم ارواح الاجداد وإن ظلوا في ريعان الفتوة واهاب الشباب.
وجلسنا الى موأد التي عليها هي الاخرى بنسيج العصور الغابرة
ومدت عليها ألوان الشراب في أباريق من فضة . وبقي صدر الميكان
خاليا تخطر فيه أواس زانتهم راعية هاتور وقد اتشجت بثوب
أبيض انقذت أطرافه في صورة الوردية بين ثدييها وظل باديا من
خلاله تنظيط جسمها ، ولبست على رأسها شارة ايزيس قرص
الشمس مقتنعا قرني هاتور ، وأمسكت بيدها مفتاح الحياة
واحتذت بحذاء راقصة شد الى رجلها بسيور من فضة . ودار
الخدم يصبون الشراب في أكواب من بلالور صنعت على صورة
زهرة اللوتس. وسارت وراءهم فناة أمسكت بيدها صندوقا صغيرا
على صورة صندوق مرمياء ظهرت تحت غطاء مومياءه. وجعلت
الفتاة تكشف عنها كلما وقفت الى مائدة فرغ الخدم من صب
الشراب في أكوابها للمحتسين

قال الاشيب وقد لبس لباس الراهب :

— ما أكثر ما يحيط بحياة أجدادنا من أسرار يحتاج فهمها
الى التفكير . فما بال هذه المومياء تدور بها انمادة الفياضة بالحياة
بين جمع مسرة وطرب ؟ وما لهم يذكرون الناس وهم في ذرى نعمة
الحياة بصير الحياة الخفيف المزعج ! بهذا القناء فاغراً فاه يبتلع فيه
الى غير عودة كل من ألقى بهيم الحياة الى ناحيته ؟ أو ما كان خيراً
لو أنهم تركوا ساعات المتاع القصيرة لاثوبها صورة مريرة !

وسمع نحيي أيبس تساؤل الاشيب ، فأسرع الى جوابه خيفة
أن تظل حكمة الاجداد خافية على الاحفاد ، او أن يحسب أحد
أنهم في كمال حضارتهم كانوا يعرفون افزع أو يهابونه . قال :

— ان أمر هذه المومياء لا يحتاج ممن عرف حياة السلف الى
تفكير . فأبسط معانيها في مجلس شراب أنا صائرون الى مثلها ،
فلنغنم كل ما في الحياة من متاع قبل أن تنفذ الحياة ومتاعها فنكون
كهذه المومياء . رغبة عن المتاع وزهداً فيه وطمانينة الى خلد السكينة
الابدية . وهذا معنى تناول الناس جميعاً في شرهم ونثرهم وتناول
النداء في أسماهم . بل لقد أحسب أنه كان لابد سيدور بخلدنا
للم تنبهنا الصورة الفرعونية اليه .

« على انى أرتاب في أن يكون هذا المعنى هو ما قصد اليه
الفراغة . ذلك بأن عقائدهم تنذر منه وتدلنا على قصدهم بخير من
هذا الخاطر الذى يرد الى اذهان أبناء اليوم . فهم كانوا لا يرون
الموت آخر مراتب الحياة ولا يحسبون الانسان يحرم من متاع
الحياة لغير سبب إلا انتقاله منها . بل انه ليجد في العالم الآخر مثل
متاعه هنا أو خيراً منه مابقى جسمه مصنوعاً من التجلل مستعداً
لأن تعود اليه الروح الشقيقة . وهذا سر تشييدهم المقابر كما نشيد
نحن القصور ، وهو سر وضعهم أدوات المتاع في قصور القبور .
أما الروح الشقيقة (السكا) أو الضيف على ما يسميه المؤرخون فتعود
الى المومياء حفظها التحنيط فتسمح لها أن تلتذ بمتاع كمتاعها في الدنيا
من غير حاجة لاكثر من أن تقع باصرتها على أسباب هذا المتاع .
وهى تبقى في خلدتها وتبقى أسباب نعمة الحياة الى جانبها مستمتعة

بها ما بقيت المومياء خالدة على الزمن . فلينهل الناس في الحياة كل
ورد النعيم فلن يزيدهم ذلك إلا إمعاناً في المتاع بهذا النعيم بعد الحياة .
قال الاشيب :

— حكمة بالغة وحق إيزيس . إن لك بعد الحياة ما كان لك فيها .
ولم لا ؟ ألسنا بدأ نعيش على ميراث الماضي ، وغداً هو ابن اليوم ،
ومشينا ذكري شبابنا ؟ فليس إذن عجباً يوم نذر الحياة أن نظل
نحياها وان على صورة أخرى .

وبينا كان اسقاة يصبون الشراب وكان الاشيب ونجى إيس
يتحدثان كانت راعية هاتور في شغل بتنظيم ليلتها . استعانت بعدد
قليل من أصحابها الذين لبسوا لبس الرهبان والراهبات كي يؤدوا
طقوس عبادة إيزيس ، وأوحت الى غيرهم من ضيوف الحفلة أن
يصنعوا صنيعهم وأن يتابعوهم في كل عملهم . واختفى الموسيقيون
خلف ستار وبدأوا يوقعون أنماماً أشعرتنا أنهم غادرونا وغادروا
انقصر ومن فيه واختفوا خلال عهد الكرنك يحبون فيه عبادة
رع وآمون . فقد كانت بعيدة ، بعيدة ، هذه الانعام وكانت تزداد
حيناً بعداً تم تقرب بعض الشيء لتعود فتبتعد من جديد . وكانت
كلما قصت جذبت أفئدتنا معها وزادت في الصمت الذي مد رواقه
على المكان مهابة ورهبة . وظلت في ابتعادها حتى امتلأت نفوس
الحاضرين جيماً قداسة دينية . هنالك بدأ الصوت يرتفع شيئاً فشيئاً
مقترباً بذلك منا . وهنالك قام عديد من الحضور في صفين راهبات
ورهبانا ، وارتفعت تراتيل لم تزد على آهات ولكنها كانت متأثرة
برهبة المكان ، وكانت بامتزاج أصوات الجنسين مثيرة في النفس

قداسة المعانى الانسانية جميعاً وفي مقدمتها معانى الخصب والانتاج .
وتقارب الصنفان فاذا الاشيب الى جانب فاتنة سيميراميس واذا
هو لذلك أشد إيماناً بايزيس ورع وآلهة آشور وظل من كان له في
معرفة الفاتنة إياه فضل . وتبعد الصنفان وختمت التراتيل وتابعت
الموسيقى أنغامها شجية في استسلام وحنان ، واندفعت راعية هاتور
بين رهبانها راقصة رقصاً دينياً مقدساً هو الآخر ، بدت قداسته على
أتمها حين رفعت ذراعيها فتشابكت أصابعها في دعاء واستغفار . وخطرت
في لجة لجين الضياء يستشف من خلال شفوف ثوبها قواما لدنا يتثنى
في موج مطمئن مع كل خطوة من خطواتها وخطرة من خطراتها .
وكان كافياً أن تقف الراقية لتكون تمثال جمال ورشاقة تتناهبه الأعين
فلا يزداد إلا رشاقة وجمالاً . لكن خطرهما بين صنى الراهبات
والرهبان وعلى أنغام الموسيقى الشجية زاد الجمال حياة ودفع الى
النفوس أقدم معانى العبادة والاذعان . وهاتيك الفتيات اللواتي
نفسن على الراقية سحرها في الرقص الفرعوني كن أكثر الحاضرين
نهباً إياها بنظرات الإعجاب والاكبار . أليس لسكل امرأة ماتسحر
به الرجال ؟ فلم لا تكبر كل امرأة في غيرها سحرها التمالهي الأخرى
من إكبار مالدسها ما يزيد الرجال سحراً وافقتانا !!

وبقينا في عبادتنا هذه زمناً ولت الراقية وجهها أثناءه صوب
المعبد ، فاذا صوت ذلك العواد يرتفع منشداً في نعمة كنسية بنشيد
إيزيس يختتم به هذا المنظر الأول من مناظر ليلة الخليل . وعاد الرهبان
والراهبات الى موائلهم وعاد السقاة يصبون الشراب تتبعهم عادة
المومياة ، واكتملت حلقة منا وحلقة إخواننا السيدات والسادة عدا

صديقنا الشاب الذى بلغ من عبادته مبلغ الذهول وأعلن على أثر انتهائها أن لأمقيل له من ذهوله إلا أن تباركه الراعية وتبلو عليه الأدعية والأوراد جميعاً . أما نحن ايبس فقد وجد فى الحنل انفرعوني المحيط به مادفعه للعود الى الحديث عن إيزيس وعبادتها وأعيادها ، قال :

— هانحن أولاء نتمل صورة غير دقيقة من عبادة إيزيس فى ساعة متأخرة من الليل ، بينا عباد إيزيس كانوا لا يعرفون سهرأولا قصناً ، بل كانوا يذهبون الى معبدها كل يوم لصلاة انجر قبل أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الاسود . وكان رهبانها ينتظرون العباد وعلى رأسهم الامام الأعظم رواق الطلبة حليق الرأس والذقن مرتديا ثوبا من التيل الأبيض بسيطا كل البساطة . وكان هذا الامام الأعظم يقضى حياته ناسكاً لاهم له إلا أن تطهر روحه بالعلم وبإدمان التذكير فى القديسات وتعليمها . وكانت أولى المراتب بعد الامام مراتب الأنبياء المقربين الى الآلهة المحدثين عنهم المتحدثين اليهم . أما الرهبان والراهبات فكان شأنهم أن يلبسوا ثياب الآلهة يلبسونها ويخلعون ملابسها المكونة من أقشة أسود نصفها والنصف الأبيض لامع الدلالة على أن ما نعرفه من أمر الآلهة يتلطف فيه الضياء بالظلمات . وكان هؤلاء الرهبان يلبسون ثوبا أكثر بساطة من ثوب الامام الأعظم تبقى بادية من خلاله أذرعهم وصدورهم ورؤوسهم الحليقة . أما الراهبات فكان يلبسن معطفاً تنعقد أطرافه على صدورهن كما صنعت راعية هاتور ، ويحملن فى إحدى اليدين وعاء فيه الماء الطهور وفى الأخرى (الستر) آلة تقدماء الموسيقية يهزونها ليوقطصوتها الكائنات من

سبابتها. فاذا جاء عباد إيزيس الى قدسها ووجبت الصلاة صعد الامام الأعظم الدرج الى تماثيلها فأزاح عنه ستوره فظهرت باهرة في وقفها بما عليها من حلي الجوهر الوضاء نمسك في إحدى يديهما مفتاح الحياة وفي النازية الماء الطهور . وأمام التمثال يتوضأ الرهبان بالماء ويلبسون به على الأتقياء ثم يوقدون النار تحرق مافي المكنان من شر . فاذا طهر كل مافي المبدع الامام الأعظم الالادة فلبت الدعاء فقدم لها عبادها ماشاءوا من قرايين وضحايا .

فاذا كان الحصر أذن الرهبان للصلاة الثانية كما يؤذنون لصلاة ثلاثة هي صلاة ختام اليوم يسدل الامام الأعظم على أثرها الستور على إيزيس لتطمئن في لباس الليل حتى صلاة الفجر .

أما أعياد إيزيس فكانت تقام في أول الربيع وفي أول الخريف ، وكانت غاية في البهجة والجمال لولا ما كان يخالط عيد الخريف من أيام أسى على مصرع أوزوريس . ففي الثالث عشر من نوفمبر (السابع عشر من شهر آتور أو هاتور الفرعوني) كان الرهبان يلبسون على رؤسهم صور الطير والحيوان مما يبدد المصريون فيذهبون الى معبد إيزيس ويمثلون أمام الشعب المأساة الالهية افجاجة يقهر فيها الشر الخير وتقوم على أثرها معركة إيزيس وهورس وتنتهي مع سخط لمنتهى الى بث الخير من جديد من غير أن يقهر الشر أو يقصى عن الارض .

كان الخليل قد جاء الى جمعنا يحينا مصطحبا صديقنا الشاب معه حين كان نجى أيدس في ختام كلامه يتحدث عن أعياد إيزيس . فلما سمع عبارة النجى الاخيرة أراد مشاركتنا الحديث فقال :

— ما أكثر ما يفسرون به مدلولات الآلهة انقدماء . أخفق أن
 ايزيس وأوزوريس وجماعتهم كانوا الخير والشر والصلاح وما الى
 ذلك من صفات ؟ أم أن تيفون كان البحر وأوزوريس كان النيل
 وأيزيس كانت الارض وخصبها وهورس كان النبات الذي تمخص
 عنه ذلك الخصب ؟ وإن أصحاب هذه الرواية ليؤيدونها بأن مصر
 كانت في الماضي يغمرها البحر حتى ما يزال يوجد في جبالها ومناجها
 أصداف وأثار حيوانات بحرية ، وأنه ظل يغمرها حتى دفع النيل بمياهه
 وبطميته البحر الى الوراء فأخصب الارض وأثمرها . أم أن لهذه
 الآلهة معان فلسفية فتيفون هو الشمس المحرقة ، وأوزوريس هو
 القمر الرقيق المحسن ؟ وأصحاب هذه الرواية يذهبون الى أن ضوء القمر
 مخصب يثمر الحيوان والارض في حين تحرق الشمس الحرث والفسل ،
 ويصلون ما بين الشمس والبحر قائلين ان البحر هو الذي أوقد
 للشمس نارها ولظاها بيضاء تبعث مياه الينابيع والأنهر اغنياتها الى
 القمر وضياءه . أم أن أوزوريس هو النهار وتيفون الليل وايزيس
 القمر وهورس الشمس ؟ أم أن هذه كلها صفات الربوبية تجتمع
 للآلهة متعددين وهي بعض صفات الأعلى ذي الجلال ؟ !

وما فرغ الخليل من حديثه حتى صاح صديقنا الشاب :

— والارباب جيئاً ! إني لعلى حق حين قلت لكم إن الايمان
 يحل من الانسان محل السليقة من الحيوان . فأرباب من الحيوان
 لان في الحيوان للناس خيراً ومتاعاً . وأرباب هم علم النصر وغلب
 الاعداء ، لأن في النصر احتفاظاً بكل مافي الحياة من نعمة وحرية ،
 وأرباب هم عناصر الطبيعة صاحبة السلطان الاول على الحياة

وأطوارها ، وأرباب هم الخير والجمال ولذة الروح في الحياة ، وبهؤلاء الأرباب وبغيرهم من مثلهم آمن اجدادنا ثم آمن آبائونا . واليوم وقد سخر الانسان لنعمة غير الحيوان وراض من قوى الطبيعة الكهرباء والجو والاثير ، وراض هذه وغيرها من طريق العلم ، فهو يؤمن بالعلم وبها ، وهو في مظاهر ايمانه جميعاً انما يبحث عن مكانة له بين كل ما في الوجود تحفظ عليه الحياة في أنعم صورها المادية والذهنية والروحية . وليست سليقة الحيوان وفطرته في الاحتفاظ بالحياة إلا هذا الذي يتناوله ايمان الانسان . ذلك أنه هو الآخر يريد الاحتفاظ بالحياة في خير صورها ، فحق إذن أن الايمان يحل من الانسان محل السليقة من الحيوان

كانت فاطمة سميراميس قد ألفت السمع أول ما حدث نجى أيبس عن ايزيس وعبادتها وأعيادها ، فلما رآته بعيداً عن مثل حديث سميراميس وجمالها ، ثم لما رأت الشاب يتناول بحث السليقة والايمان شاحت عنا بوجهها كأنما رأت فيما يقصه المتكلمون حماقات لا تغنى . واستحس الاشيب انصرافها عنا فلم يشاركنا الحديث ولا أعارنا سمعه . بل اندفع يهمس في أذنها بعبارات رقيقة يصف لها بها رقعة هذا الليل وجماله فلما أتم الشاب حديثه كانت أكواب الشراب تطلب الساق ليلاً . فأشار اليه الاشيب وسرعان ما حضر تتبعه عادة المومياء . فلما فاض الرغاء على حافة اكواب اللوتس قال الاشيب : — إن لك بعد الحياة ما كان لك فيها . فلنتبادل النخب من هذا الشراب الشهى ولنذكر ايزيس كجميلة يهر جمالها أفئدة يطير بها الشراب ويطير بها مجلسنا الحلو الطريف ولا نضيع هذه الفرصة

السعيدة في قصص الأساطير وفلسفة الايمان . وإذن هات يا نجى
الآلهة حديث الجمال وسجره .

وحانت من الشاب أثناء حديث الاشيب الثنائة فاذا راعية هاتور
مقبلة . فأسرع اليها وارتمى عند قدميها قائلاً :

— صدق صاحبنا الاشيب . لاخير في قصص الأساطير ولا في
لفسفة الايمان ، وإنما انخير كل الخير في الجمال وحديثه . وطلعتك
ومشيتك وحديثك وأدعيتك وكل ما ينبعث منك هو حديث الجمال
بل هو أنام موسيقاه القدسية الساحرة . بالله يا نجى الآلهة ألا ما ذكرت
لنا من أمر هاتور وجمالها ما يطرب له الجمع ويهش له جمال ساحرات
الدلة فيزداد ضياء وإشراقا . وحق عليك وأنت نجى العجل المقدس
أن تعطف وأن تستعطف ربك الأعلى على البقرة المقدسة .

قال النجى ملياً دعوة الصاحبين جميعاً :

— لا تحسب يا صاح إن الرمز بالبقرة لها تور معناه ان هاتور كانت
بقرة بالفعل . وإنما ذلك رمز الى أن هاتور كانت ربة الخصب كما
كانت كسكل ربات الخصب ربة الجمال . بل هى فى رأى أكثر
المؤرخين صورة من إيزيس غير صورة الوقار وصورة الأمومة
وصورة الطيبة . هى من إيزيس صورة الزهرة عند الرومان
وأفروديت عند اليونان وسميراميس عند آشور . وحجتهم فى هذا
ان اسم هاتور معناه بيت هورس . فهى إذن من هورس ما كانت
إيزيس فى أمومتها له . بل إن مؤرخين ليرون هاتور أقرب فى نسبها
لآلهة السماء من إيزيس نفسها ان كان الجمال مصدر الخصب والخلق .
ويذهب بعضهم الى أكثر من هذا فيراها أقدم الآلهة ومنبع الحياة

بل يراها الالهة الطبيعة وكل ما فيها من صغير وكبير . لذلك كانوا يسمونها أم أبيها وبنت أخيها وكانوا يقرنونها الى الآلهة جميعاً في كل المعابد . على أنها في كل حال كانت عند المصريين زهرة جمالهم المطمئنة نظرتهم المدن قوامه الثابتة أردافه وسيقانه كما كانت الالهة الزينة والتجلى . ولذلك كانت في كثير من الأحيان تصور امرأة ممسكة بيدها أطواقاً هي أطواق الحب ولابسة من الحلي عقوداً وأساور ومشابك وغيرها من أدوات الزينة مما يزيد الجمال براعة وبهرراً . وأمسك النجى برهة فاذا الاشيب تحركت نفسه الى حديث الجمال مثلما تحركت من قبل ساعة تناولنا الشاي فقال :

— هاتور في مصر ، وأفروديت في الاغريق ، والزهرة في روما ، وسميراميس في آشور . كل هاتيك كن في الانسانية رمز الجمال وتمثال المرأة البارعة . فهل خلق الناس منذ القدم غير المرأة وتمثالها للجمال رمزاً . وهل مصدر لالهام الشاعر ووحى المفكر وفن الفنان وليكل ما يأتيه الرجل من عظيم غير المرأة الجميلة . وبحسب المرأة أن تكون جميلة ليغمر جمالها كل ماسواه من صفاتها .

وكانت راعية هاتور قد أخذت مكانها الى جانب الخليل وكان صديقنا الشاب قد أخذ مكانه الى جانبها والليل محقق لذلك يكاد يتفجر من الغيظ لولا حقوق ضيافته يجلبها ويرعاها . على انه اذ رأى الشاب يدنو من الراحية يمس في أذنها لم يملك إلا أن همس هو في أذنه :

— لا يملك الشراب يا صاح عليك لبك فيحسبك أصحابك مخموراً .

ونالت هذه الكلمة من أفة الشاب وأراد أن لا يلاحظ أحد

على وجهه تغيراً فاندفع معقباً على حديث الاشيب :

— هاتور والزهرة وأفرديت وسميراميس كلها أسماء لمعنى واحد صاغ له خيال الأقدمين بدائع الأساطير . وايزيس فى مصر كانت هى عشتروت فى فينيقيا وقبرص وكانت سيرس فى روما . وتوت المصرى هو المريخ اليونانى . هكذا أذكر أنى سمعت . أوليس هذا دليلا على اتفاق الناس فى تصوير صلة ما بينهم وبين الوجود لاتفاقهم فى طرائق النظر لما فى الوجود . بل لقد أحسب مما سمعت عن انتقال ايزيس الى جبيل بالشام باحثة عن جثة أوزوريس ان عبادة هذه الالهة انتقلت معها الى فينيقيا وقبرص وانها انتقلت من هناك الى اليونان ثم الى روما ، فكان هذا سبب تشابه الاساطير حول البحيرة الكبيرة التى أسموها بحر الروم ونسبها البحر الابيض المتوسط . وإذ اختلف هذا التصوير للوجود باختلاف طرائق النظر ، فها نحن اليوم لانعرف من أمر أساطير الميثولوجيا القديمة إلا أنها أوهام خيالية تجلجلى فى الشعر ولا ظل لها من الحقيقة برغم ما كانت تمثل الحقيقة الثابتة فى تلك العصور . أولوفر ميت من أبناء العصور الفرعونية الليلة وحضر مجلسنا هذا أفتراه يشك فى أن هذه الستور التى تمثل الكرنك وعمده وتماثيله انما هى تماثيل وعمد من حجر وأنه فى طيبة وليس بين أحضان القاهرة . وفى مكان هذه الاوهام التى كانت حقائق أهل تلك الاجيال أقما نحن حقائقنا لتكون أوهاما عند أجيال تملأنا . وكل جيل يؤمن بما يصوره لنفسه على أنه الحقيقة ، لان هذه الصورة هى التى تكفل طمانينته فى الوجود واحتفاظه بالحياة بين عناصر الوجود الدائمة التمانى والتجدد . واذا صح ان بقى شىء من الايمان القديم لم يتغير —

وهذا ما أشك أ كبر الشك فيه — فلن يكون إلا ما يمس حياتنا
المادية من طعام وشراب أو يمس آمالنا المهمة في خلد هذه الحياة .
استراح الخليل الى عود الشاب الى فلسفته في الايمان أن
صرفته عن الرعاية وصرفت عنه الجميلات جميعا . ولم يعبأ الاشيب
بهذه الفلسفة أن كان في شغل بأحاديث حلوة تافهة مع السيدات
والسادة وبالمناجاة أعمق المتاع بجمال فاتنة سميراميس زادها لباس
الراهبة براعة وسحرا . وأعان على حلو متاعه أن انصرف صاحب
السيدات والسادة الى شرايه فأنساه الغيرة وأنساه الافتتان بغير
الشراب . ولما رأت الفاتنة من صاحبها هذا الانصراف وألفت في
حديث الاشيب الشهي ماملق زينتها وجمالها زادت عليه عطفاً بأن
زادت عليه دلا . ولم يصغ الى حديث الشاب إلا نجى أليس . وإذا
رأى فيه تجديفا سببه عدم التعمق في إدراك حكمة الاقدمين قال :

— لاتصدق يا صاحبي بما تسمع عن كل هذا التطور في تصوير
الايمان . ولا تحسب ان الناس اتقلوا في بضع ألوف السنوات
القليلة التي يعرفها التاريخ بقدر ما رويت . فلو أنك عدت الى فلسفة
الاقدمين وقرنتها الى فلسفة اليوم لرأيت مذاهب الايمان والشك
والاحاد يعرفها حكماء الفراعنة والاغريق كما يعرفها مفكرو اليوم
وفلاسفته . ثم أنك لو استعرضت عقائد السواد اليوم لرأيت فيها
أكثر مما تسمعه في أساطير الاقدمين وهما وخيالاً . وبين هذه
المذاهب الفلسفية والالوهام المحسنة للسواد في حياته كانت الحقيقة
وما تزال ، وان كانت لاتسلم نفسها إلا لمن أخلص في البحث عنها

حباً فيها وحرصاً على طمأنينة نفسه إليها . وأنت اذا رجعت الى رأى
حكماء الاقدمين من الفراعنة والاشوريين والاغريق والرومانيين
رايتهم جميعاً يقولون ان الحقيقة المجردة وحدها يجب أن تكون
موضع عناية الباحث ، ومعركة هذه الحقيقة يجب أن تكون غاية
حياة الحكيم . وكثيرون من المخلصين دهم إلهامهم على هذه الحقيقة
فأذاعوها في الناس منذ تلك العصور البعيدة ثم لم تغير مباحث العلم
مما أذاعوا كثيراً . وأحسب ان الناس ماداموا أناساً وما دامت
أدواتهم في البحث هي حواسهم فلن تتغير الحقيقة العليا أمامهم
وان اتسع ميدانها وان عرفوا من أسرارها ما كان معجزاً لهم
كان اهل انقصر الفرعوني بعد نشيد ايزيس قد اطمأنوا الى مجالسهم
وعكفوا على شراهم وشغلوا بالحديث الرقيق مع الراهبات . وكنت
لا تسمع لحديثهم أول المجلس إلا هسيساً لا تكاد تميزه . فلما دب
ما احتسوا في كوبات اللوتس الى خفايا نفوسهم صرت تسمع ضحكات
رقيقة محتشمة وتسمع نسكات تتبادل بين مائدة ومائدة . وادى هذا
الى زيادة في التعارف والتفاهم والى تقارب بين بعض الموائد وبعضها
الآخر . وخشيت راعية هاتور أن يطول هذا ذأومأت الى الخليل
فتركنا فتميعناه بنظراتنا فاذا به يرمس في أذن العواد ، وإذا بفرقة
الموسيقى تحتفى وراء الستور من جديد . ولفتت هذه الحركة الحاضرين
فجاء كل منهم يصلح من ملابسه ليعد نفسه للمنظر الثانى من مناظر
الليلة الفرعونية . وإن كان لا يعلم ما سيكون هذا المنظر ولا مادوره
فيه إلا كما يعلم ما تخفى له الحياة من مفاجآت ، وإن كان فى مفاجآت الحياة
ما يفتح ، بينما كان الجمع ينتظر فى مفاجآت هذه الليلة ما يلد البصر والسمع .

أفروديت

اختفت فرقة الموسيقى وراء ستور ذهبية الخليل انقلبت معبدًا
فرعونياً قديماً . وجعل كل من الحاضرين يصلح من ملائسه للنظر
الثانى من مناظر هذه الليلة الساحرة . وسادت برهة صمت لم تطل
أن حل فعل الثراب عقدة الألسن وبعث الى النفوس من معانى
الابتهاج ما أعجزها عن السكينة . وأضاف ضياء القمر إزداد نحولاً
ورقة الى برجة النفوس هياما بالجو السائغ . وهياماً أكثر منه بدل
الراهبات الباسمات بسمات نعيم ورضا . وظلانا على ذلك برهة لم
تطل . ثم اذا بنا نحس بادىء الامر ثم نستيقن بعد ذلك ان أصواتا
موسيقية بعيدة تجيء الينا مبطئة مبطئة كأنما تربط من سابعة
السموات . ومبظئة مبظئة هى الاخرى وقفت راعية هاتورة تستقبل
هذا الصوت السماوى الهابط اليها مع شعاعة من ضوء القمر . فلما
كادت تنتصب قامت بها تقدمت برجلها اليمنى ورفعت يديها الى ناحية
الصوت كأنما تستجدى من الآلهة مزيداً فى سعادة الليلة . وفى
ضراعة استجداء الآلهة رقصت الراعية رقصاً قدسياً ، فلم تترك وسيلة
لاسترضاء أهل السماء ، ولا تركت وسيلة للتأثير فيهم بها ، إلا لجأت
اليها . وما أحسب أن هذا القوام المذن المنثنى استعطاها الواهب
نفسه للآرباب هبة حلال إلا نال رضاهم وما يطمع فيه من نعيم .

فلم يكدها هذا الرقص ينتهي حتى كانت دقات الموسيقى ترتفع في أنغام طرب وسرور وبهجة لم يستطع الجمع معها إلا أن يقوموا بالآخرين مبتهجين يشكرون للآلهة أنعمهم . وما دامت الآلهة قد بعثت من سماواتها رقص الطرب فإنما يكون شكرها بالاذعان لمشيئتها وبالامعان في الطرب . على أن نقوم لم ينتظروا طويلاً ليعرفوا هذه المشيئة . فقد ارتفع من خلف الستور صوت العواد منشدًا :

شكرًا للارباب . أرباب السما . قد منحونا غبطة وهنا . فأنعموا بالعيش في لج القمر . عاشق القبة الزرقاء وهاب الثمر . ثمرا العشق لمن جن غراما . شكرًا للارباب ...

وعلى أنغام هذه الانشودة انتقلت الراعية من رقص الاستجداء الى رقص الشكر . ومن التثني في ضراعة الى القفز في مرح ، كأنما تريد أن تطير الى آلهة أجدادها الزراعة تقبلهم تقبيلًا . أما الجمع فاندفع يغني : شكرًا للارباب أرباب السما . وفي نشيده اختلطت أصوات الرجال القوية بالأنغام النسوية المشجية وان تميزت هذه الأنغام كما يتميز الماس ركب على الذهب الأبيض . وفي أنشودتهم وفي رقصهم ظل القوم زمناً حتى انقلبت الموسيقى مرة ثالثة الى أنغام ردت النفوس الى الشعور الديني وعادت بالمشدين لاحترام معنى لباس الرهبان . ودعا القوم شبهها بموسيقى المنظر الاول الى أن يقفوا صفين رهبانا وراهبات لتخطر بينهما راعية هاتور راقصة رقصاً دينياً هو رقص التوبة والاستغفار خرت في ختامه ساجدة وقد علا بالنجيب صوتها . وما كان أشد دهشتنا حين ألقيناها بعد ما فرغت الموسيقى من عزفها وبعد أن اتجه كل الى مقعده يريد أن

يعود اليه وما تزال دمعته تنهل على وجناتها الحمراء اللون . فلما
سكن روعها قال الذى دعانا الى الشاى :

— كذلك الحياة : ضراعة الى النعيم فنهل منه فزهد فيه وتوبة
عنه . صبا يتوثب وشباب يستمتع ، وشيوخوخة تحشى وتستغفر .
رجاء ما نكاد نحسبه تحقق حتى اذا به حلم تطاير . هذا معنى نراه
كل يوم بأعيننا ، لكنه لا يترك من الاثر فى نفوسنا ما كان لدموع
الراعية التى أذابت من قلوبنا وفتحت على هذا المعنى نظراتنا التى
لا ترى كثيراً مما تقع عليه .

وعاد كل جماعة الى مكانهم ، وعاد الاشيب مع السيدات والسادة
فجلس الى جانب فاتنة سميراميس كما كان . أما الشاب فقد ظل على
مقربة من راعية هاتور يسألها عما بها وان كره الخليل هذا التحكك
الذى أثار منه غيرته . على انه فى رعايته حقوق الضيافة لم ينس أن
ينادى السقاة ليدوروا على الجمع بالشراب . وسرعان ما امتلأت
الاكواب أترعها السقاة تتبعهم عادة المومياء . فلما عاد انقوم الى
شرابهم استصحب الخليل الراعية الى مجلسنا مع السيدات والسادة
آملاً أن ينصرف الشاب الى حديث غير حديث الهوى ، ولم يخطئ
الظن ، فاكاد يستقر به المقام حتى اتجه الى ناحية الذى دعانا الى
الشاى قائلاً :

— حق ما ذكره صديقنا نجى العجل المقدس : ان الناس اليوم
هم الناس منذ بضعة آلاف السنين التى يعرفها التاريخ من تفكيرهم .
لكنى بازاء ما رأيت منذ لحظة أسائل تنسى : أضحك ان الحقيقة
المجردة وحدها يجب أن تكون موضع عناية الباحث وغاية حياة الحكيم ؟

وهل صحيح أن في الوجود حقيقة مجردة غير هاته الحياة التي نحيا بها فيها من شهوات وأوهام وأمال وبما تنتهي اليه من تفان وتجدد يهبط بجيل الى غيابات الفناء ليطفو بجيل آخر الى عالم الشهوات والأوهام والآمال ؟ وخير ما في هذه الأوهام من حقيقة هو ما نحن الآن بسببه من نعيم كنا نهمل منه وما يزال لنا أكبر الرجاء فيه بأن تعود الراعية الساحرة الى الرضا عن الحياة لترضى الحياة عنا جميعاً .

فأسرع الخليل من خشية أن يعود الشاب الى ما يثير غيرته فقال :

— لقد ذكرتتم أن هاتور في مصر هي سميراميس في آشور وهي أفروديت عند الاغريق . وقد أسمعنا نجى أليس من أمر هاتور حديثاً شهيماً ، نهمل لنا أن نسمع عن أفروديت مثل هذا الحديث ؟ وكأنا أريد الخليل بذكر أفروديت وبرواية قصصها أن ينسى الشاب وغير الشاب راعية هاتور لتبقى خالصة له من دون الرجال الحاضرين جميعاً فلا يضطر أن ينهض أضيافه الى فضل الراعية وحبه إياها في إعداد هذه الليلة لمتاعهم ، وأن يذكر الشاب بأن لا يخرج به الشراب عن صوابه .

وكان الاشيب قد نال من رعاية فاتنة سميراميس التي صدفت عن صاحبها الأول للنسيان إياها في شرابه ماجعله يلقى جاهلاً بنظراته من غير أن يستطيع قولاً إلا همساً لا يرى من اللياقة أن يسمعه أحد غيرها . لكنه إذ سمع دعوة الخليل الى قصص حديث أفروديت ، واذ كانت أفروديت إلهة الجمال والحب والرغبة والخصب وكل معاني

الحياة محققة على الحياة . فقد رأى في توليه قصص حديثها الوسيلة لمخاطبة صاحبته في شخص إلهة الرغبة . لذلك سارع الى هذا القصص في لهجة مطمئنة تنطوى طمأنينتها على شيء من الايمان بأفروديت يشبه إيمانه بسميراميس وفانتتها . قال :

— ليست الالهة الجمال والرغبة أفروديت إغريقية الحسب . بل هي فينيقية من قبرص . وللمها تتصل صلة لم يحدثنا عنها التاريخ بزيارة إيزيس جبيل باحثة عن أوزوريس . على ان ازيود يذهب الى أنها نشأت نشأة أخرى ، ففي معركة بين الالهين القديمين أو رانوس وكرونوس قط الأخير رجولة الأول فسقطت هذه البقايا المقدسة على لج الموج فحمل منها رغاؤه الذي ظل يجتمع حولها حتى كملت منه ساعة بلوغها قبرص الالهة الساحرة ذات التاج الذهبي . ويذهب هوميروس الى أن الالهات أعجبن بأفروديت ساعة رأيها فأنشدن في حضرتها أغنيات المرح وزين آذانها بأقراط الذهب وخلعن ما كن يلبسن في أعناقهن وعلى صدورهن من أطواق ولبات . فلما تمت زيفتها خرجن بها الى الآلهة حافات من حولها فما كادوا يرونها حتى هام كل بسحرها وتحركت فيه لوازع الرغبة وتقدم يريد منها زوجا له زينة لمضجبه الالهى وكمالا لربوبيته . وكيف كان لأى منهم بالنجاة من سحرها وقد كان الحب والرغبة بعض تبعها وكان يتضوع مع عذب شذاها سحر الحديث وسحر الابتسام وسحر الكذب وسحر المرأة جيذاً .

» على أن الالهة الجمال والرغبة كانت من الذكاء بما طوع لها أن تسخر لها من رغبة كل آله . وكانت من الكرم والنظنة بما

دعاها لتصل بين الالهة والناس بأوثق صلة . وعلى الرغم مما كانت تعرفه وتشعر به هي الاخرى من كبرياء الالهة وحرصهم على أن لا تختلط أنسابهم بأنساب عبادهم فقد سخرت من هذا الحرص وتلك الكبرياء وجعلت تخدع الالهة في الناس والناس في الالهة فتدس في مضجع الالهة جميلة من بنات حواء وفي مضجع الالهة جبارا من بنى آدم . وكأنيما دفعتمها الرغبة آخر الامر لتذوق ما أتاحت لغيرها أمر ذوقه . أو كأنيما حنق عليها أبو الالهة زوس فأراد أن يخضعها لما أخضعت هي له الالهة غيرها . لذلك مالبت أن رأته أنشيز يرعى أبقاره على سفوح الايدا حتى امتلأ جسمها بجباله الساحر سحر جمال الالهة غراما ورغبة . فأسرعت الى معبدها وأحاطت بها الشاريت حتى أستحمت ثم عطرناها بالعطور الالهية وأزينت ولبست ثيابها النمامة ، وخرجت قاصدة سفح الايدا حتى اذا رآها أنشيز جن بها مايجن كل من رآها من الناس والالهة طرا . على أن الخوف ملكه أن تكون الالهة فيصيده من الاقتراب منها أذى . لكنها خدعته بقولها إنها ابنة ملك فريجيا وأنها جاءت اليه بأمر أبيها لتصبح له زوجا . ولم يطق أنشيز أمام جمالها صبرا . وكان له مخدع وثير كساه من جلود السباع والضباع التي صادها فذهب بها اليه وهي كاسرة الطرف تزعم الحياء . ولما أفاق من غشيته وبصر بها وقدرت ملابسها لم تبق لديه ريبة في ألوهيتها فتضرع اليها ألا يصيبه ما يصيب من تحالط الالهات الخالدات من ذهوب الشباب . فطأته وإن لم تحف عليه أنه مصيبه الهرم الذي لا يرحم حين يهدم الناس هدمًا . ثم أنه سيعتاض من هرمه ومن مشيبه ابناء من الالهة تخلد

فيه قوته . أما هي . أما افروديت . فسيصيبها من فعلتها معه
سخرية الآلهة إن هم علموا بشيء من أمرها . لذلك حسدت انشيز
أن يقول شيئا أو يفخر بما صنع والا أصابته الصاعقة بأذاعته سرا
يجب كتمانها .

« وإنما كانت صلة افروديت بالنشيز عمياء ساعة . لكنهما
أولعت حبا بادونيس . وأولعت به حبا حتى لقد ذهب يوما للصيد
فاقتحمه حيوان مفترس وجرحه جرحا مميتا . وكان هذا المنظر
بمراى من افروديت فطارت اليه ناسية أن تحتذى فوطئت قدمها
شجرة ورد جرحتها شوكتها فأسالت منها نقطة من الدم . وكان الورد
الى يومئذ أبيض اللون فاحمر لونه من دم افروديت . وأقامت تبكي
محبها زمنا أدهش الذين عرفوها صديقة الهوى والعبادة بكل
معاني الوفاء .

« ولا افروديت غير هذا من قصص العبث بالآلهة والناس
استيحاء لرغباتها ما بطول حديثه . على أن حكومتها هي وحيرا وهيلانة
الى الشاب البارع باريس لايجهلها عالم بتاريخها . فقد تنافس النسوة
الالاهات الثلاث في الجمال فالتكن الى باريس . وكيف كان له أن
يتردد في حكومته بعد الذي تضوع به جمال افروديت جمالا فاتنا
ذكيا . ولما حكم لها أرادت العبث بمنافستها هيلانة زوج أغانموز .
فبعثت الى نفسها عشق باريس حتى تبعته تاركة مضجع زوجها
مرتضية الشاب الذي حكم ضدها خليلا لها . وكانت هذه المصلحة سبب
حرب طروادة . وفي هذه الحرب برز كل من هذين الخصمين
لصاحبه فجر الزوج باريس من خوذته . لكن افروديت أسرع

الى معونة من قضى لها بحكومة الجبال فانقذته وفرت به . وأرادت هيلانة أن تكفر عن خطيئتها بعد الذي رأت من ضعف خليلها . لكن الإلادة الرعد هددتها ان هي فعلت أفسدت عليها وعلى زوجها الحياة وأرغمتها بذلك على أن تظل في أحضان باريس برغم احتقارها إياه لضعفه وحقنها على نفسها .

« وكذلك يملك الجبال أفئدة الآلهة والناس جميعا انا وانا ذكرا . وكذلك حكمت افروديت آلهة الاولمب كما حكمت الناس بذلك . جالها الساحر . وحق لكل من وهبت ما وهبت افروديت أن تجلس على عرش الجبال حاكمة على القلوب والأرواح والأفئدة مسخرة لرغباتها الآلهة والرجال تسخيراً يستريحون له ويرضون عنه ، بل يرغبون فيه أعظم الرغبة .

في هذا الموضوع من حديث الاشيب التفت الشاب اليه وعلى شفته بسمة الساخر فقال :

— تحدث أخى تحدث . هات لنا من مثل ما ذكرت عن الآلهة والجماليات . حدثنا عن افروديت الآلهة البغى والفجور وقل لنا بعد ذلك انها الآلهة تستحق العبادة وأن تقام لها الصلوات وأن يحرق لها البخور . ولك أن تذكر أكثر من هذا ان الاغريقين القدماء الذين امتازوا بالفطنة والذكاء والذين ألف مؤلفوهم خير ما كتب في الأخلاق قد شادوا لبنينها وفجورها من المعابد مالا أدرى أى دافع يدفعك للتحدث عنه بكل هذا الاطراء والاعجاب .

أتم الشاب حديثه فأدار الاشيب اليه وجهه لحظة ارتسمت أثناءها

على شفاهه ابتسامة ازدرء وإشفاق . ثم أشاح بوجهه وتوجه به الى ناحية صاحبة الفاتنة وقال :

— يخطيء الذين يحسبون افروديت الالهة البنى والفجور :
انتهى الالهة الخصب تريد أن تهدي العالم أجمل ثمرات الحب وابهاها .
ولذلك كان الاغريق يباركون باسمها الزوجين أول زواجهما ليكون
لها من الابناء في مثل جمال افروديت وذكاها . وكيف تريد بالالهة
الجمال والرغبة ألا تهب من هذه الفضائل لكل مختارها ؟ أو
لوضن آله الحكمة بحكمته على اناس يبقى مع ذلك جديرا بالربوبية !
ولوضن آله الحصاد أو آله الخصب بالخصب وبالحصاد وتركوا الارض
جرداء فاحلة ليموت الناس جوعا أو ليطعموا الزقوم أف يكون أيهما
قيما بقليل أو بكثير من حب اناس واحترامهم حبا واحتراما هم
مطالبون بهما لكل آله ؟ ! فاذا يستطيع إذن أن ينقم ناقم من
افروديت أو من سميراميس أو من كل إلهة من آلهة الجبال والخصب
اذا هي اتصفت بالكرم أول صفات الآلهة وخلعت من جمالها ومن
رغبتها على العالم لتزيد العالم جمالا ولتزيد اناس في العالم رغبة .
ولسميراميس ولأفروديت في العالم رسل من بنات حواء هن مثل
جمال هاتيك الآلهة ويملكن من وحي الرغبة ما كانت الآلهة تملك .
وهاتيك الرسل يباركن العالم ويبعثن الى جوه شعرا ونعمة .

وفي هذا الموضع من حديثه زاد توجه الاشيب للفاتنة ولمعت
حدقاته بندى بلاهما وجعل منهما مرآة تسترد الفاتنة اليها لتردها
الى حنايا فؤاده . وشعرت هي منه بهذا فتنبت نظراتها هي الأخرى
ونسيت صاحبها الماكف على شرابه فما يسمع مما يدور حوله من

الحديث شيئاً ولا يتعفف عن أن يجيل عينيه في الراهبات حوله لا يفضل منهن واحدة على أخرى . وبدأت من الفاتنة حركة دلت على حرصها على أن تبدى جمال ذراعيها : كأنما تريد أن تبين عنهما للاشيب المسحور بجهاها لتقول له : هما لك يطوقان كل جيدك فلا يعرف بعد دارتهما شيئاً . وتابع الاشيب حديثه وقد تندى صوته كما تندت حدقاته فقال :

— تبارك هاتيك الرسل العالم ويهين الى جوه شعراً ونعمة .
واذا هن لم يعنين بأن يكن أوعية خصب فحسبهن فضلاً أن يوحين لغيرهن من هاتيك الأوعية حرصاً على أن يشمرن ثمراً جميلاً . ألتسم ترون الى كل امرأة لم تقوت من الجمال الحظ الذي ترضى عنه تجاهد لتبدو جميلة وتجاهد أكثر من ذلك لتنسل نسلًا يخفّض من نسبة القبح في العالم . ولو اقتضرت رسالة هاتيك الرسل من ذوات وحي افروديت . وعددهن على ما لا يزال عليه من قلة ، على أن ينفحن العالم بشمرات جميلة ولم يكن المثل الذي تجاهد غير الجميلات ليكون ثمرهن مثله . لكأن تلك الرسالة أقصر من أن تدفع بالعالم الى نواح الكمال كما تدفع رسالتهن الافروديتية القدسية اليوم به .

ومع أن الاشيب كان متجهماً بكل حديثه هذا الى فائقته فقد افترت ثغور الراعية وحاسداتها عن بسمة الرضى لسماع قول هذا المفتون بالجمال ، ومالت كل منهن عند ختام الحديث الى ناحية الصاحب الذي يملقها . وكان الخليل قد نسي الشاب ونسى انه صاحب الديلة وترك نفسه لعواطفها وجعل يحدث الراعية حديث هوى ورغبة . أليس قد أخذ هو الآخر من الشراب الحظ الذي ينسى

الحكيم قيود الحكة ! ثم انه لم يكن يخشى غضب أحد أن كان كل في شغل بنفسه وعن يستلين ذؤادها . وكان ذلك كله يحدث في رهبة المعبد الفرعوني الذي ازداد رهبة أن اطفئت رويداً رويداً بعد انتهاء المنظر الثاني كل الانوار الساطعة فلم تبق الى جانب شعاعات القمر التي تخترق الستور سوى اضواء مستورة بحجب مختلفة الالوان تزيد جمال كل جميلة وضوحا وتخفي من عبث الزمن بالوجوه ما يلبس الكل حلة الشباب .

ونسيت فاتنة سميراميس نفسها لحظة في عذب حديث الاشيب وحلو هجسه ، ثم أدارت النظر فيما حولها فاذا صاحبها الاول قد غادر المجلس كأنما لم تبق له برؤية منافسه طاقة . أو كأنما وصلت المشوة من غور نفسه حتى نسي كل ماحوله فهبط الى احدى غرف الدهمية تملط فيها . وأحس الاشيب تغيراً في بسمات الفاتنة لم يرتب في أن الأسف على ما حل بهذا الصاحب كان سببه . لكن هذا التغير لم يدم إلا قليلا . وما لبث أن انقلب الى زيادة في اقبالها عليه وزيادة في صراحة إعجابها بحديثه ورضاها عنه . وزاد هذا الرضا في إشراق وجهها وضحك عينيها وفتنة ابتسامتها وضياء كل جمالها ضياء زادت الرغبة ذكاء فضاعفت جماله . وعقد لسان الاشيب ازاء ما رأى . لكن عقدة لسانه جعلت صمته أكثر ايضاحا عن كل ما يدور بنفسه من المعاني من كل كلام يمكن أن يعبر به عنها . وأى كلام ولو أوقعت أنغامه على أوتار قدسية يمكن أن يبر عن التفاني في عبادة الجمال والاخلاص الصادق في العبودية لغنته . وذلك الاخلاص وهذا التفاني يتضاعفان اذا حلا نفسا كنفس الاشيب أولمت طوال

حياتها بتقوى الله وتورعت عما د عباده ، ولو كان ما عند عباده هو الجمال . وطال بهما الصمت وان نطقت منهما النظرات أعذب منطق بكل ما تهتز به أعصابهما وأرواحهما وقبورها ونفوسهما من عواطف ورغبات ومعان .

وبعد زمن رفر ف فيه إله الحب بجناحيه المضيئين على رهبان المعبد وراهباته ، بعد زمن لم يدر هؤلاء الرهبان أطال أم قصر ، عاود الخليل رجوع من واجب المضيف فإذا به يريب من جديد بالسقاة ، وبغادة المومياء ، ثم اذا به ينادى العواد وأصحابه .

— هاموا يرافق فأوقعوا لنا دوراً . ولعل الصحب جميعا يفتبطون أكثر الغبطة إن أنتم أنشدتم : غننا في الشوق أو غن بنا . وأصلح الموسيقيون آلاتهم وغنى العواد أنشودة كليوباترة وعادوا لجمع يقظة للوجود بعد أن كانوا قد نسوا الوجود في أحلام آلهة الجمال والهوى . وردد الليل الصامت على نسائه الرقيقة وعلى أشعة عاشق السماوات أصوات الاوتار وألحان المغنى الذى استثار من طرب الحضور واستحسنهم ما زادهم عرفانا للخليل بفضله . فلما انتهى الدور ووضع الموسيقيون آلاتهم جانباً قال الذى دعانا الى الشاى :

— ألا يشهد هذا اللحن من ألحان كليوباترا بان ملوك مصر القديمة وآلهتها كانوا يعيشون فى حياة شعرية لا تقل عن حياة أفرو ديت كما وصفها لنا صاحبنا ؟
قال نجى أيبس :

— كلا : لم يخلع قدماء المصريين على آلهتهم كل هذا الشعر الذى

خلعه الاغريق على آلهتهم . واذا كانت ابنة البطالسة ذات الحديث الساحر قد جعلت من حياتها قصة خيالية فلعلمها من بين ربات عرش مصر وأربابه الوحيدة التي خرجت على حكمة الأقدمين . ولعل لها من العذر أن آباءها لم يكن دمهم مصرياً خالصاً ولم يكونوا عباداً مخلصين لآلهة الفراعنة الأقدمين . أما التاريخ فلم يحفظ لنا في قصص إيزيس وهاتور ولا أية إلهة أخرى مثل ما يقص تاريخ اليونان عن آلهته وإلهاته . ولعل ذلك يرجع الى انفرق الكبير بين طبيعة مصر وطبيعة اليونان . فبينما مافي هذه من جبال ووديان يجعل سماءها عرضة لتغيرات كثيرة تبعث الى النفوس ألواناً مختلفة من الشعور والحس وتطبع التفكير نفسه بطابع التلون اذا مصر ساكنة الى حياة واحدة هي الحياة على ضفتي النيل في نضرة الوادي الدائمة تنفجر عنها الصحراوات الى آفاق الآفاق تظلمها سماء دائمة الصفو . هذا النوع من العيش أدعى للتفكير في القدسيات وأولها الموت ثم مابعد الموت من تلك الحياة الاغريقية التي ينسى حاضرها مستقبليها ويجعل أهلها يكبون على المتاع بهذا الحاضر أشد إكباب . وليست قصة أفروديت وشهواتها وسحرها إلا صورة من نسيان المستقبل في الحاضر . وليست حياة باكوس آله الخمر ولا دمتر آلهة الحصاد إلا بعض هذه الصور . فأما آلهة مصر الفرعونية ، فكانت زين جباهم جميعاً سكانية هي سكانية خلد الوادي المطمئن الى حاضره . طمأنينة تبعث بخياله وتفكيره الى المستقبل الرهيب الذي ينتظرنا في الأبدية . هاته السكانية ترونها على جبهة أييس كما ترونها على جبهة أوزوريس وايزيس وهاتور من آلهة الخير ، وترونها كذلك على جبهة

إله الشر نفسه. جباههم جميعا مطمئنة كجباه المصريين جميعا ، بينما تشتعل في حناياهم نار دائمة السعير هي نار المستقبل والتفكير فيه. وهذا هو مادعا الفراعنة الاقدمين لينقروا في الصخر قبورهم وليعدوا فيها كل معدات الحياة الاخرى كي يكفلوا من طمأنينتها ما كفلوا من طمأنينة الدنيا. وهذا هو ماجعل صحارى مصر مأهولة في عصور كثيرة بمعزلة الصحراء ممن يقضون حياتهم صوما وصلاة لينالوا الرضى في الحياة الآخرة. وهذا كذلك هو ماجعل مصر مهبط وحى الحكمة أكثر منها مهبط آلهة الشر وشياطينه

كان الشراب قد أخذ بلب صديقنا الشاب . لكنه كان من قوة الارادة بما يجعله يغلب فسكره على نوازع غريزته كلما خشى أن يجد الناس في هذه النوازع موضعا لنقد. لذلك ترك المحبين يعودون لتبادل الاسرار ، واندفع معقبا على قول النجى :

— لست اعتقد أن الفراعنة من اجدادنا قد قصروا انفسهم على الحكمة وحدها ، وبخاصة على هذه الحكمة العبوس التى لاتعنى الا بالموت وبما بعد الموت . فلقد كان لديهم الى جانب الالهة الخير والشر آلهة الزينة كهاتور وآلهة الشر وما يزين الشر للناس من الوان الحياة . ثم أن فى اقليل من اقصص الذى قرأنا عنهم شيئا كثيرا عن هذه الدنيا ونعمتها والمتاع بها . ولهم كانوا ككل العالم الوثنى فى حرصه على المتاع بالحاضر وفى تعلقه به تعلقا اجتمع له من الحكمة حظ كبير . فنحن إذ نذكر المتاع على أنه اس من أسس الحياة ترانا ننقل به الى النظام الفكرى الذى الفناه والذى يتوهم أن فى العالم حقيقة واحدة يجب التوفر عليها . فاذا كان المتاع هو هذه الحقيقة

وجب التوفر على الحاضر الى حد الافراط فيه افراطا يخرج به عن معنى الخير الصحيح الذى له الى النقيض منه ويجعله شراً بحتاً. أما هؤلاء الاقدمون الذين كانوا يحرصون على المتاع بالحاضر فكان لهم من سبل القصد فى المتاع ما عليه غريزة الاحتفاظ بالنفس والاحتفاظ بالمتاع نفسه . هذه الغريزة التى تدلك فى غير منطق ولا تفكير على ان دوام المتاع لا يكون بالتوفر عليه توفر إمعان وادمان ولكن بالنهل منه الفينة بعد الفينة لتدوم غبطتك به، كما أنك انما تدوم غبطتك باليقظة إذا قطعها كل يوم بالنوم الى الحد الذى يريح النوم جسمك فيه الى يقظة جديدة . وكما أن اليقظة حقيقة والنوم حقيقة على أنهما ضدان متناقضان فالمتاع حقيقة والامتناع حقيقة وهما ضدان. وأنت بحاجة للامتناع وللمتاع حاجتك للنوم ولاليقظة. وهذا شأن كل حقيقة انسانية . يجب أن تجتمع من الضدين اللذين يكونان الحياة . أى أنها يجب أن تكون الحياة فى كمالها . فاما هذه الحقائق التى نسميها حقائق لانها ترضى منطق العقل وحده فخطها من الحق ضئيل ، أو قل انها ليست من الحق فى شئ .

ومضت على حديث الشاب برهة صمت أعقبها ضحكة حلوة جاءت من إحدى نواحي المعبد لعلها كانت سخرية الحياة من العقل وتفكيره . ثم عاد التهامس الى مثل ما كان تكاؤه افروديت برعايتها . وكان الليل تولى مدبرة اعجازه . وكما ولى بعضه ولى معه بعض الحاضرين ينحدرون الى حيث يخلعون لباس الرهبان ثم يستقلون السيارات الى حيث ينتظرون مطلع ضياء الفجر . ولم يكن أحد

يدرى فى أى سيارة جاء ، وإنما كان يعود الى حيث يريد فى السيارة
التي يدعى الى العودة فيها .

واعذرت فاتنة سميراميس لاصحابها عن العودة معهم بأن صاحبها
متمط فى الذهبية ولا بد لها من انتظاره . لكنها لم تكذب ترى
المكان خالياً إلا من الخليل والراعية ، وترى رجال الخليل ينزلون ستور
المعبد الفرعونى لتعود الذهبية كما كانت حتى أشارت الى الاشيب
فائلة فى ابتسام :

— هل لك فى أن ترى مطلع الشمس على وجه أبى الهول عند
سفح الاهرام ؟

ولما أجابها فى طرب راغبتباط الى ما أرادت استأذنا الخليل والراعية
وخلعا لباس العبادة ثم استقلا سيارة صاح الاشيب بسائقها
— هيا بنا الى الاهرام

وصاحت الفاتنة :

— هيا بنا ، الى بيت منا

حكم الرهوى

كان لنا في قرية ... من قرى مديرية الغربية صديق ذو كرم وشهامة تكتظ داره ابدًا بمشايع الفلاحين ومن عداهم من اصحابه وغير اصحابه ومن العظماء وذوى الحاجات . وكنت وجماعة من اصحابي نمضى عنده كل عام اسابيع نظمئن فيها إلى نفوسنا وننسى فيها متاعب الحياة . فاذا ذهبنا اليه استقبلنا بالبشرى واطرحاب ونزلنا منه في رحب وسعة وقضينا وقتًا بين التنزه في رياض حدائقه ومشاهدة ملاعب الخيل التي تقابل مسرتنا وبين المزارع الواسعة تقطع شاسع مسافاتها سعيًا على الاقدام أو ممتطين متون الجياد . ولاند غرس صاحبنا في مزارعه كثيرًا من الشجر أعان خصب الارض على نموها وكثرتها فكانت للسائرين تحتها ظلاً رطيباً يبدى الى النفس أنساً ومسرة ويقيها حر الشمس أيام القيظ

وكان لصديقنا ثلاثة ابناء لا يزالون ، على تقدم سنى أبيهم . يتمتعون بلذائذ الطفولة ويرتعون في نعمة حريتها . وكان أبوهم يحبهم حب العباداة . فاذا وقعت عينه على أحدهم رأيت نظرات ملؤها الحنان والعطف ورأيت على ثغره ابتسامة الغبطة والنعيم . واذا اقترب أحدهم منه اخذه اليه في تلمظ وقبل جبينه النقى وحمدق

به طويلاً ثم اجلسه على ركبته وملس على شعره وشمله من خاتمه
بما لا يبدو من أم لابنها الوحيد. وكذلك كان غلوه في محبة أولاده
موضع دهشة الكثيرين ممن يحلون فناءه

وقد انتقلنا يوماً ونحن عنده من غرف دار الضيافة الى فناء
رحب لنشهد ملب خيل اجتمع اليه شبان البلاد المجاورة على أثر عودتهم
من فرح كانوا يتسابقون فيه . وجاء أوسط أبناء صديقنا ووقف الى
جوار أبيه فرفه اليه وقبله وأجلسه الى جانبه . وسرعان ما انتظمت
الحلقة حتى دق الطبل وتقدم الى الميدان فارس جواد أدهم محجل ضامر
البطن والساق طويل شعر الذنب مشوال . وراض انفارس جواده
حتى اذا تمكن من تتبع ايقاع الطبل رأيته كأنه الراقصة على المسرح
يترنح ويميل ويدل ويعجب . يرفع رأسه طوراً فتمسح اصداغه
« كرايت » رأس الجمال . ويتقدم الى الامام مسرعاً تارة فيضيئ
الى نعمة المزمارة نعمة صريف الالهة انفضية التي تزين واسع صدره ،
ثم اذا به كأنه ثمل انتشى فنثنت سيقانه حتى كاد يمسح الارض بطنه
الضامر . وما هي الا لحظة حتى تراه انتفض على سوقه فنظر يمنة
ويسرة في كبر وخيلاء . وانا كذلك ، أخوذون برقص الجواد اذا
أقبل أحد وجوه أهل البلد فوقف القوم يحيونه وأجلسه رب الدار
الى جانبه وقام الابن فوقف مع الاطفال الواقفين . وعاد الجواد
يدهش الناس بميله ونثنيه وبدله وكبره وبلعب أبدى فيه من جمال
قوامه ما تحرص كل راقصة على ابدائه حين تقف في لين الحركات
وتثنى القد وحديث الجسم كله بما يستكن فيه من انعام الجمال .
فلما أتم دوره خرج يتبعه الاعجاب والطف . ودخل الحلقة جواد

اشهب ليس به شامة إلا ما سال من محاجره . وما كان اكبر الفرق بينه وبين سلفه . احتاج فارسه الى ان يعمل فيه السوط والركاب لينال منه بعض حركات تعجبه . وساد وسط الجمع هرج بدل صمتهم الاول . وليت هذا الاشهب ما خرج . فانه لما امضه السوط ومزق جنبه الركاب أجفل فتدافع الناس من حوله وتفرقوا ونال ابن صديقنا المحبوب من الذعر ما وقع معه مغشيا عليه . فقام أبوه كالجنون يجرى اليه ليرى ما حل به . وجعل يحدق به فاذا عيون مغمضة وخدود مصفرة ولون ذاهب ، فصاح « يا بني » ، صيحة سمعها الناس ومازالوا يتدافعون مولين لا يفكر أحد منهم في كلمة عزاء لهذا الاب الذاهل يشاركه بها في ألمه بعد اذ دعا هو الناس ليشاركوه في غبطته ومسرته . واحطنا نحن بصديقنا ، ومن بيننا طيب أراد أن يستخلص الطفل من يدايه فاذا الاب ممسك بابه حريص عليه تحتلج قلبه الزفرات وتجول في عينه العبرات حتى كأنما بدا له اليأس منه فهو يريد أن يعاينه عناقاً أخيراً طويلاً . ثم ذهبنا الى دار الضيافة واقتدناه معنا اليها . فلما احتوتنا أمسك الطيب يد الطفل ونظر الى وجهه وأخرج من جيبه زجاجة صغيرة أدناها من أنفه فاذا الطفل يفتح عينيه يحيلهما في الغرفة وما يزال به أثر الذهول . فلما رآه أبوه رجع الى الحياة أخذ يده وقبلها وجعل يلاطفه ويداعبه حتى زایل الولد ذهوله وعاد الى الحياة وعأوده تورده الجميل

بعد أيام وقد انصرف اصدقائي لبعض رياضتهم ولزمت البيت لبعض شأنى وبقي صديقنا معى يحادثنى جاء هذا الابن الينا وجلس معنا . فقلت لاييه فى ابتسامة :

— لقد أحدث عندك حادث ذلك اليوم من الشجن ما كدت تذهل معه ، ولا أنكر أنك ان أبا يجب ابناءه حبك ابناءك لجدير أن يصيبه من الهم مثل ما أصابك .
فتنهد طويلا وقال :

— أى شجن رأيت . لقد قضيت طوال السنين وحياتي في شجن وهم حتى ابيض شعري وشاب مفرقي . ثم انقضى الهم والشجن بعد أن بلغت ما أردت . وكانت ثمرة ذلك هؤلاء الابناء الذين ترى . افتراني بعد ذلك مغاليا اذا بلغ عندي حبه الجنون .

لم أفهم كل ما اراد أن يقول . لكنني ادركت ان له في الحب حديثا طويلا وانه قاسى في سبيله أكثر مما يقاى الرجل ثم حصل على من أحب وبني بها فانجبت له هؤلاء الابناء فشاقني أن أقف على همه الاول وشحنه الماضي فقلت : أى هم تريد ! لعل لك حاشيا لا تضن على بذكره ؟ قال :

— انه يا صاح حديث حياتي . وما ذكرته مرة وذكرت كيف توج القدر جهادى بالظفر الا أحسست جمال الحياة وجمال الجهاد فيها . وانك لصديق وفي لا يرضن عليه بشيء فاستمع الى :

كان لنا جار من أعز أصدقاء أبى . وكان لهذا الجار ابنة أصغر منى بنحو ست سنوات جمعت الطفولة بينى وبينها برابطة المودة . فلما كساها اشباب بديع حلتها أخذت بقلبي محاسنها وفتنتني جمالها وجعلت اختلس اللحظات لاخلوها احدها متعارف القول وما فوق

الحديث وأشعر بكل ما فى ذلك من نعمة ومناع وحياة. ثم أحسست
أننى فى نفسها مثل ما لها فى نفسى ففاحتها حديث الحب وتماهدنا
على الوفاء .

ومضت سنون وهذا الحب ينمو فى نفسينا ، ونزداد نحن
أحاساساً بعظيم ماله من سلطان علينا حتى بلغنا من ذلك أن كنا
لا تفارق إلا على موعد للقاء ، وإن كنا نقضى ما بين القيين فى شوق
ولهف ما أشدهما . فلما عرف أهلنا ما بيننا كان أول ماصنع جارنا
أن حجز ابنته عن الخروج من الدار . فبالى الأمر وأزعجنى وأدخل
الهم على نفسى وكدت أجن من فرط ما بى . ثم عولت على أن
أستعيد وإياها عهدنا الجليل الظاهر . ففقت لى الحيلة أن أستعين
بعجوز تتردد على بيتنا لاستطلع رأى محبوبتى فيما اعزمت وجعلت
أحبنى العجوز بالاحسان وأسبغ عليها لهما ضئيلة اقيمة لكنها
ذات شأن فى نفوس هاتيك الريفيات . فلما استوثقت منها سألتها
أن تكلم صاحبتى فى أمرى لترى أهى ما تزال مقيمة على عهدى .
فلما اطأنت الى حرصها على لقيائى فكرت مع العجوز فى وسائل
هذه الاقيا وطرق الخفية فيها . ولم يكن ذلك عسيراً على امرأة قضت
السنين يريد المحبين ومسودع سر المشوقين . وكانت لقيانا كل ليلة
فى فترة ما بين المغرب وانشاء حين يكون أبوانا فى الجامع يعلميان
الفرضين ويقومان لله بواجب الحمد على عظيم نعمته . فى هاته الساعة
كنا نلتقى فنجدد عهدنا وتذاكر حبنا ونتمتع باللحظات التى تمر
بنا ونزيد عليها المناع بذكر الماضى . فاذا أذن المؤذن بالشاء
جاءت العجوز فنبهتنا مخافة أن يسرقنا الوقت السريع الذهاب . وما

كان أمر ساعة الفراق على تفسينا لولا الأمل في اللقاء
ثم تحادثنا في أمر الزواج كما ينتهي ما يوجب الفراق . لكن
الشعور بأن الحياة الزوجية ، وإن أسعدها الاخلاص ، تخمد سمير نار
الحب الزاكية الحارة ، جعلنا لا نتعجل هذا الزواج ولا نقترح حدا
من أهلنا أمره . وبقينا قانعين بتلك السوية بين الفرضين كل يوم
مستمتعين منها بكل ماءويه من سعادة

وانقضى الصيف وتولت أوليات الخريف ونحن نرتشف كأس
النعيم . وانا ذات يوم جلوس تتناجى اذا قبلت العجوز قبل مر عدها
مدعورة تنادى بصوت مختنق ، مخافة أن يسمع ، منذرة بالويل
والشبور قائلة إن أبا محبر بتي عاد قبل عادته وكأنا كان على علم بما
يبننا . فانه مالبث أن تخطى عتبة الدار حتى سأل عن ابنته وألح في
المسألة غير مستمع لاعتذارات أمها انها تستحم ولا منتظر مجيئها
من حيث تكون

أحسست هذه اللحظة بالقشعريرة وتولاني الجود . أترانا
سنفتضح ؟ وهل يمكن أن يطعن شرف محبوبي بسببي ؟ لا . لا .
انى لن احتمل هذا . ولابد من درء الخطر بأية وسيلة . . ولم تمر
لحظة حتى مكنتني فكرة اللحاق بابي وصحبته طوعاً أو كرهاً إلى
أيها وخطبتها اليه زوجاً لي وملازمته حتى يذعن لما أريد . وأخبرت
صاحبتى بعزمى وطلبت اليها أن تبقى حيث هى حتى تجيئها العجوز
بخبز دخولنا إلى أيها فتدخل هى إلى الدار خفية بينا يكون
أبوها مشغولاً بنا عما هو فيه من الهياج

وهرولت مسرعا إلى أبى وناديت به وكان لا يزال فى المسجد

فخرج الى وتبعني من غير تفكير ومن غير أن يسألني عن سبب مناداته مكتفية عواطفه بما رأى عليه من الاضطراب لتسوقه كي يتبعني ويقضى طلبتي وغرضي . ولم أجد كبير عناء في إقناعه بالذهاب من فورنا الى جارتنا نخطب اليه ابنته . ودخلنا منظره الرجل وبعثنا له الخبر بقدم أبي اليه فما لبث أن جاء متكلفاً بالبشاشة مطرحاً ما استطاع مظهر الهياج والغضب . وطلب القهوة ورحب بأبي وإن لم تخف على نظرات منه كانت تتجه أحياناً الى وبها شيء من الحق بل من حب الانتقام .

وحضرت القهوة فقامت من حضرتها تأدبا وتلفت ساعة خروجي من المنظره فرأيت العجوز تومئ الى كي أطمئن . وأزالت حركة العجوز مخاوفي فجعلت أفكر في أمر ما سيتم هذه الليلة وأنا مضطرب بين السرور به والوجل منه . ثم رجعت الى المنظره فوجدت أبي وحده فسألته عن جلية الامر فأخبرني ان صديقنا دهش لهذه الخطبة الغير المنتظرة وطلب اليه أن يمهله حتى يدخل الى أهله فيشاورهم في الامر لعل لهم فيه رأياً . وقد علمت من بعد انه أول ما دخل سأل زوجته ؟

— هل جاءت البنت ؟

— نعم انها فرغت من استحمامها وخرجت . أفأناذى بها اليك ؟

— ان جارتنا يخطبها لابنه . فأرايك وهل لك علم برأيها في ذلك ؟

— ومن لي بأن أعلم وما سمعت الخبر إلا منك هذه اللحظة .
دعني أسألك .

فصاح الرجل بغة :

— يا فاجرة . من لك بأن تعلمي ؟ أو ما عرفت ما بينهما وكيف

يلتقيان ؟

— كيف يلتقيان ! هدىء روعك يا صاح . إن ابنتك من يوم

احتجبت لاتعرف ما وراء بابنا . فأنى لك بتصيد أخبار كالتى

ترميها بها ؟

— كفى كذبا يا خبيثة . وادخلى البنت على لتوها وإلا فأنى

قاتلها . لن أَرْضَى الخنا تحت سقف يظله اشرف . أين هى ؟

فظهرت على الأم سياء الجد وقالت بلمهجة الحازم القدير :

— الا هدأت من حديثك فان تراها . اقتانى إن شئت . لكنى

لن أدعها تدخل على أب . ماش الحلم يرمى فتاة طاهرة باقبح سبة

من غير سبب . . فاما أن راجعك صرابك وأعطيت على نفسك

موقفاً أن تقابلها ببشر الأب الرزين فستراها بين يديك قبل أن

يرتد إليك طرفك

فاطرق الرجل ثم خرجت الأم ولم تك الا برهة حتى عادت

تصحبها البنت وشعرها مبلل مرسل على أكتافها وعينان براقتان

وخدها محمر . فلما رآها أبوها كذلك وجهم هزيمة احتقن أثناءها

الدم فى رأسه ثم سألها :

— إن جارنا يخاطبك لآبنه . فماذا تقولين ؟

خفضت الفتاة طرفها حياء وتولت الأم الجواب :

— الأمر لك . وما كان لبنت أن تراجع أبها أو ترد عليه

قولا . . .

ثم أشارت لأبنتها أن تخرج : فلما قاربت الباب نادى بها
أبوها منضجاً :

— لملك مرتاحة لهذا الخبر . ألا فاعلمى أن الطلاق يلزمنى
ثلاثاً أن أتممت هذا الزواج ! وأنت أيتها المفاجرة . قولى من وجهى .
أخرجاً . أخرجاً . واعلماً أنى رقيب عتيد
ورجع الرجل من حرمة إلينا وهو فى هياجه . وسكت زمناً
تماماً فيه غضبه ثم قال لاني :

— إسمع يا أخى . ما كنت لأعز عليك شيئاً وإن جل ، ولا
كنت لأمنع عنك ما طلبت . لكنك تلم أنى حجرت ابنتى بسبب
ابنك الذى لا أسميه كيلاً أغضبك . ولقد حلتهما اليوم بالطلاق
ثلاثاً أن لا أزوجهما منه ولن أخت فى بمنى . وما لك عندى من
الحب والاحترام لن يؤثر فيهما امرتاه كهذا . لكن بحق هذا
الحب الذى بيننا الا عقت ابنك عما قد يس بیتی وما يقيم بيننا
ثاراً لا تمحوه يد الزمان . وفتيات بلدنا كثيرات وبينهن من يفضلن
ابنتى . فما عليك الا تزويجه من احدهن وفى ذلك
لم أعرف ما قاله بعد ذلك فقد أصابتنى حمى صحت معها :

— الا لعننى الله إن لم أتزوجها ! وتساءلك ايها الشيخ وللزمان !
وخرجت هائماً على وجهى قد تولانى اليأس فاضل صوابى وضيق
العيش أمامى وجعلنى أرى كل مافى الحياة عدواً لى وخيلاً الى
لحظة إذ أن لا بد لى من التغلب على كل قوة والذهاب إلى محبوبتى
وانزعاعها من بين أهلها وانفرار واياها لنقيم معاً دائماً والى الابد
وكانت ليلة قر ، لكن السماء كانت صفوا وكان البدر المتألق

يبعث في لجة الليل خيوطاً من فضة تنير دجاء بضياء رقيق مطمئن .
لذلك خشيت بعد ما سكن هواء تلك الساعة روعى إن أنا هممت بتنفيذ
عزمي أول الليل أحسن الناس بي وكان الفشل نصيبي . فخرجت الى المسجد
ومكثت فيه ردحاً من الزمن أفكر فيما أنا فيه شارع . وإنى لكذلك إذمر
بخطاى أن مباحثة الفتاة على غرة ومن دون علمها بالذى أنوى ربما
أدخل الجزع الى نفسها وجعلها تعترض ما أريد . لذلك رأيت أن
أجأ الى العجوز المدبرة أستمع بها وأتدبر الأمر معها . وألفيتها
عند مجاز الدار مكتئبة بائسة . فسألتها عما أصابها وفتحها ما اعزمت
ومنيها كبار الأمانى . فما زادت جراباً على ذلك كله أن قالت :

— قضى الأمر يا مولاي . فقد أقفل بابهم فى وجهى فلا أسطيع
أن أدخله بعد اليوم

قلت : — واليوم . الآن . هل فى طاقتك الوصول اليها ولو
عن طريق الشياطين

فأطرت طويلاً ثم رفعت رأسها وقالت : لا سبل . فلمنها
وخرجت تصدأ بيت محبوبتى لأتم فلمتى ولو كلفنى ذلك من الثمن
ما كلفنى . فلما كنت أراء بيتنا بصر بى أبى فنادانى اليه فأفقت
حين سمعت صوتاً وذهبت نحوه فجعل يطمئننى بكلمات رفاق وصحبى
حتى أمسى الليل وغلقت دوى الابواب . لكن ذلك لم يزدنى
إلا عزماً . فخرجت بعد هجمة الناس وتسلفت جدار جارنا ووقفت
ألى جانب الغرف أسمع . فلما أيقنت أن لا حسيس دلفت الى
غرفة نومها ونوم أمها وطرقت الباب فاتبته الأمام وفتحت . وإذا
تبينت وجهى فى ضوء القمر رجعت فزعة مذعورة ، ثم أقبلت إلى

ثانية وأدخلتني الى الغرفة وأوصدتها وقالت بصوت تننقه العبرات:
 — بربك يا بنى ارحم عائلة إن أنت أتممت ما قدمت له قذفت
 بها الى حضيض العار . بربك يا بنى . بحق هاته النائمة المهذودة
 انهكها التعب . بحق أنا وبحق الجوار ! لا تجن عليها ! لا تقتل أباهما
 المسكين . ابنتى تحبك ، ولكن تقذ انقضاء . ارجع وأنت واجد
 من النسيان خير تلمة وفي غيرها من تدلها مرات ارجع يا بنى .
 أما أنا فلم أتحرك بل بقيت صامتا صلداً منتظراً أن تفرغ من
 خرافتها كي أحتمل فريستى وأذهب ها . وفيما أنا فى انتظارها
 استيقظت الفناة وحدقت بى . فلما تبينتنى على ضوء المصباح المضئيل
 انتقلت من مرقدها وأقبلت إلى وتعلقت بعنق وجعلت تبكى ثم قالت:
 — الوداع . . .

— كلا بل فلتذهبي معى الآن الى حيث أريد
 فارتجفت الفتاة ثم تمتمت :

— رحماك حبيبى بأبى وأبى ورحمة بى أنا الأخرى . الوداع
 الآن ولكننا سنلتقى فى المستقبل . بالله إلا مارجعت أدراجك وبحق
 هذه الزيارة لن يكون لزيرك فى قلبي مكان ما حيت .
 وأغلظت فى الايمان وألحت وبكت فأخذت عبراتها عزيمة
 وقبلتها قبلة الوداع ورجعت أدراجى

بعد هذا الحادث باشر زوجها ابوها من احد اعيان القرى
 المجاورة . وكانت ليلة عرسها ليلة ماتم عندى . لزمت البيت وانفردت
 فى غرفة من الغرف وذرفت الدمع وترلانى القنوط . وفى الصباح

رأيتها خارجة من القرية في هودج وقد أحاط بها رجالها ورجال العروس وساروا جميعاً وفي يد كل منهم نبوتة ومع البعض طبنجات سمعت طلقات منها تذهب في الهواء . فلما ابتعدوا رجعت الى نفسى أفكر والحزب يفيض عني . واني لكذلك اذ جاء أبى وصديق له . فلما رأيا ما أنا فيه من الهم أخذوا يرهبان عني وأكدي أبى انه سيزوجني من فتاة متى عرفها نسيت صاحبتي ونسيت ما كان بيننا من ماض طويل سعيد .

وصدق أبى وعده . فعقد لي بعد أساييع على ابنة عمدة أكبر البلاد المحيطة بقريتنا . وأقيم لي ولها عرس نادر المثل . فلما حضرت زوجي عندي رأيت فتاة خفيفة الروح جذابة المحاسن ، فرأيت أن أنسى فيها نفسي وأجعل منها موضع حبي وأسدل على ما قبل يومها عندي حجاباً كثيفاً يحول بيننا وبين ماض كان لذيذاً وكان لي فيه سعادة وهناء . فما مضى انقضى وليس الى إحيائه أو استعادته سبيل . وعمات ، لذلك باخلاص وجد ووجدت من زوجي نعم المعين . وكان أكبر ما وجهت اليه عنايتي أن أخلق بيننا في وقت قصير ماضياً طويلاً . فأكثرنا من التريض والأسفار وواصلنا ليلنا بنهارنا لنخلق أكبر قسط من السعادة يجب أن نناله . وكانت الفتاة نادرة الذكاء واسعة الخيلة . سرعان ما فهمت مواضع الضعف مني فاستفادت من فهمها هذا ونالت بذلك كثيراً من عطفي وميلتي وجعلتني أعتقد اني سأجد فيها ما ينسيني كل هم وشجن . وبقينا كذلك شهوراً اطمانت هي فيها واطمان كثير من أهلي الى اندثار كل أثر لمحبوبتى الاولى من نفسي وشفاء كل جرح كلم به فراقها قلبي . والحق انه اشتمل

فقسى هدوء صادق وذهب غنى ذلك اليأس القاتل الذى كان آخذاً بتلايىي الى ما بعد زواجى وسكنت كلوم طالما استثارت منى صيحات الحزن والأسى .

وإنا لكذلك ناعمين بعيشنا إذ أزمع أبى وجارنا الخروج معا الى الحجاز . فلما انتهينا من التجهيز وأن موعد السفر أقبل جمع غفير من أهل بلدنا وأهل القرى المجاورة مودعين . وكان فيمن أتى محبوبتى وزوجها . وبقي الناس فى هرج الوداع ومرجه أياما . فلما جاءت ليلة البرزة خرج المسافرين ومعهما جمع غير قليل فنصبوا الخيام خارج القرية وأقاموا بها ليلتهم . . ألا سقيا لك ياليلة بروز أبى للحج . لقد جررت على مصاعب ومتاعب كاد ينوء بها عاتقك لكنك توجهت جميعاً بالفوز وختمتها بالسعادة .

كان فيمن خرج الى خيمة النساء محبوبتى . وفيما أنا اطوف والناس فى زحمة العشاء لمحتها خارج الخيمة فوقفت مبهوتا أحلق بها . ورأيتنى هى الأخرى فبهت . ثم اذا قوة قاهرة دفعت كلا منا نحو صاحبه فتقاربنا حتى وضعت يدها فى يدى من غير أن ينبس أينما بنت شفة . فى هاته اللحظة الرهيبية الرغبة : لحظة اللقيا بعد طول الفراق ، فى هاته اللحظة الجميلة المبهوبة خيم علينا الصمت وتولانا الدهول . . . وبعد زمن خيل الى فيه أن وجودى تلاشى فلم يبق لى من الحياة إلا هذه اليد الممسكة بيدي سمعت ملاكى تتمم وكأنا خنقها العبرة .

— هكذا تنسانا

لوان الارض انشقت والسماء هدت والجبال دكت لكان ذلك

أهون على وقعا من هذه الكلمة . نعم نسيها أنا الشقي . فبم عساي
أن أكفر عن ذنبي وأى جواب أرد به عليها؟ وبعد لا أئى قلت:
— غفرانك صاحبتي . لقد أحييت من نفسى لوعة لا بد لى
بعدها من الظفر بك أو الموت فى سبيلك . وموعدا غداً بعد
عودتى من السفر حيث كنا نلتقى فى رقابة المعجوز
وتتار كنا ...

تتار كنا وقد نقر من كلومى ما كان سكن وجشأت نفسى
وجاشت وثار وجودى كله وصرت لا أئى شيئاً مما يدور حولى
ولا ابصر الا موعد الغد . وقضيت ليلة نابغة ملؤها الهم وقابلت
زوجى لبعض شانى ، فما وقع نظرى عليها حتى رأيت الثعبان الذى
نقث سمه فى حياتى ودفعنى لارتكاب جريمتى !

ولم يتسع الوقت لأصب عليها جام غضبى فاختطفت من يدها ما
قدمت وأسرعت إلى الباب فتبعتنى تريد أن تعرف ما بى فزجرتها
بكلمة شديدة قابلتها بصبر وردت عليها بكلمة رققة كان جوابها منى :
— أرجعنى يا لعينة أو أنت طالق !

رجعت . وسافرت أنا الى السويس وانزلت أبى الباخرة وعدت
قبل أن يفكر أحد من الذين كانوا معى فى العودة ، ومن غير أن
يعلم أحد بعودتى . وقطعت الطريق بين المحطة وقريتنا راجلا سالكا
اقرب الطرق رغم دعورتها ويممت موعدى فاذا حبيبتي تنتظرنى
فلما رأتنى بادرت بالسؤال

— كيف وجدت عودتك ؟ ولعلك كما احب وتحب

— نعم يا صديقتى . ولعل مقدمى يسرك . وكيف أنت الآن ؟

كيف أنا ؟ . . آواه يا صاحبي لو تعلم . لقد قضيت أيامي منذ تزوجت وأنا أقطع نفسي حشرات من أجلك ... ولكن ! ... مالك أنت وهذا ... متمك الله بزوجك ومد في أيام سعادتك ... والله أيام تقضت في هذا المكان حين كان البدر يغمونا في سابع لفته وحين حدا بنا الليل والعطف الى أسباب الهناء والنعيم . أتذكر يا صاح تلك الايام ؟ أتذكر عهودنا وموathيقنا ؟ أتذكر محبيء العجوز تنبها الى الوقت وقد نسينا الوقت ونسينا الوجود ؟ أتذكر مجيئك الى أبي تخطيني ؟ وهل تذكر تسنمك دارنا وتعرضك نفسك واياي للخطر ؟ ثم هل تذكر آخر وعدى إياك أن لن يكون لغيرك في قلبي مكان ماحيت ؟ أقسم بهذه اللقيا على غير انتظار ! أقسم بحب ما زاده البعد إلا استعاراً ! أقسم بحياتك أنت ماحثت في الوعد ولن أستطيع أن أحت فيه .. لكن .. كل شيء يا صاح مضى وانقضى . رحم الله ذلك العهد ويرحمني أنا الاخرى غفور رحيم !

.. وأنهدت يهزها البكاء . أما أنا فقد صغرت أمام نفسي ، وتضاءل في عيني قدرى ، ورأيتني مجرماً بائساً شقيماً . هذه السيدة أُمّامى تبلغ من علو النفس هذا المبلغ ويكون جهادى أنا أن أسدل على ماتذ كره الساعة حجاباً كشيئاً ! .. وأنسى موathيقى وعهودى وأنسى قلبي وروحي وأنسى كل ما فى الحياة من جميل وعظيم وأرضى ذلك العيش السخيف الذى ألبسنى : كلا : كلا : لا بد من استعادة هذا الماضى ولوضحيته بالحياة فى هذا السبيل

وصح ذلك العزم عندى فهدأت جأش صاحبتى وقلت لها :
 — ما نسيانا لمهدسلف ولا فتورا فى حب يملأ وجودى حصل
 ماتقولين . لكنى خشيت ان انقص عليك عيشا ربما وجدت فيه
 الطمانينة . والآن افتعدينى إن انا طلقتك من زوجك أن تسكونى
 لى زوجا ؟

قالت وما تزال العبرة مخنقةا وعيناها مغرورقتان بالدمع :
 — وهل رأيتنى يا صديقى رجرت فى الحياة خير هذا ؟
 وقضينا مابقى من الدليل فى حديث طويل تخللته الذكرى والعتاب
 والاستغفار . فلما أذن مؤذن القرية انسحبت هى الى المخدع الذى
 اعد لها وقت أنا الى المسجد نلت فيه اغفاءة ما كان أحوجنى اليها
 بعد ايلتين مملوءتين بأقوى الاحساسات واقسامها . وبعد سفر يوم طويل .
 فلما خلوت الى نفسى ساعة الضجى أخذت افكر فى الوسيلة لتنفيذ
 ما اعترمت

عملت جهدى . وافنيت كل وسائل السلم لاقناع زوجها بتسريحها .
 فكنت كلما ازددت أصرارا ازداد هو ضنا بها وامسا كاعليها . ثم
 أصبح الامر بيننا عنادا وصار هو يرى عملى هذا جريمة انقص بها
 عيشه وأفسد عليه حياته واجنى بها على الفضيلة والمروءة . وشاركه
 رأه كثيرون بلغ من حنق بعضهم على ان خاطبنى مواجهة بان ما أترحه
 أكبر الكبائر

لم يكن ذلك ليغير من رأيى ولا ليرجعنى عن عزمى . بل جاءت
 محبوتى الى بيت أهلها باشارة منى وتبدلت وسائل السلم مع زوجها
 وسائل وعيد وتهديد . ولقد ساورتنى يوما نفسى ان أدس عليه من

يجيء على أيامه، وكنت مقدما على هذا لولا ان وقتت هي دونه مخافة ما فيه من خطر ربما جر علينا فراق الأبد

وأنا لفي شغل بتدبير أمرنا اذ جاءنا نبأ بغرق الباخرة التي تقل أبويننا عائدة من الحجاز فانقلب الفرح مآتما وارتدت النساء ثياب الحداد وأصاب الفاجعة موضع الأمل من نفسي ونفس صاحبتى وصارت تجمعنى رايها مع رابطة الحب رابطة الأسى المتبادل

وانتهى المآتم ومضت شهور بعده فتر فيها وعيدى لزواج صاحبتى وذهبت افكر فى وسيلة أخرى لبلوغ غرضى ، والتهيت الى وجوب رفع الدعوى الشرعية عليه بانه طلقها . وكتمت لى حين عرضت عليها هذا رأى من غير أن تفكر فيما تحتاج اليه مثل هذه الدعوى من المجهودات لتكون نتيجتها على ما تريد

على ان هذه المجهودات لم تكن شيئا أمامى . ودعى الزوج للمحكمة الشرعية كي يسمع حكمها بأنه طلق زوجته . واستمرت هذه الدعوى أكثر من سنة استندت منى من العناية واليقظة والجهد مالا يحيط به خيال انسان . فلم أترك شاهد زور إلا أتيت به ولا كاتباً فى المحكمة إلا رشوته ولا قاضياً إلا وصلت اليه . ولقد كاد الملل من هذه الجهود يصل بى إلى اليأس مرات . فلکم تأجلت الدعوى لغير سبب إلا لأن الكاتب رأى ما وصله غير كاف وأراد المزيد . ولكم طلب منى باسم حضرة القاضى فلم أجد حيلة الى رد طلبه . وكتم مرة رأينا تمحوير المحضر وتغيير مائبت على لسان بعض الشهود ولولا دافع من الحب والكرامة كان يدفعنى للوصول منتصراً لهان على أن أترك كل شىء

ثم صدر حكم المحكمة بالتفريق فطرت فرحا وحملت الخبر الى صاحبتي وعانتقها عنقا طويلا . ولبثنا يومين ثم لين بلدة النصر في هذه المعركة الطويلة متهللين للمستقبل الذي يتم فيه زواجنا . لكن تعاقب الايام دس الى نفوسنا ماشغل بالننا . ذلك ان المحكمة حكمت بالتفريق من غير حق ، فهل يكون زواجنا مع ذلك حلا عند الله ؟!

هنالك ذهبت الى زوجها وعرضت عليه جلية الامر : وقلت له :
— يا شيخ ! لقد أرهقناك من أمرك عسرا . لكذك رجل خير لا ترضى أن تحملنا وزرا . وأنت تعلم أنا لم يدفعنا الى ماعملنا الواقعة بك أو المساس بشرفك . وانما دفعنا اليه مالا قبل لنا بدفعه . فهل لك في مشورة من الله فتتطلق بطلاقها فتريح نفسك وتريح ضميرنا ؟

فاطرق الرجل طويلا يفكر ثم قال :
— لقد والله حملتاني هما طويلا . أما وقد رجعتا تريدان الله فليرض الله عنكما . وهى طالق . طالق . طالق ...

فشكرت له منته ورجعت الى أهلى وبلغت صاحبتي الخبر ثم ناديت زوجي وذكرت لها ما تعلم مما كان وما سيكون وقلت
— وإني لاخشى بعد زواجى الا أعدل بينكما ، فان شئت راضية سراحك سرا حجيلا

وانقضت أشهر وتزوجنا . وكان يوم زواجنا حافلا جاء فيه الذين كانوا يعيبون عملي يهنئونى وأصبحت بينهم نصير الفضل والحق ورزقت من زوجتى ابناء ثلاثة . بنتا وولدين . وهؤلاء الابناء هم عندى زينة الحياة بل الحياة . هم تاج ذلك الجهاد الطويل الذى

أنقذه أبوهم السعيد بهم . افتعجب بعد ذلك لما رأيت من ذهولى
حين أغمى على الغلام لما جفل الجواد ؟

الى هنا انتهت قصة صاحبي . وهى قصة القت للهوى بزمام
الحكم حتى فى دور القضاء . وقد غادرت صاحبي بعدها فغادرت
رجلا من السعداء القليلين الذين رأيت فى حياتى . غادرتى وأنا أغبطه
على مامتعه الله به من نعمة سابغة وهناء مقم ...

الشيخ حسن

انقطع الشيخ حسن عن معايشة أهل بلده . وبعد أن كان لا يفوته أداء الفرض جماعة في مسجد القرية الساكنة المطمئنة كان الناس لا يرونه بينهم ساعات الصلاة إلا نادراً . وارتسمت على جبينه الذي كان نقياً إلا من آثار الورع والتقوى تجاعيد الهم والألم . أما نظراته التي كانت مملوءة بالآيمان وتتم عن راحة الضمير وسكينة القلب فقد انقلبت نظرات مضطربة تنعكس من خلالها هواجس تماسقة قلقة لا تدرى أيان تستقر ، وغارت عيناه وغاض لونه وبدأ عليه نحول عصبي نكره لنفسه ولكل من عرفه . مع ذلك كانت حركاته أكثر بطأً وكأنا أمسك الهم الذي أثقله بكل عصب من أعصابه ، أو كأننا مثل انقلب الذي تولاه سلطان إرادته حتى قعده عن أن يريد أو أن يعمل

طراً هذا الانقلاب على نفس الشيخ حسن في أوليات الشتاء . وطراً عليه بعد أن كان مثال التقى والحكمة وبعد أن كان الناس ينظرون إليه نظرهم إلى ولي من أولياء الله الصالحين . ذلك أنه قضى حياته بين أهل القرية مضرب المثل في كمال الخلق وصدق الآيمان وسمو النفس . وكان من أهل العلم الذين يعملون بالعلم ولا يتخذونه متجراً . فكان يعظهم بعد كل صلاة

ويعلمهم ويفقههم في دينهم . وكان سمح الناس سريعاً إلى
المواساة يشارك الناس سراءهم وضراءهم ويفيض عليهم من
إيمانه بلسماً لجراحات آلامهم وأحزانهم . وكان نساء القرية يجدن
في سلطانه على أزواجهن ما يحميهن من عسف هؤلاء الأزواج
وما يقف حائلاً دون التلاعب بإيمان الطلاق . وكان خاصة أهل
القرية وعامتهم في احترامه وتبجيله سواء . بل لقد كان كثيرون
من أكابر أقرى وأعيان البلاد المجاورة يرون زيارته فرضاً
عليهم كما زاروا واحداً من أعيان أهل بلده . وكذلك كانت
حياته وكان عيشه مرضيين عنه راضيين عند الله والناس .

وقد ظل متمتعاً بطمأنينة الإيمان منذ نشأته فلم يثقله من
الهم إلا ما كان منذ سنوات ست حين ماتت زوجته تاركة
وحيدتها فاطمة في العاشرة من عمرها . فقد كان يوم موت هذه
الشابة الجميلة المحبة المحبوبة أشد الناس خجعة وأهولهم جزعاً .
جمدت الدموع في عينه ودب المشيب إلى فوديه وتجاوبت في
قلبه كل أصداء الحزن والألم . ويومئذ سارع الناس من أهل
بلده ومن كل البلاد المجاورة إلى تعزيتهم . ويسير على قلب يملؤه
الإيمان أن يتعزى . فهو على شدة جزعه لوقع المصائب لم يلبث
أن ذكر أن الله في كل أمر حكمة، وأن تلا قوله تعالى « وعسى
أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » . عند ذلك قشعت حرارة الإيمان
سحب الهم وحمد الشيخ ربه إذ أسبغ عليه نعمة التقى واستبقى له
فاطمة كي يسبغ على هذه الطفلة الجميلة كل ما في نفسه من حنان
وعطف وحب أبوى

وبعد انقضاء المأتم بقيت في الدار وإياه أخت له تحبه وتبجله .
فلما انقضى الاسبوع الأول فأتته في أمر زواجه من جديد
وكانت على ثقة من أنها لن تحتاج إلى أي مجهود لاقتناؤه
بضرورة الاسراع إلى القيام بواجب يفرضه عليه مركزه ومقامه
بين الناس ويدعوه إليه قلبه المشوق لاشك إلى ابن له يخلفه
ويُملئه . ثم ان النساء جميعاً مؤمنات بأن ليس بين الرجال من يطيق
عليهن صبراً أو يستطيع عنهن بعداً . لذلك كانت دهشة أخت الشيخ
عظيمة حين بدا منه التردد والاحجام . وكانت بعد ذلك أشد
دهشة حين رآته التزم عيش العزوبة قانعاً بهذه البنت التي أبقاها الله
له . لكن حبها إياها وتبجيلها إياه منع عليها الامعان في الاحراح
بعد أن أمرها بالكف عن الكلام في أمر زواجه وجعلها تدرك
ضرورة بقائها للقيام معه بشؤون داره وعلى تربية فتياته .

وكانت فاطمة طفلة اجتمع لها تيه الوحيدة ودل الجميلة . وبرغم
صغر سنها حين ماتت أمها بدت عليها رقة الأنوثة ودماثتها مع شيء
من الانفة في غير كبرياء . ولم يبعث بها أبوها للدراسة ولالكتاب
أن كان يعتقد أن المرأة إنما خلقت ربة للدار ، وان حكم الدار
حكماً صالحاً في غير حاجة إلى درس شيء غير ما تتوارثه أجيال
انساء خلفاً عن سلف ، كما أن القراءة والكتابة وما يتبعهما من
معارف كثيراً ما تجنى على الخلق وعلى الفضيلة التي يجب أن تكون
زينة المرأة وحليتها . على أن كثرة معاشرة البنت لأبها وسماعها
ما يفيض من علمه في حديثه العادي فتقا ذكائها لكثير مما لا
يجود به الحظ على غيرها من بنات أعيان الأرياء والناس الطيبين

فيها ، فكانت تعرف شيئاً عن المذن وعن المشايخ من أهل العلم الذين يقيمون بها ومن الذوات الذين يزورون هؤلاء المشايخ ويؤدون لهم فرائض الاجلال والاحترام بسبب علمهم وورعهم مما لا يفتأ الشيخ حسن يقصه عليهما ليشعرها بآله ولها من سمو المكانة ورفيع القدر ، وليدخل بذلك الى نفسها معانى الابهاء والكرامة فتشرف اخلاقها وتعظم نفسها .

وتتابعت الاشهر والسنون وكل سنة تمر تزيد فاطمة جلالاً وتزيد أباهاً تعلقاً بها . وكانت الفتاة محبة لجمالها شغوفة به أى شغف . لذلك جعلت من مرآة خلفها امها خير صديق لها . فكانت لا تمل التحديق فيها بصفحة هذا الجبين النقي المصقول فوق حواجب نونية واسمة قوست على عيون دعجا مملوء بريقهما الندى حياة واحلاماً ، وبأنف رقيق يستوى والجبين حين انحداره منه ثم يرتفع قليلاً ليرتد عن وجرى منخرين اتسعا لشميم كل ما فى الحياة مما يحملهما اليه الحسن والهوى ، ليفصل بين خدين ممتلئين فى استدارة جميلة تعلوهما حمرة تنطق بما فى الشباب من صحة ورغبة ، ثم تذوب فى سمررة قحفية جذابة . وكان أشد إعجاب فاطمة بهذا انهم الذى تراه فى المرأة كأنه وردة لم تبرز من أكامها الخضر إلا بمقدار ما تنبعث القبلية من بين هذه الشفاه فتبتسم له مسرورة به راضية عنه فتتم ابتسامتها عن أسنان فلج ناصعة البياض وعن ثغر تجرى مع سلافة ريقه كل ما توحى به سنى فاطمة من أحلام وآمال ورغبات على هذه الصورة كانت فاطمة ترى وجه صاحبها المطال من خلال المرأة المحبوبة فتزداد به شغفاً وإعجاباً . أما قوامها فكان

لدينا غصاً كأنه قوام ناعمة تؤوم الضحى . ارتفع ثوبها فوق صدر ناهد في غير اغراق وأخذ بتلايب خصر ريان في غير بطانة . وكانت ساقاها وقدمها كمال هذا الجمال اشباب المتطلع للحياة بنظرات الأمل الجاهل كل ما في الحياة من غدر ومن ألم .

وكان أبوها ضئيلاً به على الحياة ورغائبها والشباب وأحلامه . فقل أن كان يسمح لها بمغادرة الدار التي تحت جناح الظلام وفي ستر الليل . لكنه كان يعلم من أخلاق أخته وجدتها ما جعله يتسامح في ذهاب فاطمة من طريق سطوح الدار إلى منزل أعمامها وأخوالها كبر أهل البلد والأتائمون فيها بالعمدية والمأذونية . وكان يسره أحياناً أن يعرف منها أسرار أقاربه ودخائلهم مما قد لا يتاح له الوقوف عليه وهو في عزوبته وفي تقاه

وكان لها ببعض أقاربها في البيت الكبير صداقة نشأت منذ الصغر . وخشى أبوها عواقب هذه الصداقة فأسر إلى أخته أن تحرم عليها ملاقة أحد من الشبان . وكأن ما كان من فرط حذر عمه فاطمة قد نبه فيها لأول ما كملت لها حياة المرأة معاني نسوية ما كانت لتتنبه بهذه السرعة . وثار وجود الفناء ثورة لم يفكر عقلها في كبجها إذ كانت ثورة الجمال المهان . فكانت لا تلبس تحيات أكبر أقاربها ممن سمح لها بالجلوس إليهم والتحدث معهم كما كانت لاتصن بابتسامة عذبة على ذوى الود منهم . وسحر بحبها غير واحد كان يجد فيه قدس إعجاب وعبادة . وكانت ثورة الفتاة تزداد كلما ازداد أولئك المسحورون تليقها وتديلاً . ولكل ثورة نفسية لاتجد من سلطان العقل ما يكبح جماحها انفجار لا وسيلة لمقاومته الا اذا استطعت مقاومة

انفجار الرجل النائر جوفه ببخار ماتقتأ النار تزيد ثوراناً . لذلك لم تطل مقاو متها ابن عم لا يها له مالا بن عمه من مظاهر التقى وللناس به من الثقة ان كانوا يأمنونه على أموالهم واعراضهم

ومرت أساييع بدا على صحة الفتاة فيها من التغير ما أدخل الريبة إلى نفس الشيخ حسن فحاول بادىء الامر ان يقنع نفسه بأن ما بابنته من علة لاصلة له بعفائها . لكن للنساء فى القرى السنأ طوالا . وما هى إلا أيام حتى كان هذا الحديث موضع همس أهل القرية رجالا ونساء . والهمس اذا عم صار حسيساً ، وصار له صوت وكيان . وأحس الأب البائس هذا الصوت بل رآه رأى العين فى نظرات كانت توجه له وفى بعضها من الاشفاق عليه وعلى ورعه وتقاه ما هو أشد قسوة من نظرات الحقد والكراهية . لذلك انقطع عن معاشرۃ الناس وعن الذهاب الى المسجد وارتسمت على جبينه تجاعيد الهم والألم واضطربت نظراته وغارت عيناه وغاض لونه وضعفت حركته فكأنما شل الهم أعصابه وأخذ سلطان حركته حتى قعد به عن أن يريد أو أن يعمل

وكان أول ما قام بنفس الشيخ حسن ، حين هزم اليقين منها كل هوا جس الشك فرسم أمامه صورة ابنته عارية وأراه رأى العين كل عرق منها وكل نسيج من أنسجة بشرتها التهمجية المتوردة تجري فيه لذائذ الآثم والعار ، أن يذهب اليها ويقتمم الباب عليها ويقتملها ويدفن معها عارها واثمها . ولم يك ذلك منه عن روية أو عن تفكير . بل أن سلطان الوسط وفطرة الجماعة التى يعيش بينها فطرة تكونت على الزمان من عقائد وعادات ثوارتها أجيال بعد أجيال هما

الليدان دفعاه إلى ما أراد القيام به . لذلك لم يكن بحاجة إلى وقت يتدبر فيه أمره أو يقدر فيه نتائج فعلته . بل غلا الدم في عروقه وثار ثائر نفسه وملكته فطرة القضاء على هذه الأثيمة المجرمة وتم ذلك كله في أقل من لمح البصر . وهم يريد التنفيذ . لكنه لم يلبث أن بلغ باب غرفته حتى أمسكت به قوة عاقت حركته . تلك عاطفة الأبوة التي جاش بها قلبه وهزت أعماق وجوده . أترأه يقتل ابنته الوحيدة التي كرس لها حياته ووقف على سعادتها وجوده ؟ ابنته الوحيدة الباقية ذكرًا لزوجته المحبوبة ولأيام سعادته وهنائه ؟ ولو قتلها فهل تراه يظهر من أثمها ومن عارها ؟ وهل ترى الناس ينقطعون عن أن يوجهوا إليه نظرات الاسفاق القاتل والحقد البغيض ؟

وقف عند الباب برهة لجلجت فيها عاطفة الأبوة فطرة الجماعة ثم عاد إلى مخدعه وارتقى إلى جانب وسادة كان يتخذها متكأً بعد عوده من الصلاة وحيز تسبيحه وأنحط مهدود القوى عاجزاً عن التفكير وعن الإرادة لا يرى شيئاً مما أمامه ولا يدرك الوقت وممره ولا الاشباح التي تبدو من خلال نافذته . وظل في ذهوله حتى بدأت الشمس تتدرك إلى غيب الغروب . ثم دخلت إليه أخته نسأله إن كان لا يريد أن يذهب إلى المسجد لصلاة فرضي المغرب والعشاء : وكانما لمزعجه صوتها من حلمه الأليم فما يدري أيهما أشد لنفسه وخزا : أهذا الحلم المبهم الذي أنهكه والذي نسي فيه الحياة ونسى الألم ، أم هذا الصوت الذي نبهه إلى الحياة وآلامها وأعاد إلى نفسه ذكر اخته وذكر ابنته وذكر عاره الذي لا يمحي ؟ !

وارتدى الشيخ جبته ولبس عباة وعمامته ومركوبه وخرج

قاصداً المسجد . لكنه ما لبث أن اقترب منه حتى شعر كأن شيئاً يصده عنه . فقد خيل إليه أنه إذا تخطى باباً فسيحججه من فيه جميعاً بنظرات الاشفاق والازدراء أو الحقد ، وستبدو هذه المعاني في حدق تلك العيون المتجهة نحوه واضحة ناطقة تحترم نياط قلبه وتنفذ الى أعماق نفسه . ففكر راجعاً كأنما يريد العود لداره . لكنه عرج بدافع من وجدانه لا شعور له به ولا حكم له عليه عند أول منعطف يسير به بين المزارع . وهل في الدار الا الأثم والعار ؟ وهل الدار أقل إيلاماً له من نظرات المصلين ؟ وساقته قدماء إرشاطى غدير قامت حوله أشجار كسا المغيب أوراقها الخضرت بآفتاماً لا يخلو من بهجة ، قانعظف والشاطىء حتى بلغ مصلى بعيداً عن السكة العامرة بالناس والدواب . وهناك ألقى بنفسه فوق الحلفاء المفروشة بها أرض المصلى وعاد إلى مثل ما كان فيه في الدار من ذهول

وظرف في ذهوله حتى إذا اترب موعد صلاة العشاء تنبه إلى فرض ربه . ومثله ليس في ملك نفسه بل هو في ملك دينه وإيمانه . وهل أصابه إلا ما كتب الله له . وهل كان ما حل به الا من عند الله ولله الشكر والحمد على السراء والضراء ؟ فقام فتوضأ وصلى المغرب ثم صلى العشاء ، ثم رفع أوكف الضراعة الى الله أن يهديه سواء السبيل .

عاد الرجل الى داره بعد ذلك يحميه ستار الظلام من أعين الناس ونظراتهم وان لم يحمه من هجمات جيوش الهموم والآلام . وذهب الى غرفته وحاول أن ينام . لكن الهم والنوم لا يلتقيان في نفس قبل أن يذبيها الهم ويضنيها الألم . فبات يتقلب في مضجعه الى ما قبيل

الفجر إذ أسعدته سنة ساورته أثناءها فظائع الأحلام . لكنها كانت مع ذلك مسعدة ان جددت له بعض قواه ومكنته من القيام بعدها مبكراً ليؤدي لله فرض الصبح ويستغفر من عظيم ذنبه

وتعاقبت الأيام بعد ذلك والرجل يزداد كل يوم نحولا وأعصابه ترداد ضعفاً . وقل أن كان يفكر بل كانت نفسه ميدانا لحرب مرعبة قائمة بين فطرة الجماعة وعاطفة الأبوة . فطرة الجماعة تناديه الأسبيل للخلاص من العار الا بالخلاص من ابنته ، وعاطفة الأبوة تحول دون ارتقاعه ليظهر بالدم المراق دنس العار ورجسه

وفي الأوقات القليلة التي كان يفكر فيها كانت عاطفة الأبوة تتغلب عنده على فطرة الجماعة ، وكانت تعاوده هزات حنان واشفاق على نفسه . وكان لا يرى جرماً في التحدث الى بارئه يسأله ماذا جنى لتحل به نعمة الله ولتفجعه فيما هو أعز من السعادة ومن الحياة ومن الشرف ؟ في عرض ابنته الوحيدة التي كان يرجوها ملائكة طهر وعفاف فأبى القدر انقاسي الا أن تكون شيطان رجس وفسوق

وجعل المسكين يفتش في ماضي حياته عما اجترح من أثم ومعضية . فبحال أن يقضى عليه أعدل الحاكمين بغيا بتلك النكبة النكراء . ولم يزعزع من إيمانه أن كان يرى ماضيه طاهراً نقياً ، بل كان أكبر ظنه أن نفسه الأمارة بالسوء دفعته يوماً الى كبيرة لم يظن لها أن زين له الشيطان سوء عمله وجعله يراه خيراً . ولم يدر بخلده لحظة أن ربح القدر الطحون تدور فتختطف الأطفال الأبرياء من أحضان أمهاتهم وما جنوا إثمًا ، وترمل نساء من أزواج كانوا ملائكة حب ورحمة ، وتيتم أبناء من آباء وأمهات كانوا مصدر بر وعطف وحنان

لا يفنى . وهى فى دورتها وفى طحنها هذه الآرات الانسانية التافهة فى حياة الوجود العظيم ليست أكثر بها عناية منها بحجر أو بنبات أو بحشرة كالنملة أو كالدودة شأننا . وكيف يدور ذلك بخـلده وهو يقيس عدالة السماء التى يؤمن بها بعدالة الأرض التى يعيش عليها ويتوهم أن عدالة السماء تخضع لما تخضع له عدالة الأرض من عقائد وعادات ومن أوهام وترهات ومن أباطيل وخرافات

على أن هذه الأوقات القليلة التى كان يفكر فيها والتى كانت تغلب عاطفة الأبوة على فطرة الجماعة فى نفسه لم توجه فكرته لحظة نحو ابنته وما قد يكون لها من عذر فى اتيان ما أتت . بل صارت أبوته وصار اشفاقه سببا فى عطفه على نفسه وراثته لحاله . فاذا تحيل فاطمة أرسمت أمامه صورتها ساعة ثورة معانى الخصب والتخليد فى جسمها الشاب البديع . هنالك يفيض تفكيره وتتوارى عاطفته وتلبسه عقائد الجماعة فتملأ وجوده وتتحكم فيه وتجعل منه شخصا مفترسا يريد أن ينقض على هذا الاثم الذى خرجت به ابنته على شرائع الجماعة وانظمها والذى يوشك أن يشمر نفلا لا تعرف الجمعية له أباً ولا تطبق عليه قوانين الحضانة والنفقة والميراث ، ثم يزيد فى حيوانيته وفى افتراسه هذه المئات بل الألوف من الاعين التى امتلأ بها الفضاء حوله والتى تنظر اليه نظرها إلى أب فاجرة لطمت وجه الطهر والكرامة واحلت الشهوات الدنيئة منها محل العفاف والشرف

مرت الأيام والأسابيع والشيخ يزداد نحولا وأعضابه ضعفاً وفسكره ذهولا وقد جالت بنفسه مرات فكرة الانتحار فراراً من هذا العار الذى لحقه، ولكى لا يقتل ابنته فيأثم فى حق بارئه بان

يقتل نفساً حرم الله قتلها إلا بالحق . لكن هذه الفكرة انهزمت كما انهزم غيرها من الافكار . وكان الرجل كلما زاده الهم نحو لا صار أضعف تفكيراً وأكثر خضوعاً لفطرة الجماعة وتمثلاً إياها في خلايا ذهنه وفي شعاب قلبه وفي ثايا نفسه ودخائل فؤاده . عند ذلك بدأت هذه الارادة التي شلها التردد بين الفطرة والعاطفة تتحرك بدافع الاتفعال وحده كما تتحرك ارادة السبع والتمر وكل حيوان مفترس ، وبدأت شهوات الرجل تنبذ للطعام وللشراب تقوى فيها هذه الحيوانية التي أخضعت كل قوى الانسان وحسه وشعوره ، وتحكمت فيه فكرة ثابتة كان يؤمن بها ولها يخضع ، تلك أن لا سبيل لمحو العار الا بمحو مصدره . وخلقت هذه الفكرة الثابتة لنفسها منطقاً وساحت الرجل بكل وسائل تنفيذها . فهذه البنت الفاجرة لا يمكن أن تكون ابنته وهو التقى الورع القوى الايمان بالله البعيد عن مواتاة الرذيلة والنقص . ومن يدري فلعل أمها خاتنه في غفلة منه فكانت الاثيمة الفاجرة ثمرة الخيانة والاثم . بل لا شك عنده في هذه الخيانة التي أورثتها الام لابنتها ، فما كان الله ليقتص منها فتموت شابة في قوتها وفي نضرتها لولا أن ارتكبت معه معصية في حق الله . لكن البنت تنسب اليه وقد أسبغ عليها من نعمة العيش ما كفرت به حين اسلمت نفسها لهذا الاثم فكان من كفرها ما جعل الناس ينظرون اليه هذه النظرات القاتلة

وهب البنت ابنته وأمها كانت طاهرة تقية فذلك يزيد في جريمة فاطمة ولا يخفف منها . هي زانية فنصيبها القتل جزاء وفاقا . واذا كانت القرانين التي سنها الناس غير شرع الله تبيح لهم التمرغ في حماة

الشهوات وهم من القصاص بمنجاة فما كان لمؤمن بالله وشريعته أن يدع الآثام التي حرم الله تركها وهو عنها لاه ولها مطمئن . أو لم يقل الرسول عليه السلام : من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وهذا أضعف الإيمان ! وهذه البنت قد أصبحت منكراً يراه الشيخ تحت سقفه ويحسه في أعماق نفسه فوجب أن يزيله بيده ويومئذ يكون قد أدى لله وللفضيلة وللأبوة حقاً مقدساً ، ويومئذ ينظر إلى هؤلاء الناس الذين يزدرونه اليوم فيرد إليهم ازدراءهم ثم هم يكونون بورعه وتقواه أشد إيماناً

وشجذت فكرته الثابتة عزمه فلم يبق إلا أن ينفذه فيزيل هذا المنكر ويرضى بذلك إيمانه الثابت ويرضى فطرة الجماعة التي تحمكت فيه ، وسيان لديه بعد ذلك ما يكون حكم شرائع الناس عليه . ولم يرض خياله المفترس إلا أن يذبح ابنته ذبحاً ويشوه وجه البني تشويهاً ويقطع أوصالها أرباً أرباً فلا يبقى بعد ذلك عالقا بنفسه من إثمها ولا من عارها باقية . وانتظر الشيخ حتى إذا كان يوم السوق ذهب بنفسه إلى أحد باعة السكاكين فابتاع سكيناً مرهف الحاد لامع النصل متين انقبضة وحمله إلى داره وجلس بقية يومه ينظر إليه ويصور لنفسه الدم يقطر منه فيبسم لهذه الصورة وتبرق عيناه بريقاً شديداً ثم يعتريه شيء كأنه المس أو الدهول ، فإذا عاد إلى نفسه استعاد منظر الجريمة التي قدر عليه أن يرتكب ، كما قدر على ابنته من قبيل أن تخضع لسلطان الهوى ، فاعتبط بائساً اغتباطها يوم سقطتها بأثمها وشعر بالذلة

تملاً حواسه حتى لكان منظر الدم ورائحته وطعمه وصوت تفجر القلب به كان يملأ عينه وأتفه وذنه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

وأرعى الليل سدوله وسكن كل من في القرية الى أهله وذهبت فاطمة الى مضجعتها وبها من علة الحمل وسقم الهم لما كانت تسمع من عمتها من تقريع وتأنيب مذهب بحمرة خدها وإن لم يذهب بجملها ولا بابتسامة خالدة بديعة كانت تطوق ثغرها العذب الساحر. وفيما هي تتحلى بالنوم من علتها وهمها قام أبوها من غرفته ويده ذلك النصل المرهف وسار الى مضجعتها بخطوة ثابتة حتى اذا كان عندها ونظر الى وجهها شعر كأن قلبه يريد أن يضطرب بنبأة من حنان فرفع يداً لم تخل رغم ثبات جناحه من بعض الرعشة ثم أغمد النصل بكل قوته في قلب الفتاة التي فتحت عينها تحت أثر الطعنة فرائت أباهما تلمع عيناه بالشرر ويرتجف جسمه وتتم شفاهاه في صوت خفي ولكن بجرادة وقوة : الحمد لله على قضائه !

وأرادت أن تتنصل أو تدافع عن نفسها. لكنه وضع يده اليسرى على فمها واستل النصل من القلب فأفجر الدم حاراً قويا كاله الشباب والحياة وأحس الرجل رشاشاً منه يصيب وجهه ويده فزاده اقداً ما وافتراساً. ويده ثابتة ذهبت عنها كل رعشة وزايلها كل خوف حز الرجل عنق المسكينة التي حاولت أن تتخلص بكل ما فيها من قوة اليأس . لكن أباهما كان أشد منها بأساً . وبعد ما انفصل الرأس عن الجسم لذ لهذا المخلوق المفترس أن يشوه ذلك الرأس وذلك الجسم وما يزال دمهما حاراً تفجر به شرايين تلك الضحية التي

أرداها الجمال والهوى . .

وخرج الرجل بعد جريمته مؤمناً بأنه ادى فرضاً واجباً عليه أداؤه .
لذلك ظل هادئ النفس مطمئناً . فلما سئل امام القضاء لم يتردد في
الاعتراف بأنه قتل . ونال من اشفاق القضاء عليه بعد الوقوف على
أمره أن اغفاه وبرأه

ولم يطل به المقام بعد ذلك في قريته . فقد بدأ بعد أشهر من
عودته تنتابه أطوار غريبة . كان ينقطع الى خلوة في بعض المزارع
البعيدة أحياناً، ثم يعود الى معاشرته الناس أخرى، فيراه الناس ذاهلاً
طوراً، دائماً تارة، وقد ازداد أكثرهم أيماناً بورعه وبتقواه بعد الذي
رأوا عليه من هذه الاعراض وآمنوا به وليا صالحاً . لكن مدة
ولايته لم تطل بعدما اقترن هياجه بالاعتداء على الناس . فقد نقل الى
مستشفى المجاذيب وهو ما يزال الى اليوم فيه . وانك لترثي لحاله حين
تراه في ساعة سكونه يذرف الدمع سخينا على ابنته التي قتل وزوجته
التي اتهم ويضرع الى الله أن يبعث الى قلب رجل من الحنان عليه
والبر به فيورده حثفه ويضع حداً لآلامه . .

خاتمة في الادب والحضارة

كنت شغوفا بقراءة الأدب العربي القديم وما أزال . ويرجع هذا الشغف الى أيام كنت طالبا بالقسم الثانوى وحين كنت اتلقى الحقوق بمدرسة الحقوق الخديوية . وقد طالعت يومئذ الكثير من أمهات كتب هذا الأدب وحفظت عن ظهر قلب ما حجب الى تسمى مدخله . فلما كنت فى السنة الاخيرة من دراسة الحقوق بدأت متأثراً بظروف ليس ها هنا موضع ذكرها اقرأ كتباً فى الادب الانكليزى وفى الفلسفة الانكليزية ككتاب الابطال لكارليل والحرية لجون ستوارت مل والعدل أحد أجزاء الفلسفة الاجتماعية من كتب سبنسر . اذ ذاك انفسح أمامى من عوامل التفكير ما لم يمهّد اليه مطالعاتى العربية . وسافرت من بعد ذلك الى باريس وجعلت أدرس اللغة الفرنسية واتصل بأدبها فأخذ اليه من هواى كأشد ما تأخذ حسناء اليها هواى مغرم بها . فأمعنت فى قراءة هذا الأدب وجعلت أحضر من دروسه مثلما كنت أحضر من دروس الحقوق التى كانت مقصدي من سفرى لنيل اجازة الدكتوراه فيها . ودفعتنى هذه المطالعات المتصلة وما فتحت عليه عيناي من جمال البيئة المحيطة بى الى الاعجاب غاية الاعجاب بالحضارة الغربية التى

تنتج مثل هذه الثمار العذبة الشهية . ولعل أشد ما أعجبنى من هذا
الادب روح الثورة الذى يبدو فيه دائماً الضرام وحيوية متوقدة
لا تحبوق قط نارها . وأنت تشعر بهذه الثورة الأدبية فى كل صور
الأدب سواء . فالقصة والاقصوصة والرواية المسرحية وكتب
الأدب والفلسفة تنم كلها عما تضطرم بها أرواح كتابها من نشاط
دائم لا يستقر ولا يهدأ . وهو كذلك فى الكاتب الواحد وهو
أشد من ذلك فى الجيل يقب الجيل . فالشعر الكلاسيك لراسين
غيره لكورنى وكلاهما من الذين بعثوا أدب اليونان ، وشعر
معاصرها مولير فى مهازله وما سبه ثورة عليهما لانه ثورة على القديم ،
بل طليعة الثورة على القديم . وأدب القرن الثامن عشر ثورة على أدب
القرن السابع عشر . وقرن التاسع عشر ينسج فى أدبه كما ينسج
فى علمه وفلسفته على طرائق هى انثورة على القرنين اللذين سبقاه
جميعاً . وفى كل قرن تتماحن فى الادب مذاهب وتقتل آراء وتقوم
بين الادب والعلم وبين الادب والفن وبين الادب والفلسفة ثورات
لا يهدأ أوارها . وهذا النشاط المتصل وهذه الثورة لدائمة الضرام
هى خير مايقنعك بأن الحياة فى فكرة قبل أن تكون عملاً . فكرة
تسبق العمل وتوجهه سبيله . والحياة فى هذه الصورة هى الحضارة الخفية
القوية التى استلهمت الفن والعلم والادب وألهمتها فكانت حضارة
العلم والفن والادب . وكان الادب من العلم والفن هو الصدى الناطق
للحالات النفسية التى يعبر عنها الفن . وهو الفن البديع الاتساق الذى
يكسو بآياته قواعد العلم روعة وجمالاً
ومن أشد مايلفت النظر فى هذا الادب الفرنسى ومايشارك

واياه فيه أدب الغرب كله دوام الصلة بينه وبين الدين من ناحية ،
وبينه وبين العلم من الناحية الأخرى . فقل أن تجد كاتباً من كبار الكتاب
لم يعرض في واحد أو أكثر من كتبه إلى مسألة العقيدة أو إلى المسيحية ،
سواء عرض إلى هذه أو تلك بما يلائم قلبه من جلال الإيمان أو من الثورة
على العقيدة أو الدين . فالفر دوس المفقود لملتن في الأدب الانكليزي ،
والجيم لدانت في الأدب الايطالي ، وكتب رر سو وفلتر في الأدب
الفرنسي ، هذه وغيرها كلها آثار خالدة في الأدب الديني وفي الأدب
المناهض للعقيدة والدين . وهذه الكتب كلها ، سواء منها الديني
أو المناهض للدين ، تطبعها روح الثورة التي أشرنا إليها . وليس في ذلك
من عجب . فقد كان البعث الأوربي في القرن السادس عشر ثورة
من طائفة من رجال الدين على رجال الكنيسة الكاثوليكية . ولوثر
وكالفن وكوسوث هم أقطاب هذه الثورة . ثم كانت من بعد ذلك ثورة
على هؤلاء ومحاولات عنيفة لتقويض عمدة الكنيسة كلها . وإنما كان
ذلك لأن الحضارة الغربية كانت إلى ما قبل البعث وإلى ما بعده
بزمن غير قليل خاضعة أسوأ الخضوع لسلطان الكنيسة
الديني والزمني . فلما بدأت حركة البعث بدأت متمرده من جانب رجال
الدين على زملائهم لأن العقل والعلم والحكم وكل المظاهر الانسانية ،
كانت محصورة أو تكاد في رجال الدين ، وكان واجباً على من عداهم
أن يخضع إليهم أو يطرد من الكنيسة ويكون جزاؤه التعذيب والنكال
أشد النكال . فلما بدأت حرية الفكر تأخذ حظها من الحياة بنشر
ديكارت كتابته (عن الطريقة) وأصبح للناس جميعاً أن يناقشوا
الكنيسة وخطا العلم خطواته القوية كان النزاع على أشده حتى كان

انكار سلطان الكنيسة بعض ما نادى به الثورة الفرنسية، وحتى تم الفصل بين الكنيسة والدولة في فرنسا في أوائل هذا القرن العشرين. فلا جرم إذن أن يتأثر الادب وهو مرآة الحضارة بهذا النضال كله وأن يكون تصوير حرية الفكر على أنها خصومة الكنيسة بعض ما يعبر عن حقيقة واقعة في هذا النضال العنيف الذي قام في الغرب، والذي عاد اليوم يضطرب في مختلف الدول من خيفة أن يتم الصلح بين الكنيسة والدولة.

كان هذا الخوف بعيداً عن الازدهان في عهد الادب الكبير الذي أشرنا في تقديم هذا الكتاب له. لذلك لم يفتن كثيرون من المصريين ومن الشرقيين الذين أتموا دراساتهم في أوروبا الى الاسباب التي أدت بالادب الغربي لطبعه هذا النضال بين الكنيسة والدولة، وبين الحضارة الدينية والحضارة المدنية، مما أدى بأوجست كومت ليقرر قانونه عن الحالات الانسانية الثلاث — التيولوجية (اللاهوتية) والمتافيزيقية (التجريدية) والوضعية أو الواقعية — على أنها الحالات التي يمر بها عقل الجماعات البشرية وكان لا يمكن أن تتجاوز أو تتصل. وأدى عدم نجاح دين الطبيعة ودين الانسانية وما اليهما من مثلها، مما وضع روسو وكمث، ببرحسن ومدرسته الى وضع فاسفة (البرجماتية) أو الالهام. وبهذه المذاهب تأثر الادب الغربي تأثراً له علت له لان الادب في اتصاله بالحياة يتصل بالحياة الروحية والعقلية كما يتصل بالطبيعة وبالحياة المادية. والمصريون والشرقيون الذين لم يفتنوا بما يجب من الدقة الى هذا الاتصال التاريخي بين الدين والعلم والفلسفة والادب في الغرب، والذين فتنوا بأدب الغرب، هؤلاء وأولئك خيل

اليهم أنهم قديرون على نقل صور الادب الغربى الى الشرق كما هم .
 نخيل اليهم أن فى الشرق كنيسة ككنيسة الغرب ، وأن ما انتهى اليه
 النضال بين الدولة والكنيسة فى الغرب يجب أن يبدأوا عنده حملتهم
 على هذه الكنيسة الموهومة فى الشرق . وخيل اليهم ضرورة الفصل
 بين الكنيسة والدولة على نحو ما حدث فى فرنسا . وأعترف أن
 خواطر كهذه جالت بنفسى فى أوقات متفاوتة . لكنى إذ فكرت
 وفكرت رأيت تاريخ الحضارة فى الشرق غير تاريخها فى الغرب ،
 ورأيت الحضارة الاسلامية لا تعرف شيئاً اسمه انكنيسة لأن
 الاسلام لا يقر الاعتراف ولا يقر سلطة القساوسة ورجال الدين وإنما
 يقرر : ان أكرمكم عند الله أتقاكم . ولست أدري إن كان الغرب
 قد فطن الى ما لمركزه السياسى فى الشرق من مصلحة فى قيام هذه
 الحركة الجديدة التى سماها بعض كبار أساتذة الجامعات الأوربية
 « تغريب الشرق » ، أم انه هو الآخر قد خيل اليه أن حياة الشرق
 كحياة الغرب ، وأن رسالة الغرب التى ألقها الحضارة على عاتقه إنما
 تكون بهذا «التغريب» للشرق حتى ينسى تاريخه وينكر ماضيه
 ولا أحسبني أمل اقارىء اذا أنا كررت فى هذه الخاتمة ما
 قدمت فى فصول الادب القومى وفى أكثر فصول هذا الكتاب
 من أن بعث حضارة الشرق يجب أن يكون باحيائها من سبيل بحثها على
 الطرائق الحديثة لا بالتكديس على اكفائها من صفائح الغرب المستعارة
 ما يزيد فى جمودها وتكلسها تكلساً يحاول ابناؤها ازالته عنها . وهذا
 الاحياء إنما يكون بتعاون العلم والادب . العلم الذى ينقب ويتمحص
 ويجلو الغامض . والادب الذى يلتقى الضياء الشفاف على ما يكشف العلم

عنه ضياء تسعده موسيقى اللفظ العذب والاسلوب الممتلىء بذاتية صاحبه وبحياته . سنكون مدينين في هذا الاحياء لطرائق العلم الغريبه الحديثه، ويجب علينا لذلك أن نقر لهذه الطرائق بالفضل . لكننى أحسبني لأأغلو اذا أنا ذكرت أنا اذا اقتحمنا هذه السبيل فسنجد في علم الشرق وحضارته طرائق أخرى قد تعاون طرائق الغرب العلميه الحديثه وقد تتفق على الأقل معها . وقد اتفق لى أن كنت أطلع في كتاب بالانكليزية عن تاريخ الكيمياء فكانت دهشتي عظيمة وأنا أقرأ في تاريخ الكيمياء عند العرب حين عثرت على نصوص عربية منقولة ترجمتها تتحدث بنفس اللغة التي يتحدث بها العلم الحديث عن طرائقه . فالملاحظة والتجربة والتبويب والمقارنة واستنباط القوانين من ذلك كله كان مما آمن به العرب في علمهم إيمان الغرب به في علمه . راذاكر أن هذه النصوص العربية ترجع الى القرن الرابع أو الخامس الهجرى بينما هي لم تصبح موضع إيمان الغرب إلا في القرون الأخيرة . لكننى يجب على أن اعترف بأن ما وقفت عليه من قراءاتي العربية لم يهدنى الى هذا الفصل الدقيق بين العلم والدين على ما أراد مؤلفو الغرب من أنصار المذهب الواقعي (البوزنتزم) . ومع ما يجد الانسان في مذاهب انفسه العربية من التشكك والاردية والاحاد فانه ، في حدود ما قرأت ، لا يجد هذا التفريق الصريح بين ما يمكن معرفته وما لا يمكن معرفته . (The Knowable and the Unknowable) مما قدم به هربرت سبنسر لفلسفته التوفيقية . أفيرج ذلك الى ما فرق تاريخ المسيحية بين الكنيسة والعلم تقريقاً أوقف العلم موقف الخصومة من الدين بينما

لم يكن من ذلك شيء في تاريخ الحضارة الإسلامية !! قد يكون هذا . فقد رأينا من خلفاء محمد عليه السلام من يجعل المناقشة في انقرآف أمخلوق هو أم قديم موضع رعايته وعطفه ، وقد رأينا المذاهب الإسلامية يقوم بعضها في أثر بعض بأئمتها وكبار الفقهاء فيها ويختلف بعضها مع بعض بل يختلف التلاميذ مع الأئمة اختلاف أبى يوسف ومحمد مع أبى حنيفة ، ومع ذلك لم يقل أحد بسلطان مطلق للخليفة فى شلح المسلمين وطردهم من الكنيسة . صحيح أن صوراً مختلفة من النضال الدينى كانت تقوم . وعنها كانت تنشأ انقلابات سياسية جلية الخطر ، وبسببها تطورت الحضارة الإسلامية مما كانت أول خروجها من بلاد العرب الى ما صارت اليه بعد اتصالها بالفرس والمصريين والاندلس وغيرهم ، لكنها ونظمها وحركاتها سلكت سبيلا تختلف اختلافا جوهريا عما سلكت المسيحية وكنائسها .

إذا أردنا أحياء حضارة الشرق من جديد بتعاون العلم والادب فلا مفر لنا من أحياء هذه التطورات وتاريخها ومن شق الطريق فى غيابات هذا الماضى الخفى اليوم على أكثرنا ، بل علينا جميعا ، لنعيد بذلك بعث هذا الماضى والروح الذى كان يحركه ، فنعيد كذلك بعث روحنا نحن ، روحنا اقوى فى مصر ، وروحنا المصرى فى اتصاله بفلسطين وسوريا والعراق والحجاز واليمن وطرابلس وتونس وسائر البلاد التى اتصلنا بها وخضعت وأيانا فى أية حقبة من حقب التاريخ لمصير مشترك . لتكن الحضارة التى تقوم على أساس هذا الأحياء حضارة إسلامية كما أعتقد ، أو حضارة عربية كما يريد

البعض ، أو حضارة شرقيه متصله بحضارة فارس والهند ، كل ذلك قليل الأثر عند من يريد احياء هذه الحضارة العظيمة ولا يريد التلاعب بالالفاظ لغايات سياسية أو غير سياسية .

ولا مفر للأدب العربى من أن يساهم بنصيب عظيم فى هذا الاحياء ، ولا مفر له من أن يتوجه . وإن الأدب لكثيراً ما يسبق العلم فى بعث الحضارات ، وقد لا يخطئ كثيراً من يقول إن الأدب كان دائماً أسبق من العلم فى هذه السبيل . فالحضارة لم تكن يوماً ما مذهباً منطقياً يقيمه العقل وحده ، وإنما هى مجموع مطامح الحياة الى المثل الأعلى الذى ترجو الجماعة بلوغه ، وهى الى جانب ذلك تصور الجماعة الانسانية لصلتها بالوجود فى مجموعه صلة تنتسب للماضى وتنفذ الى أعماق المستقبل . والمثل الأعلى ومطامح الحياة نحوه وصلة الجماعة بالوجود ، هذه كلها تبرز بها ولا تفصل عن وحدتها عناصر من الايمان والعقيدة ومن الحياة النفسية المتأثرة بوراثنة الماضى وبمختلف عناصر الوجود مما يدخل بعضه فيما سماه سبنسر (ما لا يمكن معرفته) ، وما يدخل بعضه الآخر فى دائرة الالهام العريق المنسب بالأدب والمحتاج الى زمن لا يمر فى انساخ مداه ليكون أوثق بالعلم نسباً . وأنت فارجع فى تحقيق ذلك الى مختلف الحضارات التى تعرف . ارجع الى الحضارة اليونانية وإلى الحضارة الاسلامية وإلى الحضارة الغربية الحديثة ، تجد الأدب كان أبداً سباقاً الى اقتحام الميادين التى هيأت لهذه الحضارات بروزها وإلى شق السبل التى طوعت بلوغ الحضارات هذه الميادين . وقد ظل ذلك شأن الأدب فى صلته بتلك الحضارات أجيالاً متعاقبة حتى

جاء العلم بخطاه البطيئة الاكيدة يستصفي من هذه السبل ومن هذه الميادين خلاصة القوانين العامة التي توجه الانسانية وتوجه الحياة . واذا كان العلم قد نفى في كثير من الاحايين ما أثبت الادب فقد ظل مانفي العلم من آثار الادب متوقداً ملتبهاً يصهر بوتقة العلم حتى أطفأ العلم شعلته . فاذا قيل بعد ذلك ان هذا الادب قد قضى العلم عليه فهو انما قضى عليه بعد أن أدى للعلم وللحضارة مدى أجيال متعاقبة رسالة الادب . وهو من بعد انما يخضع في ذلك من قوانين الحياة لما يخضع له العلم نفسه . فكثيراً ما أثبت العلم في عصر من العصور قواعد وقوانين ثم جاء العلم في عصر آخر فخطم هذه القواعد وزيف هذه القوانين .

ليقتحم ادبنا إذن ماضيها . وليقتحم هذا الماضي بادوات البحث الادبي وباساليب الكتابة الحاضرة . وليقتحم هذه الميادين حراً طليقاً غير هياب ولا متردد . وليقتحمها بروح الثورة التي اقتحم بها الادب الغربي تراث اليونان وروما وتراث الكنيسة من بعدها ، وروح الثورة التي اقتحم بها الادب العربي تراث فارس ومصر واليونان ، وليقلب ، وليقلب في هذا الماضي ما شاء له الانقلاب والتقيب بروح النقد والتحريض والحرص على الحق لوجه الحق وحده . الحق في أسمى صوره التي تلمس الانسانية على الاجيال فتكاد تلمسه أحياناً حين يكشف عنه أنبياء الانسانية وشعراؤها وكتابها ، ثم لا يلبث أن يفلت من يدها لأول ماتعريها المادة وتلمهها عن جادة هذا الحق الصحيح . والحق الصحيح : الحق الذي تقوم الحضارات على أساسه والذي يدعمه الادب على أسنة أقلام كبار الموهوبين

من الكتاب ، هو الحق في صلة الانسان بالوجود كله ، بهذه الافلاك التي نرى وبهذه السماوات التي تغمرها وبالروح انقياض بالضياء والذي يحيط بذلك كله ويبعث اليه الحياة والنور . هذا الروح الذي لا نور ولا حياة ولا وجود من دونه ، وصلة الانسان بالوجود وبهذا الروح الذي ينتظم الوجود جميعاً ، هي الحقيقة العليا التي يجب أن تكون مطمح كل باحث وكل كاتب ، وأن تكون رسالة كل أدب يطمح في أن تقوم على أساسه حضارة سليمة تكفل للانسانية المجد والسعادة .

الأدب الذي يسمو بالنفس الى هذه المعاني العليا ، والذي يرتفع بها لمتصل بالوجود كله ، يجعلها تلمس حقيقة الوجود كاملة ، حقيقة هذا الروح العظيم الذي تعنو له الجباه والذي تستمد منه كل حقيقة وجودها . هذا الأدب هو الذي يقيم الحضارات السليمة الصحيحة . وأحياء هذا الأدب يجب أن نلتمسه في ماضينا . في هذا الامس العظيم الذي يفاخر به الشرق القديم تاريخ الانسانة جميعاً ، والذي يدعونا لنقيم عليه حضارة الشرق الجديد أترى أن الوقت الذي يقوم فيه شبابنا بهذا العمل المجيد؟ بذلك أناديه ، فهل بلغت النداء؟! . . .

« انتهى »

كان الفراغ من طبع «ثورة الأدب» في ٨ مايو سنة ١٩٣٣

فهرس

صفحة	
٥	تقديم
١٧	الطغاة وحرية القلم
٢٦	ثقافة الاديب
٣٩	الادب واللغة
٤٩	النثر والشعر
٦٢	علة الشعر
٧٧	فن القصص
٩٠	سبب فتور القصص
١١١	التأليف المسرحي
١٢١	الادب القومي
١٤٠	التاريخ والادب القومي
١٥٣	محاولات في الادب القومي
١٦١	ايزيس
١٧٨	راعية هاتور
١٩٥	أفروديت
٢١١	حكم الهوى
٢٣٠	الشيخ حسن
٢٤٤	خاتمة في الادب والحضارة

